

إشخ أبو العباس
أحمد بن خالد الناصري

كِتَابُ الاستقصا

لأخبار دول المغرب الأقصى

الدولة المرينية

القسم الثاني

الجزء الرابع

تحقيق وتعليق

الأستاذة

جعفر الناصري و محمد الناصري

دار الكتاب

الدار البيضاء

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لدار الكتاب

ساحة المسجد الحمدي

الدار البيضاء

1418هـ / 1997م

رقم الإيداع القانوني والدولي

1399/96

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدولة المرينية

القسم الثاني

الخبر عن دولة السلطان السعيد بالله أبي بكر بن أبي عنان بن أبي الحسن المريني

هذا السلطان أول من استبد عليه من ملوك بني مرين. أمه: أم ولد اسمها الياسمين. كنيته: أبو يحيى، وهي كنية كل من اسمه أبو بكر: لقبه. السعيد بالله. صفته: دري اللون مستدير الوجه حسن الأنف العس الشفتين، براق الثنايا، جعد الشعر. بويغ وأبوه مريض في التاريخ المتقدم، وكان محجوباً بوزيره حسن بن عمر الفودودي لا يملك معه ضراً ولا نفعاً، ولما بويغ لحق أخوه عبد الرحمن⁽¹⁾ بن أبي عنان بجبل الكاي وكان أسن منه، وإنما آثروه لمكان ابن عمه مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي من وزارته، فبعثوا إليه من لاطفه واستنزلوه على الأمان وجاء به إلى أخيه فاعتقله الحسن ابن عمر بقصبته من فاس، وبعث على أبناء السلطان الأصاغر الأمراء بالثغور، فجاء المعتصم من سجلماسة، وامتنع المعتمد بمراكش وكان بها في كفالة عامر⁽²⁾ بن محمد الهنتاتي، وكان عامر هذا من بيوتات هنتاة وأهل الرياسة والشرف فيهم، وكان السلطان أبو عنان قد أوصى إليه بولده المذكور وجعله هنالك لنظره، فلما بعثوا عليه منعه من الوصول إليهم، وخرج به من

(1) عبد الرحمن هذا لم يعده صاحب روضة النسرين في جملة أولاد السلطان أبي عنان.

(2) انظر ترجمة عامر هذا عند ابن خلدون ج أول طبع الجزائر ص 359 والتي تليها.

مراكش إلى حصنه من جبل هنتانة فجهز إليه الوزير حسن بن عمر الجيوش لنظر الوزير سليمان بن داود مشاركة في الاستبداد، وسرحه في المحرم سنة ستين وسبعمائة، فسار إلى مراكش فاستولى عليها ثم تخطى إلى الجبل فأحاط به وضيق على عامر حتى أشرف على اقتحام الحصن إلى أن بلغه خبر افتراق بني مرين بفاس، وظهور منصور بن سليمان بها على ما نذكره، فانفض العسكر من حوله وتسابقوا إلى منصور فلحقوا به، ولحق به سليمان ابن داود أيضاً وتنفس الحصار عن عامر ومكفوله، والله غالب على أمره.

ظهور أبي حمو موسى بن يوسف الزياني واستيلاؤه على تلمسان ونهوض مسعود بن عبد الرحمن إليه وطرده عنها

كان بنو عامر بن زغبة من عرب هلال خارجين على السلطان أبي عنان منذ استيلائه على تلمسان وكانت رياستهم إلى صغير بن عامر بن إبراهيم، ولما رجع أبو عنان إلى فاس اعتزم صغير على الرحلة بقومه إلى وطنهم من صحراء المغرب لأنهم كانوا متبذرين عنها بأطراف إفريقية، فدعوا أبا حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان إلى الرحلة معهم لينصبوه للأمر ويجلبوا به على تلمسان فأجابهم إلى ذلك، وأغذوا السير إلى المغرب للعيث في نواحيه، فجمع لهم أعداؤهم من سويد وكانوا خالصة لبني مرين فالتقوا بقبله تلمسان فانهزمت سويد، وهلك كبيرهم عثمان بن ونزمار، واتصل بهم في أثناء ذلك خبر وفاة السلطان أبي عنان بفاس، فأغذوا السير إلى تلمسان وقاتلوا عليها حامية بني مرين ثم اقتحموها عليهم ليلال خلون من ربيع الأول سنة ستين وسبعمائة، واستباحوا من كان بها منهم، وامتلات أيديهم من أسلابهم، واستولى أبو حمو على ملك تلمسان واستأثر بما ألفاه بها من متاع بني مرين ومن جملته هدية كان السلطان أبو عنان أعدها هنالك لبيع بها إلى طاغية برشلونة وفيها فرس أدهم من مقرباته بمركب ولجام مذهيين ثقلين فاتخذ أبو حمو الفرس لركوبه، وصرف باقي الهدية في وجوه مقاصده ولما انتهى إلى

الوزير حسن بن عمر خبر تلمسان واستيلاء أبي حمو عليها جمع شيوخ بني مرين وأخبرهم بالنهوض إليها فأبوا عليه من النهوض بنفسه، وأشاروا بتجهيز العساكر ووعدوه من أنفسهم المسير كافة ففتح ديوان العطاء وفرق الأموال وأسنى الصلات وأزاح العلل وعسكر بساحة البلد الجديد، ثم عقد عليهم لمسعود بن عبد الرحمن بن ماساي وحمل معه المال وأعطاه الآلة وسار في العساكر والألوية ولما اتصل خبر مسيره بأبي حمو أفرج له عن تلمسان ودخلها مسعود في ربيع الثاني من السنة المذكورة فاستولى عليها وخرج أبو حمو إلى الصحراء إلى أن كان ما نذكره.

ظهور منصور بن سليمان وبيعة مسعود ابن عبد الرحمن له وما نشأ عن ذلك

منصور هذا هو منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب ابن عبد الحق، وكان الناس يرجفون بأن ملك المغرب سائر إليه بعد وفاة أبي عنان وشاع ذلك على ألسنة الناس حتى تحدث به السمر والندمان وخشي منصور على نفسه من ذلك فجاء إلى الوزير حسن بن عمر وشكا إليه ذلك فنهاه أن يختلج بفكره هذا الوسواس وانتهره انتهاراً خلا عن وجه السياسة فانزجر واستكان. قال ابن خلدون: «ولقد شهدت هذا الموطن فرحمت ذلة انكساره وخضوعه في موقفه». ثم لما نهض مسعود بن عبد الرحمن إلى تلمسان واستولى عليها كان منصور هذا في جملته، ولما فر أبو حمو إلى الصحراء اجتمعت عليه جموع العرب من بني زغبة وبني معقل ثم خالفوا بني مرين إلى المغرب واحتلوا بانكاد بحللمهم وظواعنهم، فجهز إليهم مسعود بن عبد الرحمن عسكرياً من جنوده انتقى فيه مشيخة بني مرين وأمراءهم، وعقد عليهم لابن عمه عامر بن عبد الله بن ماساي وسرحه، فزحف إلى العرب بساحة وجدة فصدقه العرب القتال، فأنكشفت بنو مرين واستبيح معسكرهم واستلبت مشيختهم وأرجلوا عن خيولهم ودخلوا إلى وجدة عراة وبلغ الخبر

إلى بني مريـن الذين بتلمسان وكان في قلوبهم مرض من استبداد حسن بن عمر عليهم وحجره لسلطانهم فكانوا يتربصون بالدولة الدوائر، فلما بلغهم هذا الخبر حاصوا حيصة حمر الوحش وخلصوا نجياً بساحة البلد، فاتفقوا على البيعة ليعيش بن علي بن أبي زيان بن يوسف بن يعقوب فبايعوه، وانتهى الخبر إلى مسعود بن عبد الرحمن وكان في جملة منصور بن سليمان كما قلنا فأكرهه على البيعة، وبايعه معه الرئيس الأبكم من بني الأحمر، وقائد النصارى القهردور، وتسائل إليه الناس من كل جانب، وتسامع الملأ من بني مريـن بالخبر فتهاووا إليه وذهب يعيش بن علي لوجهه فركب البحر إلى الأندلس، واستتب أمر منصور بن سليمان واجتمع بنو مريـن على كلمته فارتحل بهم من تلمسان يريد المغرب، واعترضتهم جموع العرب في طريقهم فأوقعت بهم بنو مريـن وامتلات أيديهم من أسلابهم وظعنهم، ثم أغدوا السير إلى المغرب فاحتلوا بوادي سبو في منتصف جمادى الآخرة من سنة ستين وسبعمائة، وبلغ الخبر إلى الحسن بن عمر فبرز واضطرب معسكره بساحة البلد، وأخرج السلطان السعيد في الآلة والتعبية إلى أن أنزله بفسطاطه، ولما غشيهم الليل انفض عنه الملأ إلى منصور فأوقد الوزير الشموع وأذكى النيران وجمع الموالي والجند حول الفسطاط حتى أركب السلطان وعاد به إلى قصره وتحصن بالبلد الجديد، وأصبح منصور بن سليمان فارتحل في التعبئة حتى نزل بكدية العرائس في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وغدا على فاس الجديد بالقتال وجمع الأيدي على اتخاذ الآلات للحصار، واثالت عليه وفود الأمصار بالمغرب للبيعة، ولحقت به كتائب بني مريـن التي كانت معجزة على حصن عامر بن محمد الهتاني، ولحق به أيضاً قائدها سليمان بن داود وكاد أمره يتم وأقام على فاس الجديد يغاديهما القتال ويرأوحها، ثم بدا الخلل في عسكره ونزع عنه إلى الوزير حسن بن عمر طائفة من بني مريـن، ولحق آخرون ببلادهم ووقفوا ينتظرون مآل أمره، واستمر هذا الحال إلى غرة شعبان فبينما الناس في ذلك إذ ظهر السلطان أبو سالم بجبال غمارة فانصرفت إليه وجوه أهل المغرب، وبطل أمر السلطانين:

أبي بكر السعيد، ومنصور بن سليمان معاً، وذابا كما يذوب الملح، فأما منصور بن سليمان فإنه فر إلى بادس فقبض عليه وجيء به إلى السلطان أبي سالم فقتله، وأما السعيد فإن وزيره الحسن بن عمر لما سمع بظهور السلطان أبي سالم واستفحال أمره نبذ دعوة سلطانه المذكور وبعث بطاعته إلى أبي سالم ووعدته بالتمكين من دار الملك إن قدم عليه، فكان الأمر كذلك، وخلع السعيد يوم الثلاثاء الثاني عشر من شعبان سنة ستين وسبعمئة⁽¹⁾، ثم قتل بعد ذلك غرقاً في البحر، فإن السلطان أبا سالم بعثه في جملة الأبناء المرشحين من بني أبي الحسن إلى الأندلس، ووكل بهم من يحرسهم ثم بعد ذلك بعث إلى الموكل بهم فحملهم في سفينة كأنه يريد بهم المشرق ثم غرقهم في البحر، والأمر لله وحده.

الخبر عن دولة السلطان المستعين بالله أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن المريني

كان هذا السلطان جواداً، جم العطاء، معروفاً بالوفاء، كثير الحياء، كنيته: أبو سالم. لقبه: المستعين بالله. أمه: أم ولد رومية اسمها قمر، صفته: آدم اللون، معتدل القامة، رجب الوجه، واسع الجبين، بادن الجسم، أعين أدعج، معتدل اللحية أسودها. وكان بعد مهلك والده السلطان أبي الحسن رحمه الله قد استقر بالأندلس. بعثه إليها أخوه أبو عنان كما مر، ولما مات أبو عنان المذكور وولي ابنه الصبي طمع أبو سالم هذا في الملك، فاستأذن الحاجب رضوان مدبر دولة ابن الأحمر بالأندلس في اللحاق ببلاده فأبى عليه، فغاضه ذلك ونزع عنه إلى طاغية قشتالة وتطارح عليه في أن يحمله إلى بر العدو يطلب ملك أبيه فأسعفه وأمر به فحمل في مركب وألقى به ملاحه في ساحل بلاد غمارة بعد أن تردد في أي السواحل يليقه، ووافق

(1) وكانت دولته سبعة أشهر وعشرين يوماً.

ذلك اختلاف الكلمة بفاس ومحاصرة منصور بن سليمان للمدينة البيضاء، فتسمع الناس بخروجه ببلاد غمارة أحوج ما كانوا إليه فتسائلوا إليه من كل وجه، وانفض الناس من حول منصور ومشى أهل معسكره بأجمعهم على التعبئة فلحقوا بالسلطان أبي سالم واستغذوه إلى دار ملكه فأغذ السير إليها. وخلع الحسن بن عمر سلطانه السعيد من الأمر لتسعة أشهر من خلافته، وأسلمه إلى عمه فخرج إليه وبايعه، ودخل السلطان أبو سالم البلد الجديد يوم الجمعة منتصف شعبان من سنة ستين وسبعمائة، واستولى على ملك المغرب، وتوافت وفود النواحي بالبيعات وعقد للحسن بن عمر على مراكش، وجهزه إليها بالعساكر تخففاً منه وريبة بمكانه من الدولة، واستوزر مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي والحسن بن يوسف الورتاجني، واصطفى من خواصه خطيب أبيه الفقيه أبا عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق وجعل إلى أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ توقيعه وكتابة سره، قال: «وكنتم نزعتم إليه من معسكر منصور بن سليمان بكدية العرائس لما رأيت من اختلاف أحواله ومصير الأمر إلى السلطان أبي سالم فأقبل عليّ وأنزلني بمحل التنويه واستخلصني لكتابته اهـ».

قدوم الغني بالله ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب مخلوعين على السلطان أبي سالم والسبب في ذلك

قد قدمنا أن السلطان أبا الحجاج قتل يوم عيد الفطر بالمصلى سنة خمس وخمسين وسبعمائة وولي الأمر من بعده ابنه الغني بالله محمد بن يوسف، وكان له أخ اسمه إسماعيل فجعله الغني بالله في بعض القصور من حمراء غرناطة احتفاظاً به إلى أن كان رمضان من سنة ستين وسبعمائة فخرج الغني بالله إلى بعض منتزهاته خارج القصبة، ولما كانت ليلة سبع وعشرين من رمضان المذكور أو ثمان وعشرين منه تسور جماعة من شيعة إسماعيل

المحبوس عليه القصة ليلاً وأخرجوه من محبسه وأعلنوا بدعوته، ثم اقتحموا على حاجبه رضوان داره فقتلوه على فراشه وبين نساءه، وضبطوا القصة، وأعلنوا بالدعوة، ولم يرع الغني بالله إلا قرع الطبول بالقصة في جوف الليل، فاستكشف الخبر وتسمع فعلم بما تم عليه من خلعه وتولية أخيه، فركب فرسه وخاض الليل إلى وادي آش فاستولى عليها وضبطها، وبايعه أهلها على الموت، ثم عمد شيعة إسماعيل الثائر إلى الوزير ابن الخطيب فأودعوه السجن بعد أن أغروا به ثائرهم واكتسحوا داره واصطلموا نعمته وأتلفوا موجوده، وكان شيئاً يجل عن الحصر، واتصل ذلك كله بالسلطان أبي سالم وكانت له مصافاة مع ابن الأحمر من لدن كان عنده بالأندلس، فكتب إسماعيل الثائر وشيعته يأمرهم بتخلية طريق الغني بالله للقدوم عليه، ويشفع في تسريح ابن الخطيب وتخلية سبيله فأجابوا إلى ذلك وقدم الغني بالله بن الأحمر ووزيره ابن الخطيب على السلطان أبي سالم في السادس من محرم فاتح سنة إحدى وستين وسبعمائة، فأجل السلطان أبو سالم قدومه، وركب للقاءه، ودخل به إلى مجلس ملكه وقد احتفل في ترتيبه وقد غص بالمشيخة والعلية، ووقف وزيره ابن الخطيب على قدميه فأنشد السلطان أبا سالم قصيدته الرائية يستصرخه لسلطانه، ويستحثه لمظاهرتة على أمره واستعطف واسترحم بما أبكى الناس شفقة له ورحمة ونص القصيدة:

سلا هل لديها من مخبرة ذكر	وهل أعشب الوادي ونم به الزهر
وهل باكر الوسمي داراً على اللوا	عفت آيها إلا التوهم والذكر
بلادي التي عاطيت مشمولة الهوى	بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوى الذي ربي جناحي وكره	فها أنا ذا ما لي جناح ولا وكر
نبت بي لا عن جفوة وملالة	ولا نسخ الوصل الهني بها هجر
ولكنها الدنيا قليل متاعها	ولذاتها دأباً تزور وتزور
فمن لي بقرب العهد منها ودوننا	مدى طال حتى يومه عندنا شهر
ولله عيناً من رأنا وللأسى	ضرام له في كل جانحة جمر

وقد بددت در الدموع يد النوى
بكينا على النهر الشروب عشية
أقول لأظعاني وقد غالها السرى
رويدك بعد العسر يسران أبشري
ولله فينا علم غيب وربما
وإن تخن الأيام لم تخن النهى
وإن عركت مني الخطوب مجرباً
فقد عجمت عوداً صلياً على الردى
إذا أنت بالبيضاء قررت منزلي
زجرنا بإبراهيم براء همومنا
بمنتخب من آل يعقوب كلما
تناقلت الركبان طيب حديثه
ندى لو حواه البحر لذ مذاقه
وبأس غداً يرتاع من خوفه الردى
أطاعته حتى العصم في قنن الربا
قصداك يا خير الملوك على النوى
كففنا بك الأيام عن غلوائها
وعدنا بذاك المجد فانصرم الردى
ولما أتينا البحر يرهب موجه
خلافتك العظمى ومن لم يدن بها
ووصفك يهدي الملاح قصد صوابه
دعتك قلوب المؤمنين وأخلصت
ومدت إلى الله الأكف ضراعة
وألبسها النعمى ببيعتك التي
فأصبح ثغر الثغر يبسم ضاحكاً
وآمنت بالسلم البلاد وأهلها

وللشوق أشجان يضيق لها الصدر
فعاد أجاجاً بعدنا ذلك النهر
وأنسها الحادي وأوحشها الزجر
بإنجاز وعد الله قد ذهب العسر
أتى النفع من حال أريد بها الضر
وأن يخذل الأقوام لم يخذل الصبر
نقاباً تساوى عنده الحلو والمر
وعزماً كما تمضي المهندة البتر
فلا اللحم حل ما حيت ولا الظهر
فلما رأينا وجهه صدق الزجر
دجا الخطيب لم يكذب لعزمته فجر
فلما رآته صدق الخبر الخبر
ولم يتعقب مله أبداً جزر
وترفل في أذياله الفتكة البكر
وهشت إلى تأميلة الأنجم الزهر
لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
وقد رابنا منها التعسف والكبر
وللنا بذاك العزم فانهزم الذعر
ذكرنا نذاك العمر فاحتقر البحر
فإيمانه لغو وعرفاته نكر
إذا ظل في أوصاف من دونك الشعر
وقد طاب منها السر لله والجهر
فقال لهن الله قد قضى الأمر
لها الطائر الميمون والمحتد الحر
وقد كان مما نابيه ليس يفتر
فلا ظبة تعرى ولا روعة تعرو

وقد كان مولانا أبوك مصرحاً
وكننت حقيقاً بالخلافة بعده
فأوحشت من دار الخلافة هالة
فرد عليك الله حقه إذ قضى
وقاد إليك الملك رفقا بخلقه
وزادك بالتمحيص عزاً ورفعته
وأنت الذي يدعى إذا دهم الردى
وأنت إذا جاز الزمان محكم
وهذا ابن نصر قد أتى وجناحه
غريب يرجي منك ما أنت أهله
ففز يا أمير المؤمنين ببيعة
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا
وخذ يا إمام الحق ثاره
وأنت لها يا ناصر الحق فلتقم
فإن قيل مال، مالك الدثر وافر
يكف بك العادي ويحيا بك الهدى
أعده إلى أوطانه عنك راضياً
وعاجل قلوب الناس فيه بجبرها
وهم يرقبون الفعل منك وصفقة
مرامك سهل لا يؤودك كلفة
وما العمر إلا زينة مستعارة
ومن باع ما يفنى بباقي مخلد
ومن دون ما تبغيه يا ملك الهدى
وراد وشقر واضحات شياتها
وشهب إذا ما ضمرت يوم غارة
وأسد رجال من مرين أعزة

بأنك في أولاده الولد البر
على الفور لكن كل شيء له قدر
أقامت زماناً لا يلوح بها البدر
بأن تشمل النعمى وينسدل الستر
وقد عدموا ركن الإمامة واضطروا
وأجراً، ولولا السبك ما عرف التبر
وأنت الذي يرجى إذا أخلف القطر
لك النقض والإبرام والنهي والأمر
مهيض ومن عليك يلتمس الجبر
فإن كنت تبغي الفخر قد جاءك الفخر
موثقة قد حل عروتها الغدر
بيا لمرين جاءه العز والنصر
ففي ضمن ما تأتني به العز والأجر
بحق فما زيد يرجى ولا عمرو
وإن قيل جيش، عندك العسكر المجر
وييني بك الإسلام ما هدم الكفر
وطوقه نعماك التي ما لها حصر
فقد صدهم عنه التغلب والقهر
تحاولها يمينك ما بعدها خسر
سوى عرض ما إن له في العلا خطر
ترد، ولكن الثناء هو العمر
فقد أنجح المسعى وقد ربح التجر
جياذ المذاكي والمحجلة الغر
فأجسامها تبر وأرجلها در
مصممة غارت بها الأنجم الزهر
عمائمها بيض وآسالها سمر

عليها من المأذي كل مفاضة
هم القوم إن هبوا لكشف ملمة
إذا سئلوا أعطوا، وإن نوزعوا سطوا،
وإن مدحوا اهتزوا ارتياحاً كأنهم
وإن سمعوا العوراء فروا بأنفس
وتبسم ما بين الوشيح ثغورهم
أمولاي غاضت فكرتي وتبلدت
ولولا حنان منك داركتني به
فأوجدت مني فائتاً أي فائت
بدأت بفضل لم أكن لعظيمه
وطوقنتي النعمى المضاعفة التي
وأنت بتتميم الصنائع كافل
جزاك الذي أسنى مقامك رحمة
إذا نحن أثنيانا عليك بمدحة
ولكننا نأتي بما نستطيعه

تدافع في أعطافها اللجج الخضر
فلا الملتقى صعب، ولا المرتقى وعر
وإن واعدوا وفوا، وإن عاهدوا بروا
نشاوى تمشت في معاففهم خمر
حرام على هاماتها في الوغى الفر
وما بين قضب الدوح يتسم الزهر
طباعي فلا طبع يعين ولا فكر
وأحييتني لم يبق عين ولا أثر
وأنشرت ميتاً ضم أشلاءه قبر
بأهل، فجل اللطف وانشرح الصدر
يقبل عليها مني الحمد والشكر
إلى أن يعود الجاه والعز والوفر
يفك بها عان وينعش مضطر
فهيهات يحصى الرمل أو يحصر القطر
ومن بذل المجهود حق له العذر

ثم انفض المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى منزله المعد له وقد فرشت
القصور، وقربت له الجياد بالمراكب المذهبة، وبعث إليه بالكسا الفاخرة،
ورتب الجرايات له ولمواليه من المعلوجي وبطانته من الصنائع وانحفظ عليه
رسم سلطانه في الراكب والراجل، ولم يفقد من ألقاب ملكه إلا الأداة أدباً
مع السلطان، واستقر في جملة إلى أن لحق بعد بالأندلس، وعاد له ملكه
سنة ثلاث وستين وسبعمائة، وأرغد السلطان أبو سالم عيش ابن الخطيب،
وأفاض عليه الجرايات، ورتب له الإقطاعات، غير أنه كان مضمراً لمفارقة
السلطان والتخلي عن خدمته والانفراد بنفسه لاغتنام ما بقي من عمره في
طاعة الله تعالى، فكان من أمره في ذلك ما نذكره.

سفر ابن الخطيب إلى مراكش وأعمالها وزيارته لأوليائها ورجالها والسبب في ذلك

كان ابن الخطيب رحمه الله عندما حصلت له هذه النكبة وخلصه الله منها بانتقاله إلى بلاد العدو قد عن له رأي في التزهّد والانقطاع إلى الله تعالى واغتنام بقية العمر فيما يعود نفعه في العاجل والآجل ورفض السلطان وأسبابه، وترك ما يلجئه للوقوف ببابه، فتلطف في استئذان السلطان أبي سالم رحمه الله وطلب منه الإذن في الذهاب إلى جهات مراكش والوقوف على آثار الأقدمين بها والتطّارح على أوليائها والمشول بأعتابها والتعلّق بأذيالها والتمسك بأسبابها، جاعلاً ذلك مفتاح العزلة والتخلي عن الدولة فأذن له وكتب إلى العمال بإتحافه والاعتناء به، فتباروا في ذلك كما يفصح عنه بعض شعره الآتي، وجعل طريقه على مدينة سلا فتأمل أحوالها ورآها أوفق لمراده في العزلة، فأضمر الاستيطان بها عند عوده من وجهته. ولما دخل مدينة أنفى - وهي الدار البيضاء - مر بها على دار عظيمة تنسب إلى والي جبايتها عبو من بني الترجمان قارون قومه وغني صفه، وكان قد هلك قبل ذلك فقال ابن الخطيب:

«قد مررنا بدار عبو الوالي وهي ثكلى تشكر صروف الليالي
أقصدت ربها الحوادث لما رشقته بصائبات النبال
كان بالأمس والياً مستطيلاً وهو اليوم ما له من والي»

وأظنه في هذه الوجهة خاطب شيخ العرب مبارك بن إبراهيم بن عطية ابن مهلهل الخلطي ونص ما خاطبه به:

«ساحات دارك للضياف مبارك وبيضوء نار قراك يهدي السالك
ونوالك المبذول قد شمل الورى طرّاً وفضلك ليس فيه مشارك
قل للذي قال الوجود قد انطوى والبأس ليس له حسام فاتك
والجود ليس له غمام هاطل والمجد ليس همام باتك
جمع الشجاعة والرجاحة والندى والبأس والرأي الأصيل مبارك
للدين والدنيا وللشيم العلا والجود إن شح الغمام السافك

عند الهياج ربعة بن مكدّم	والفضل والتقوى الفضيل ومالك
ورث الجلالة عن أبيه وجده	فكأنهم ما غاب منهم هالك
فجياذه للآملين مراكب	وخيامه للقاصدين أرائك
فإذا المعالي أصبحت مملوكة	أعناقها بالحق فهو المالك
يا فارس العرب الذي من بيته	حرم لها حج به ومناسك
يا من يبشر باسمه قصاده	فلهم إليه مسارب ومسالك
أنت الذي استأثرت فيك بغبطني	وسواك فيه مأخذ ومتارك
لا زلت نوراً يهتدي بضياءه	من جنه للروع ليل حالك
ويخص مجدك من سلامي عاطر	كالمسك صاك به الغوالي صائك

الحمد لله تعالى الذي جعل بيتك شهيراً، وجعلك للعرب أميراً، وجعل اسمك فالاً، ووجهك جمالاً، وقربك جاهاً ومالاً، وآل رسول الله ﷺ آلاً، أسلم عليك يا أمير العرب وابن أمرائها، وقطب ساداتها وكبرائها، وأهنيك بما منحك الله تعالى من شهرة تبقى، ومكرمة لا يضل المتصف بها ولا يشقى، إذ جعل خيمتك في هذا المغرب على اتساعه، واختلاف أشياعه، مأمناً للخائف، على كثرة المذاهب والطوائف، وصرف الألسنة إلى مدحك والخلود إلى حبك، وما ذلك إلا لسريرة لك عند ربك، ولقد كنت أيام تجمعني وإياك المجالس السلطانية على معرفتك متهاكماً، وطوع الأمل سالماً، لما يلوح لي على وجهك من سيما المجد والحياة، والشيم الدالة على العلية، وزكاء الأصول وكرم الآباء وكان والذي رحمه الله قد عين للقاء خال السلطان قريبكم لما توجه في الرسالة إلى الأندلس نائباً في تأنيسه عن مخدومه، ومنوهاً حيث حل بقدومه، واتصلت بعد ذلك بينهما المهاداة والمعرفة، والرسائل المختلفة، فعظم لأجل هذه الوسائل شوقي إلى التشرف بزيارة ذلك الجنب الذي حلولة شرف وفخر، ومعرفته كنز وذخر، فلما ظهر الآن لمحل الأخ القائد فلان اللحاق بك والتعلق بسببك، رأيت أنه قد اتصل بهذا الغرض المؤمل بعضي والله تعالى ييسر في البعض، عند تقرير الأمر وهدنة الأرض، وهذا الفاضل بركة حيث حل لكونه من بيت أصالة وجهاد،

وماجداً وابن أمجاد، ومثلك لا يوصى بحسن جواره، ولا ينبه على إشاره،
وقيلك من العرب في الحديث والقديم، وهو الذي أوجب لها مزية التقديم،
لم تقتخر قط بذهب يجمع، ولا ذخر يرفع، ولا قصر يبنى، ولا غرس يجنى
إنما فخرها عدو يغلب وثناء يجلب وجزر تنحر وحديث يذكر وجود على
الفاقة وسماحة بحسب الطاقة فلقد ذهب الذهب وفنى النشب وتمزقت
الأثواب وهلكت الخيل العراب وكل الذي فوق التراب تراب وبقيت
المحاسن تروى وتتقل والأعراض تجلى وتصلق والله در الشاعر إذ يقول:

إنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى
هذه مقدمة إن يسر الله بعد لقاء الأمير فيجلى اللسان عما في الضمير
ومدحي على الأملأك وقف وإنما رايتك منها فامتدحت على وسمي
وما كنت بالمهدي لغيرك مدحتي ولو أنه قد حل في مفرق النجم
وقال في الشيخ ابن بطان الصنهاجي: صنهاجة أزمو:

«الله درك يا ابن بطان فما لشهير جودك في البسيطة جاحد
إن كان في الدنيا كريم واحد يزن الجميع فأنت ذاك الواحد
أجريت فضلك جعفرأ يحيى به ما كان من مجد فذكرك خالد
فالقوم منك تجمعوا في مفرد ولد كما شاء العلاء ووالد
وهي الليالي لا تزال صروفها يشقى بموقعها الكريم الماجد
ويمستعين الله يصلح منك ما قد كان أفسده الزمان الفاسد»

وقال رحمه الله عندما توسط بسيط تامسنا:

كأنا بتامسنا نجوس خلالها وممدودها في سيرنا ليس يقصر
مراكب في البحر المحيط تخبطت ولا جهة تدري ولا البر يبصر

وقال رحمه الله يخاطب أبا العباس أحمد بن يوسف حفيد المولى

الصالح سيدي أبي محمد صالح التائم في ظل صيته رضي الله عنه:

«يا حفيد الولي يا وارث الفخ ر الذي نال في مقام وحوال
لك يا أحمد بن يوسف جينا كل قطر يعي أكف الرحال»

وقال في نفاضة الجراب: لما خرجت من آسفي سرت إلى منزل ينسب إلى أبي حدو وفيه رجل من بني المنسوب إليه اسمه يعقوب فألطف وأجزل وأنس في الليل وطلبني بتذكرة ثبت عندي معرفة فكتبت له:

نزلنا على يعقوب نجل أبي حدو فعرفنا الفضل الذي ما له حد
وقابلنا بالبشر واحتفل القرى فلم يبق لحم لم ننله ولا زبد
يحق علينا أن نقوم بحقه ويلقاه منا البر والشكر والحمد
وقال رحمه الله وقد انتابه البرغوث:

زحفت إليّ ركائب البرغوث نم الظلام بركبها المحثوث
بالحبة السوداء قابل مقدمي لله أي قرى أعد خبيث
كسحت بهن ذباب سرح تجلدي ليلاً فحبل الصبر جد رثيث
إن صابرت نفسي أذاه تعبدت أو صحت منه أنفت من تحنيثي
جيشان من ليل وبرغوث فهل جيش الصباح لصرختي بمغيث
وقال رحمه الله وقد أشرف على الحضرة المراكشية حاطها الله تعالى:
«ماذا أحدث عن بحر سبحت به من البحار فلا إثم ولا حرج
دعاه مبتدع الأشياء مستويأ ما إن به درك كلا ولا درج
حتى إذا ما المنار الفرد لاح لنا صحت أبشري يا مطايا جاءك الفرج
قربت من عامر داراً ومنزلة والشاهد العدل هذا الطيب والأرج

ولما وقف على مصانع مراكش وقصورها وقصبتها واعتبر ما صار إليه حالها بعد الموحدين قال:

بلد قد غزاه صرف الليالي وأباح المصون منه مبيع
فالذي خر من بنائه قتيل والذي خر منه بعض جريح
وكأن الذي يزور طبيب قد تأتي له بها التشريح
أعجمت منه أربع ورسوم كان قدماً بها اللسان الفصيح
كم معان غابت بتلك المغاني وجمال أخفاه ذاك الضريح
وملوك تعبدوا الدهر لما أصبح الدهر وهو عبد صريح

دوخوا نازح البسيطة حتى نال ما شاء ذابل وصفيح
 حين شبت لهم من البأس نار ثم هبت لهم من النصر ريح
 أثر يندب المؤثر لما طال بعد الدنو منه النزوح
 ساكن الدار روحها كيف يبقى جسد بعد ما تولى الروح
 ومما قاله في الشيخ أبي العباس السبتي رضي الله عنه على لسان سلطانه
 الغني بالله وهو يومئذ بفاس :

«يا ولي الإله أنت جواد وقصدنا إلى حماك المنيع
 راعنا الدهر بالخطوب فجئنا نرتجي من علاك حسن الصنيع
 فمددنا لك الأكف نرجى عودة العز تحت شمل جميع
 قد جعلنا وسيلة تربك الزا كي وزلفى إلى العليم السميع
 كم غريب أسرى إليك فوافى برضى عاجل وخير سريع»
 وقال يخاطب عميد البلاد المراكشية، المتميز بالرأي والسياسة والهمة
 وإفاضة العدل وكف اليد والتجافي عن مال الجباية عامر بن محمد بن علي
 الهنتاتي :

تقول لي الأظعان والشوق في الحشا له الحكم يمضي بين ناه وآمر
 إذا جبل التوحيد أصبحت فارعاً فخيم قرير العين في دار عامر
 وزر تربة المعلوم إن مزارها هو الحج يسعى نحوه كل ضامر
 ستلقى بمشوى عامر بن محمد ثغور الأمانى من ثنايا البشائر
 والله ما تبلوه من سعد وجهه والله ما تلقاه من يمن طائر
 وتستعمل الأمثال في الدهر منكما بخير مزور أو بأغبط زائر

لم يكن همي أبقاك الله تعالى مع فراغ البال، وإسعاف الآمال، ومساعدة
 الأيام والليال، إذ الشمل جميع، والزمان كله ربيع، والدهر سميع مطيع، إلا
 زيارتك في جبلك الذي يعصم من الطوفان، ويواصل أمنه بين النوم
 والأجفان، وأن أرى الأفق الذي طلعت منه الهداية، وكانت إليه العودة ومنه
 البداية، فلما حم الواقع، وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الراقع، وأصبحت

ديار الأندلس وهي البلاقع، وحسنت من استدعائك إياي المواقع، وقوي العزم وإن لم يكن ضعيفاً، وعرضت على نفسي السفر بسبك فآلفيته خفيفاً، والتمست الإذن حتى لا نرى في قبلة السداد تحريقاً، واستقبلتك بصدر مشروح، وزند للعزم مقدوح، والله سبحانه وتعالى يحقق السؤل، ويسهل بمشوى الأمائل المثول، ويهيئ من قبيل هتاتة القبول، بفضلته انتهى.

ولما ذهب إلى عامر بن محمد المذكور ورقي الجبل زار الموضع الذي توفي به السلطان أبو الحسن رحمه الله، وقد ألم بذكر ذلك في «نفاضة الجراب»، إذ قال: وشاهدت بجبل هتاتة محل وفاة السلطان المقدس أمير المسلمين أبي الحسن رحمه الله حيث أصابه طارق الأجل الذي فصل الخطة، وأصمت الدعوة ورفع المنازعة، وعايته مرفعاً عن الابتذال بالسكنى مفروشاً بالحصباء، مقصوداً بالابتهاال والدعاء فلم أبرح يوم زيارته أن قلت:

يا حسنهما من أربع وديار	أضحت لباعي الأمن دار قرار
وجبال عز لا تذلل أنوفها	إلا لعز الواحد القهار
ومقر توحيد واس خلافة	آثارها تبني عن الأخبار
ما كنت أحسب أن أنهار الندى	تجري بها في جملة الأنهار
ما كنت أحسب أن أنوار الحجا	تلتاح في قنن وفي أحجار
مجت جوانبها البرود وإن تكن	شبت بها الأعداء جذوة نار
هدت بناها في سبيل وفائها	فكأنها صرعى بغير عقار
لما توعدها على المجد العدا	رضيت بعيث النار لا بالعار
عمرت بحلة عامر وأعزها	عبد العزيز بمرهف بتار
فرسا رهان أحرزا قصب الندى	والباس في طلق وفي مضمار
ورثا عن الندب الكبير أبيهما	محض الوفاء ورفعة المقدار
وكذا الفروع تطول وهي شبيهة	بالأصل في ورق وفي أثمار
أزرت وجوه الصيد من هتاتة	في جوها بمطالع الأقمار
لله أي قبيلة تركت لها الـ	نظراء دعوى الفخر يوم فخار
نصرت أمير المسلمين وملكه	قد أسلمته عزائم الأنصار

وارت علياً عند ما عظم الردى
وتخاذل الجيش اللّهام وأصبح الأ
كفرت صنائعه فيمم دارها
وأقام بين ظهورها لا يتقي
فكانها الأنصار لما أن سمت
لما غدا لحِظاً وهم أجفانه
حتى دعاه الله بين بيوتهم
لو كان يمنع من قضاء الله ما
قد كان يأمل أن يكافئ بعض ما
ما كان يقنعه لو امتد المدى
فيعيد ذاك الماء ذائب فضة
حتى تفوز على النوى أوطانها
حتى يلوح على وجوه وجوههم
ويسوغ الأمل القصي كرامها
ما كان يرضى الشمس أو بدر الدجا
أو أن يتوج أو يقلد هامها
حق على المولى ابنه إيثار ما
فلمثلها ذخر الجزاء، ومثله
وهو الذي يقضي الديون وبره
حتى تحج محلة رفعوا بها
فيصير منها البيت بيتاً ثانياً
تغني قلوب القوم عن هدى به
حييت من دار تكفل سعيها الـ
وضفت عليك من الإله عناية

والرّوع بالأسماع والأبصار
بطلال بين تقاعد وفرار
مستظهِراً منها بعز جوار
وقع الردى وقد ارتمى بشرار
فيما تقدم غربة المختار
نابت شفاهم عن الأشفار
فأجاب ممثلاً لأمر الباري
خلصت إليه نوافذ الأقدار
أولوه لولا قاطع الأعمار
إلا القيام بحقها من دار
ويعيد ذاك الترب ذوب نضار
من ملكه بجلائل الأوطار
أثر العناية ساطع الأنوار
من غير ما ثنياً ولا استعصار
عن درهم فيهم ولا دينار
ونحورها بأهله ودراري
بذلوه من نصر ومن إيثار
من لا يضيع صنائع الأحرار
يرضيه في علن وفي أسرار
علم الوفاء لأعين النظار
للطائفين إليه أي بدار
ودموعهم تكفي لرمي جمار
محمود بالزلفى وعقبى الدار
ما كرّ ليل فيك أثر نهار

ويعني بالمولى ابنه: السلطان أبا سالم بن أبي الحسن. ثم سار ابن
الخطيب إلى أغمات فزار مشاهدها وشاهد معاهدها فحكى عن نفسه رحمه الله

قال: «وقفت على قبر المعتمد بن عباد في مدينة أغمات في حركة أعملتها إلى الجهات المراكشية باعثها لقاء الصالحين، ومشاهدة الآثار سنة إحدى وستين وسبعمائة، وهو بمقبرة أغمات في نشز من الأرض، وقد حفت به سدره، وإلى جنبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك، وعليهما أثر التغرب ومعاناة الخمول من بعد الملك. فلم تملك العين دمعها عند رؤيتهما فأنشدت في الحال:

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات	رأيت ذلك من أولى المهمات
لم لا أزورك يا أندى الملوك يداً	ويا سراج الليالي المدلهمات
وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه	إلى حياتي لجادت فيه أبيات
أناف قبرك من هضب يميزه	فتنتحيه حفيات التحيات
كرمت حياً وميتاً واشتهرت علأ	فأنت سلطان أحياء وأموات
مارثي مثلك في ماضٍ، ومعتدي	ألا يرى الدهر في حال ولا آت

ولما انكفأ ابن الخطيب رحمه الله راجعاً من سفرته هذه وانتهى إلى سلا أقام بها متبذراً عن سلطانه، رافضاً للملك وأسبابه طول مقامه بالمغرب على ما نذكره إن شاء الله.

بقية أخبار ابن الخطيب بسلا حرسها الله

قد قدمنا أن ابن الخطيب كان قد عزم على التخلي عن الدنيا والانقطاع إلى الله تعالى، وأنه اجترأ أن يكون مقامه بسلا لكونها يومئذ أعون له على مراده من غيرها حسبما يؤخذ ذلك من مواضع من كلامه، من ذلك أنه لما وصف أمصار الأندلس والمغرب في مقاماته المشهورة، وصف مدينة سلا بقوله: «العقيلة المفضله، والبطيحة المخضله، والقاعدة المؤصله، والسورة المفصله، ذات الوسامة والنضاره، والجامعة بين البداوة والحضاره، معدن القطن والكتاب، والمدرسة والمارستان، والزاوية كأنها البستان، والوادي المتعدد الأجفان، القطر الأمين عند الرجفان، والعصير العظيم الشأن، والأسواق السارة حتى برقيق الحبشان اكتنفها المسرح، والخصب الذي لا

يبرح، والبحر الذي يأسو ويجرح، وشقها الوادي الذي يتم محاسنها ويشرح، وقابلها الرباط، الذي ظهر به من المنصور الاغتباط، حيث القصبة والسباط، ثم يقع الانحطاط إلى شالة مرعى الدم ونتيجة الهم، ومشمخ الأنوف ذوات الشمم، وعنوان الرمم، حيث الحسنات المكتتة، والأوقاف المرتبة، والقباب كالأزهار، مجودة بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار، وطلل حسان المثل في الاشتهار، وهي على الجملة من غيرها أوفق، ومغارمها لاحترام الملوك الكرام أرفق، ومقبرتها المنضدة عجب في الانتظام، معدودة في المواقف العظام، ويتأتى بها للعباد الخلوة، وتوجد عندها للهموم السلوة، كما قال ابن الخطيب:

وصلت حثيث السير فيمن فلى الفلا فلا خاطري لما نأى وانجلا انجلا

ولا نسخت كربى بقلبي سلوة فلما سرى فيه نسيم سلا، سلا

وكفى بالشابل رزقاً طرياً، وسمكاً بالتفضيل حرياً، يبرز عدد قطر الدير، ويباع ببخس القيم، ويعم المجاشر النائية والخيم» اهـ.

وما قاله في حق سلا من كونها تتأتى بها للعباد الخلوة، هو كذلك معروف عند صلحاء المغرب وعباده من لدن قديم، ولذا لما قدم أبو العباس بن عاشر رضي الله عنه من الأندلس، وتنقل في بلاد المغرب مثل فاس ومكناسة، لم يطب له القرار إلا بسلا، وقد صرح رضي الله عنه بذلك حيث قال:

سلا كل قلب غير قلبي ما سلا أيسلو بفاس والأحبة في سلا

بها خيموا فالقلب خيم عندهم فأجروا دموعي مرسلاً ومسللاً

ولما ذكر أبو العباس الصومعي رحمه الله في كتابه الموضوع في مناقب الشيخ أبي يعزى رضي الله عنه استحباب زيارة الأولياء قال ما نصه: «ولا سيما في مشاهد الأخيار إذا اجتمعوا في مكان من الأمكنة المشرفة كما كانوا يجتمعون قبل هذا برباط شاكراً، ويساحل دكالة، ويسلا، وبجبل العلم، وعند

الشيخ أبي يعزى في أيام الربيع وغير ذلك» اهـ.

وأقول على ذكر سلا: فقد كتب إلي، وأنا بمراكش حرسها الله، الأخ في الله الفقيه الأديب المحاضر أبو عبد الله محمد بن عزوز الرباطي أصلاً المراكشي داراً، بطاقة يقول فيها ما نصه: «الحمد لله وحده. السيد الأخ، الذي ثوب إخائه ما اتسخ، الفقيه العلامة، اللابس من أسلحة العلوم الدرع واللامه، أبا العباس السيد أحمد الناصري سلام عليك سلاماً ذكي العرف رائج الصرف، وبعد، فقد اشتقنا إلى لذيد مذكراتكم، وحلو فكاهتكم، والآن نحب من السيادة أن تشرفونا بنقل قدمكم وتكرمونا بطلعتكم السعيدة، بكرة غد إن شاء الله وعلى المحبة والسلام في فاتح رجب الفرد سنة أربع وتسعين ومائتين وألف، وألحق بأسفلها ما نصه:

سلا البحر ما بحر بنيت بشطه كبحر علوم فيك أنشئ صالحا
فهذا هو الفياض بالعلم والتقى وذاك هو الفياض بالماء مالحا

ولم ندر هل البيتان له أو تمثل بهما، وعلى كل حال فما قاله حفظه الله إنما حملة عليه حسن نيته وصفاء طويته وأما المكتوب إليه بهما فلا والله لا علم ولا تقى، إلا أن يتغمدنا الله برحمته، ثم إنى أجبته بنشر تركته للاختصار ووصلته بأبيات أقول فيها ما نصه:

بعثت أبا عبد الإله مدائحا هو الدر حسناً والشذور لوائح
فنبهت فكراً طالما بات نائماً وروضت ذهناً طالما ظل جامحاً
وشيدت من ذكري وقد كان خاملاً وهيجت من قلبي الشجي القرائح
وطوقني النعمى بتقريضك الذي به ظل مجدي للنجوم مصافحاً
والأفما قدرني وإن جد جده وما قيمتي لو لم تكن لي مادحاً
فأنت أديب العصر حقاً ومن غدا لعمري لأبواب المعارف فاتحاً
فخذ من أخيك العي واستر عيوبه وسامح فظني أن تكون مسامحاً
فوصفك يعيي كل أشدق بارع ولو ظل في بحر البلاغة سابحاً
فلقيت من ذي العرش كل كرامة ووقيت من هذا الزمان الطوائحاً

ولا زال هذا الدهر طوعك خادماً
علاك وطرف السعد نحوك طامحاً
ومما مدح به سلا وأهلها قول الإمام العلامة الهمام أبي علي الحسن بن
مسعود اليوسي رضي الله عنه:

مرسى سلا مأوى الشمم
بلد بحسبك منظر منه ومخبره أتم
متراً في حلة من حسنه جنب العلم
وتراه من جناته متلاً بين الأجم
وكوجه خود حقه السوالف في دلم
والثغر من زنجية ترنو إليه وقد بسم
يعلو فوق جنبه علم تدلى من أمم
أو كالكبير مزماً أودى بنهضته الهرم
أو كالجواد بأنفه من ذلك القصر الرثم
عجياً صحيح والهوى أبداً عليل ذو سقم
حاكى العقار وفاقها بصفاء لون الشيم
من نبلهم دون العويص ونبلهم خلف الحرم
من كل أبيض وجهه تجلى به سدف الظلم
وأحبة كانوا لنا كالماء بالراح التأم
البين بين جسوننا لا بين أنفسنا يحم
والصلق نهج قد علا في كل أوجهه علم
والنفس أرض قد كرا المعين ذوو الكرم
والعلم ورد ما حلا إلا لمن نزع الحلم
والدهر دولاب شما فيه سوى أهل الشمم

والمجد عن طول الأمم
مسري الهموم ومسرح الأبصار مسلاة الغمم
كالجرة الحسنة في كنف الهمام المحترم
كالدر بين زمرد في قرط مارية انتظم
وكغرة في أدهم والصبح في جنح الإحم
والبدرا بين الدجى والشيب في سود اللمم
فكأنه تاج اللجين على جيني ذي عظم
في رأسه صلح وفيما تحت جبهته غمم
يكفيك منه هواؤه لا خبث فيه ولا وخم
وزلاله العذب الذي يشفي الفؤاد من الضرم
أبناء مجد في الألى كانوا يراعون الذمم
ونفيسهم فقح الفلا ونفوسهم بيض الرخم
في الخطب بدراً مع ولدى الندى بحر خضم
لم يعد بين بيننا ولو الفراق بنا ألم
والعهد جبل ما انفصا عنه الوداد ولا انفصم
والبر مرعاه قرى من فيه للحسنى قرم
والدين روض قد رعى فيه من العقبى رعم
والسر برق ما أضأ إلا لمن غسل الإضم
من ذاق مورده الصري يوماً فللدنيا صرم

ولنرجع إلى بقية أخبار ابن الخطيب.

ولما استقر بسلا واطمأن جنبه بها قال:

يا أهل هذا القطر ساعده القطر
بليت فدلوني لمن يرفع الأمر

تشاغلته بالدنيا ونمت مفرطاً وفي شغلي أو نومتي سرق العمر

ثم حرص على لقاء الشيخ ابن عاشر رضي الله عنه حتى ظفر به فعظم سروره بذلك وتبجح به إذ قال في «نفاضة الجراب»: «ولقيت من أولياء الله تعالى بسلا الولي الزاهد الكبير، المنقطع القرين، فراراً عن زهرة الدنيا وعزوفاً عنها، وإغراقاً في الورع وشهرة بالكشف، وإجابة الدعوة وظهور الكرامات: أبا العباس بن عاشر، يسر الله تعالى لقاءه، على تعذره، لصعوبة تأتیه وكثافة هيئته، قاعداً بين القبور في الخلاء، رث الهيئة مطرق اللحظ، كثير الصمت مفرط الانقباض والعزلة، قد ضرسه أهل الدنيا وتطارحهم فهو شديد الاشمتزاز من قاصده، مجرمز للوثبة من طارقه نفع الله تعالى به» اه كلامه في «النفاضة» وقال رحمه الله من قصيدته العينية السلاوية التي وجهها إلى سلا أيام خلف بها أهله وولده:

بولي الله فابداً وابتدر واحد الأحاد في باب الورع

ومراده بولي الله ابن عاشر المذكور.

ثم إن ابن الخطيب بعد رجوعه من مراكش جعل يتتاب رباط شالة مدفن الملوك من بني مرين، ومنهم السلطان أبو الحسن رحمه الله للدعاء وقراءة القرآن بها وتعاهدها، وقد كتب بذلك إلى السلطان أبي سالم وطلب منه أن يشفع له عند أهل الأندلس في رد متاعه الذي أتلّفوه عليه أيام النكبة، ونص الكتاب: «مولاي، المرجو لإتمام الصنيعة وصلة النعمة وإحراز الفخر، أبقاكم الله تعالى تضرب بكم الأمثال في البر والرضا وعلو الهمة ورعي الوسيلة، مقبل موطئ قدمكم المنقطع إلى تربة المولى والدكم، ابن الخطيب، من الضريح المقدس بشالة وقد حط رحل الرجاء في القبة المقدسة وتيمم بالتربة الزكية وقعد بإزاء لحد المولى أبيكم ساعة إيابه من الوجهة المباركة، وزيارة الربط المقصودة، والترب المعظمة، وقد عزم أن لا يبرح طوعاً من هذا الجوار الكريم والدخيل المرعى حتى يصله من مقامكم ما

يناسب هذا التطارح على قبر هذا المولى العزيز على أهل الأرض، ثم عليكم، والتماس شفاعته في أمر سهل عليكم، لا يجر إنفاد مال ولا اقتحام خطر إنما هو إعمال لسان وخط بنان وصرف عزم وإحراز فخر وإطابة ذكر وأجر وذلك أن العبد عرفكم يوم وداعكم أنه ينقل عنكم إلى المولى المقدس بلسان المقال ما يحضر مما يفتح الله تعالى فيه، ثم ينقل عنه لكم بلسان الحال ما يتلقى عنه من الجواب وقال لي صدر دولتكم وخالصتكم وخالصة المولى والدكم سيدي الخطيب، يعنى ابن مرزوق، سنى الله تعالى أمله من سعادة مقامكم وطول عمركم: «أنت يا فلان والحمد لله ممن لا ينكر عليه الوفاء بهذين الفرضين، وصدر عنكم من البشر والقبول والإنعام ما صدر، جزاكم الله تعالى جزاء المحسنين» وقد تقدم تعريف مولاي بما كان من قيام العبد بما نقله إلى التربة الزكية عنكم حسبما أداه من حضر ذلك المشهد من خدامكم، والعبد الآن يعرض عليكم الجواب وهو: أني لما فرغت من مخاطبته بمرأى من الملاء الكبير، والجم الغفير، أكببت على اللحد الكريم داعياً ومخاطباً وأصغيت بإذني نحو قبره وجعل فؤادي يتلقى ما يوحيه إليه لسان حاله، فكأنني به يقول لي: «قل لمولاك يا ولدي ورقة عيني المخصوص برضاي وبري وستر حريمي ورد ملكي، وصان أهلي وأكرم صنائعي، ووصل عملي، أسلم عليك وأسأل الله تعالى أن يرضى عنك ويقبل عليك، الدنيا دار غرور ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: 77]، وما الناس إلا هالك وابن هالك» ولا تجد إلا ما قدمت من عمل يقتضي العفو والمغفرة أو ثناء يجلب الدعاء بالرحمة ومثلك من ذكر فتذكر وعرف فما أنكر، وهذا ابن الخطيب قد وقف على قبري وتهمم بي، وسبق الناس إلى رثائي، وأنشدني ومجدني وبكى لي ودعا لي وهنأني بمصير أمري إليك، وعفر وجهه في تربتي، وأملني لما انقطعت مني آمال الناس فلو كنت يا ولدي حياً لما وسعني أن أعمل معه إلا ما يليق بي، وأن أستقل فيه الكثير، وأحتقرن العظيم لكن لما

عجرت عن جزائه وكلته إليك، وأحلته يا حبيب قلبي عليك، وقد أخبرني أنه سلب المال كثير العيال، ضعيف الجسم، قد ظهر في عدم نشاطه أثر السن، وأمل أن يتقطع بجوارري ويستتر بدخيلي وخدمتي، ويرد عليه حقه بخدمتي ووجهي، ووجوه من ضاجعني من سلفي، ويعبد الله تعالى تحت حرمتك وحرمتي، وقد كنت تشوفت إلى استخدامه في الحياة حسبما يعلمه حبيبنا الخالص المحبة، وخطيبنا العظيم المزية القديم القرية، أبو عبد الله بن مرزوق فاسأله يذكرك، واستخبره يخبرك، فأنا اليوم أريد أن يكون هذا الرجل خديمي بعد الممات إلى أن نلحق جميعاً برضوان الله تعالى ورحمته التي وسعت كل شيء، وله يا ولدي ولد نجيب يخدم ببابك، وينوب عنه في ملازمة بيت كتابك وقد استقر ببابك قراره، وتعين بأمرك مرتبه ودثاره، فيكون الشيخ خديم الشيخ والشاب خديم الشاب هذه رغبتني منك وحاجتي إليك، واعلم أن هذا الحديث لا بد أن يذكر ويتحدث في الدنيا، وبين أيدي الملوك والكبراء فاعمل ما يبقى لك فخره ويتخلد ذكره وقد أقام مجاوراً ضريحني تالياً كتاب الله تعالى على منتظراً ما يصله منك ويقراه على من السعي في خلاص ماله والاحتجاج بهذه الوسيلة في جبره وإجراء ما يليق بك من الحرمة والكرامة والنعمة، فالله الله، يا إبراهيم اعمل ما يسمع عني وعنك فيه، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال. « اه والعبد يا مولاي مقيم تحت حرمة وحرمة سلفه، منتظر منكم قضاء حاجته ولتعلموا وتحققوا أنني لو ارتكبت الجرائم، ورزأت الأموال وسفكت الدماء، وأخذت خسائف الملوك الأعزة ممن وراء النهر من التار، وخلف البحر من الروم ووراء الصحراء من الحبشة، وأمكنتهم الله تعالى مني من غير عهد، بعد أن بلغهم تذلمي بهذا الدخيل، ومقامي بين هذه القبور الكريمة ما وسع أحد منهم، من حيث الحياء والحشمة من الأحياء والأموات وإيجاب الحقوق التي لا يغفلها الكبار للكبار، إلا الجود الذي لا يتعقبه البخل، والعفو الذي لا تفسده المؤاخدة،

فضلاً عن سلطان الأندلس أسعده الله تعالى وعلا بموالاتكم، فهو فاضل وابن ملوك أفاضل، وحوله أكياس ما فيهم من يجهل قدركم، وقدر سلفكم لا سيما مولاي والدكم الذي أتوسل به إليكم وإليهم، فقد كان يتبنى مولاي أبا الحجاج ويشمله بنظره وصارخه بنفسه وأمه بأمواله، ثم صير الله تعالى ملكه إليكم، وأنتم من أنتم ذاتاً وقبلاً، فقد قرت يا مولاي عين العبد بما رأت في هذا الوطن المراكشي من وفور حشودكم وكثرة جنودكم، وترادف أموالكم وعددكم، زادكم الله تعالى من فضله، ولا شك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأميلكم وأعرضت عن ذلك الوطن الأندلسي استوت عليه يد عدوه، وقد علم تطارحي بين الملوك الكرام الذين خضعت لهم التيجان، وتعلقي بثوب الملك الصالح والد الملوك الكرام مولاي والدكم، وشهرة حرمة شالة معروفة حاش لله أن يضيعها أهل الأندلس، وما توسل إليهم قط بها إلا الآن وما يجهلون اغتنام هذه الفضيلة الغربية، وأملني منكم أن يتعين من بين يديكم خديم بكتاب كريم يتضمن الشفاعة في رد ما أخذ لي، ويخبر بمشواي مترامياً على قبر والدكم، ويقرر ما ألزمتكم بسبب هذا التراخي من الضرورة المهمة والوظيفة الكبيرة عليكم وعلى قبيلكم حيث كانوا، وتطلبون منه عادة المكارمة بحل هذه العقدة، ومن المعلوم أنني لو طلبت بهذه الوسائل من صلب ما وسعهم بالنظر العقلي إلا حفظ الوجه مع هذا القبيل، وهذا الوطن، فالحياء والحشمة يأبيان العذر عن هذا في كل ملة ونحلة، وإذا تم هذا الغرض، ولا شك في إتمامه بالله تعالى، تقع صدقتكم على القبر الكريم بي، وتعينوني لخدمة هذا المولى وزيارته وتفقدته، ومدح النبي ﷺ ليلة المولد في جواره وبين يديه وهو غريب مناسب لبركم به، إلى أن أحج بيت الله بعناية مقامكم، وأعود داعياً مثنياً مستدعياً للشكر والثناء من أهل المشرق والمغرب، وأتعوض من ذمتي بالأندلس ذمة بهذا الرباط المبارك يرثها ذريتي، وقد ساومت في شيء من ذلك منتظراً ثمنه مما يباع بالأندلس بشفاعتكم، ولو ظننت أنهم

يتوقفون لكم في مثل هذا، أو يتوقع فيه وحشة أو جفاء، والله ما طلبته، لكنهم أسرى وأفضل، وانقطاعي أيضاً لوالدكم مما لا يسع مجدكم إلا عمل ما يليق بكم فيه، وها أنا أترقب جوابكم بما لي عندكم من القبول، ويسعني مجدكم في الطلب وخروج الرسول، لاقتضاء هذا الغرض والله سبحانه يطلع من مولاي على ما يليق به والسلام وكتب في الحادي عشر من رجب سنة إحدى وستين وسبعمائة» وفي مدرج الكتاب بعد ثر هذه القصيدة:

مولايا ها أنا في جوار أبيكا	فابذل من البر المقدر فيكا
أسمعه ما يرضيه من تحت الثرى	والله يسمعك الذي يرضيكا
واجعل رضاه إذا نهدت كتيبة	تهدي إليك النصر أو تهديكا
واجبر بجبري قلبه تنل المنا	وتطالع الفتح المبين وشيكا
فهو الذي سن البرور بأمه	وأبيه فاشرع شرعه لبنيكا
وابعث رسولك منذراً ومحذراً	وبما تؤمل نيله يأتىكا
قد هز عزمك كل قطر نازح	وأخاف مملوكاً به ومليكا
فإذا سموت إلى مرام شاسع	فغصونه ثمر المنا تجنيكا
ضمنت رجال الله منك مطالبي	لما جعلتك في الثواب شريكا
فلئن كفيت وجوها في مقصدي	ورعيتها بركاتها تكفيكا
وإذا قضيت حوائجي وأريتني	أماً فربك ما أردت يريكا
واشدد على قلبي يداً فهو الذي	برهانه لا يقبل التشكيكا
مولاي ما استأثرت عنك بمهجتي	إنني ومهجتي التي تفديكا
لكن رأيت جناب شالة مغنماً	يضيفي على العز في ناديكا
وفروض حقك لا تفوت فوقتها	باق إذا استجزيته يجزيكا
ووعدتني وتكرر الوعد الذي	أبت المكارم أن يكون أفيكا
أضفى عليك الله ستر عناية	من كل محذور الطريق يقيكا
ببقائك الدنيا تحاط وأهلها	فالله جل جلاله يبغيكا
وقال أيضاً في الغرض المذكور:	

عن باب والدك الرضي لا أبرح
ضربت خيامي في حماه فصبيتي
حتى يراعي وجهه في وجهتي
أيسوغ عن مثواه سيرى خائباً
أنا في حماه وأنت أبصر بالذي
في مثلها سيف الحمية ينتضي
وعسى الذي بدأ الجميل يعيده
وعسى الذي سدا المذهب يفتح

فأجابه السلطان أبو سالم رحمه الله بما صورته: «من عبد الله المستعين بالله، إبراهيم أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي الحسن ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين يوسف بن يعقوب بن عبد الحق أيد الله أمره وأعز نصره إلى الشيخ الفقيه الأجل الأسنى الأعز الأحظى، الأوجه الأنوه الصدر الأحفل المصنف البليغ الأعراف الأكمل أبي عبد الله ابن الشيخ الأجل الأعز الأسنى الوزير الأرفع الأنجد الأصيل الأكمل المرحوم المبرور أبي محمد بن الخطيب وصل الله عزته ووالى رفعتة، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد حمد الله تعالى، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى الكريم، والرضا على آله وصحبه أعلام الإسلام، وأئمة الرشد والهدى وصلة الدعاء لهذا الأمر العلي العزيز المنصور المستعيني بالنصر الأعز والفتح الأسنى، فإننا كتبناه إليكم كتب الله تعالى لكم بلوغ الأمر ونجح القول والعمل، من منزلنا الأسعد بضفة وادي ملوية يمينه الله، وصنع الله جميل ومنه جزيل، والحمد لله، ولكم عندنا المكانة الواضحة الدلائل، والعناية المتكفلة برعي الوسائل، ذلكم بما تميزتم به من التمسك بالجناب العلي المولوي العلوي جدد الله تعالى عليه ملايس غفرانه، وسقاه غيوث رحمته وحنانه، وبما أهديتم إلينا من التقرب لدينا بخدمة ثراه الطاهر، والاشتغال بمطارف حرمة السامية المظاهر، وإلى هذا وصل الله حظوتكم

ووالى رفعتكم، فإنه ورد علينا خطابكم الحسن عندنا قصده، المقابل بالإسعاف المستعذب ورده، فوقنا على ما نصه، واستوفينا ما شرحه وقصه، فآثرنا حسن تطفكم في التوسل بأكبر الوسائل إلينا، ورعينا أكمل الرعاية حق ذلكم الجنب العزيز علينا، وفي الحين عينا لكمال مطلبكم وتمام مأربكم والتوجه بخطابنا في حقكم والاعتماد بوفقكم خديمينا أبا البقاء بن تاشكورت، وأبا زكرياء بن فرقاجة أنجدهما الله وتولاهما، وأمس تاريخه انفصلا مودعين إلى الغرض المعلوم بعد التأكيد عليهما فيه، وشرح العمل الذي يوفيه، فكونوا على علم من ذلكم، وابسطوا له جملة آمالككم، وإنا لنرجو ثواب الله في جبر أحوالككم وبرء اعتلالكم، والله سبحانه يصل مبرتكم، ويتولى تكرمتمكم، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته كتب في الرابع والعشرين من رجب سنة إحدى وستين، فراجعته ابن الخطيب بما نصه: «مولاي خليفة الله بحق، وكبير ملوك الأرض عن حجة، ومعدن الشفقة والحكمة ببرهان وحكمة، أبقاكم الله تعالى على الدرجة في المنعمين، وافري الحظ عند جزاء المحسنين، وأراكم ثمرة بر أبيكم في البنين، وصنع لكم في عدوكم الصنع الذي لا يقف عند معتاد، وأذاق العذاب الأليم من أراد في مثابتكم بالحداد، عبدكم الذي ملكتم رقه، وآويتم غربته، وسترتم أهله وولده، وأسنتم رزقه، وجبرتم قلبه، يقبل موطن الأخصص الكريم من رجلكم الطاهرة، المستوجة بفضل الله تعالى لموقف النصر الفارغة هضبة العز المعملة الخطوة في مجال السعد ومسير الحظ. ابن الخطيب من شالة التي تأكد بملككم الرضى احترامها، وتجدد برعيتكم عهدا، واستبشر بملككم دفينها، وأشرق بحسناتكم نورها، وقد ورد على العبد الجواب المولوي البر الرحيم، المنعم المحسن بما يليق بالملك الأصيل، والقدر الرفيع، والهمة السامية، والعزة القعساء من رعي الدخيل، والنصرة للذمام والاهتزاز لبر الأب الكريم، فثاب الرجاء وانبعث الأمل، وقوي العضد وزار اللطف، فالحمد لله الذي أجرى الخير على يدكم الكريمة، وأعانكم على رعي ذمام الصالحين، المتوسل إليكم أولاً بقبورهم ومتعبداتهم وتراب

أجدانهم، ثم بقبر مولاي ومولاكم ومولى الخلق أجمعين، الذي تسبب في وجودكم واختصكم بحبه، وغمركم بلطفه وحنانه، وعلمكم آداب الشريعة وأورثكم ملك الدنيا، وهياتكم دعواه بالاستقامة إلى ملك الآخرة بعد طول المدى وانفساخ البقاء، وفي علومكم المقدسة ما تضمنت الحكايات عن العرب من النصرة عن طائر داست أفراخه ناقة في جوار رئيس منهم، وما انتهى إليه الامتعاض لذلك مما أهنت فيه الأنفس وهلكت الأموال، وقصارى من امتعض لذلك أن يكون كبعض خدامكم من عرب تامسنا فما الظن بكم وأنتم الكريم ابن الكريم ابن الكريم فيمن لجأ أولاً إلى حماكم بالأهل والولد، عن حسنة تبرعتم بها، وصدقة حملتكم الحرية على بذلها، ثم فيمن حط رحل الاستجارة بضريح أكرم الخلق عليكم دافع العين، خافق القلب، واهي الفزعة، يغطي بردائه، ويستجير بعليائه، كأني تراميت عليهم في الحياة، أمام الذعر يذهل العقل، ويحجب عن التميز بقصر داره ومضجع رقاذه، ما من يوم إلا وأجهر بعد التلاوة: ياليعقوب، يالمرين، نسأل الله تعالى أن لا يقطع عني معروفكم، ولا يسلبني عنايتكم، ويستعملني ما بقيت في خدمتكم، ويتقبل دعائي فيكم، ولحين وصول الجواب الكريم نهضت إلى القبر المقدس، ووضعت بإزائه وقلت: يا مولاي يا كبير الملوك، وخليفة الله وبركة بني مرين صاحب الشهرة والذكر في المشرق والمغرب عبدك المنقطع إليك المترامي بين يدي قبرك، المتوسل إلى الله ثم ولدك بك، ابن الخطيب، وصله من مولاه ولدك ما يليق بمقامه من رعي وجهك، والتقرب إلى الله برعيك، والاشتهار في مشرق الدنيا ومغربها ببرك، وأنتم من أنتم من إذا صنع صنعةكملها، وإذا من منةتممها، وإذا أسدى يداً أبرزها طاهرة بيضاء غير معيبة ولا ممنونة ولا منتقصة، وأنا بعد تحت ذيل حرمتك وظل دخيلك، حتى يتم أمني ويخلص قصدي، وتحف نعمتك بي ويطمئن إلى مأمّنك قلبي، ثم قلت للطلبة أيها السادة بيني وبينكم تلاوة كتاب الله تعالى منذ أيام ومناسبة النحلة وأخوة التأليف بهذا الرباط المقدس والسكنى بين أظهركم، فأمنوا على دعائي بإخلاص من قلوبكم، واندفعت في الدعاء

والتوسل الذي أرجو أن يتقبله الله تعالى ولا يضيعه، وخاطب العبد مولاه شاكراً لنعمته مشيداً بصنيعته ومسروراً بقبوله، وشأنه من التعلق والتطارح شأنه، حتى يكمل القصد، ويتم الغرض معمور الوقت بخدمة يرفعها ودعاء يردده والله المستعان» اهـ.

ولما وصل كتاب السلطان أبي سالم إلى أهل الأندلس أعظموا وسيلته، وقبلوا شفاعته، وردوا إلى ابن الخطيب ما تأتي رده مما كان ضاع له وأتلف عليه، واستمر مقيماً بسلا سنتين وزيادة، ثم استدعاه سلطانه الغني بالله إلى الأندلس بعد رجوعه إليها واحتوائه على ملكها، فأجاب حياء لا رغبة، ومكرهاً لا بطلاً، إلى أن كان ما نذكره من شأنه بعد ذلك إن شاء الله، ونوادره بسلا وما جرياته كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية.

انتفاض الحسن بن عمر الفودودي وخروجه بتادلا ثم مقتله عقب ذلك

قد قدمنا أن السلطان أبا سالم لما استولى على ملك فاس والمغرب عقد للحسن بن عمر على مراكش، ووجهه إليها تخففاً منه وريبة بمكانه من الدولة فاستقر بها وتأنثت له بها رياسة نفسها عليه أهل مجلس السلطان وسعوا فيه عنده حتى تنكر له وأظلم الجو بينهما وأحس الحسن بن عمر بذلك فخشي على نفسه، وخرج من مراكش في صفر سنة إحدى وستين وسبعمائة فلحق بتادلا منحرفاً عن السلطان ومرتبكاً للخلاف، فتلقيه بنو جابر من عرب جشم وأجاروه واعصوبوا عليه، فسرّح إليه السلطان أبو سالم وزيره الحسن بن يوسف الورتاجني فاحتل بتادلا، وانشمر الحسن بن عمر إلى الجبل بها فاعتصم به ومعه كبير بني جابر الحسن بن علي الوردغي، فأحاطت بهم العساكر وأخذوا بمخنفهم، وداخل الوزير بعض أهل الجبل من برابرة صناعة في الثورة بهم، وسرب إليهم المال فثاروا بهم وانفض جمعهم، وتقبضوا على الحسن بن عمر وقادوه برمته إلى الحسن بن يوسف فاعتقله، وانكفاً راجعاً به إلى الحضرة فدخلها في يوم مشهود استركب السلطان فيه الجند،

وجلس ببرج الذهب مقعده من ساحة البلد، وحمل الحسن بن عمر على جمل فطيف به بين تلك الجموع، ولما قرب من مجلس السلطان أوماً إلى تقبيل الأرض من فوق جملة، ثم ركب السلطان إلى قصره، وانفض الجمع وقد شهر الحسن بن عمر وأصحابه فصاروا عبرة لمن اعتبر.

ولما دخل السلطان قصره، جلس على كرسیه واستدعى خاصته وجلساءه، وأحضر ابن عمر فوبخه، وقرر عليه ذنوبه، فتلوى بالمعاذير وفزع إلى الإنكار. قال ابن خلدون: «وحضرت هذا المجلس يومئذ فيمن حضره من الخاصة فكان مقاماً تسيل فيه العيون رحمة وعبرة». ثم أمر به السلطان فسحب على وجهه، وנתفت لحيته وضرب بالعصى، وثل إلى محبسه ثم قتل بعد ليالٍ قعصاً بالرماح خارج البلد ونصب شلوه بباب المحروق رحمه الله تعالى.

نهوض السلطان أبي سالم إلى تلمسان واستيلاؤه عليها

لما استوسق للسلطان أبي سالم ملك المغرب ومحا أثر الخوارج منه سمت همته إلى تملك تلمسان كما كان لأبيه وأخيه من قبل، وأكد عزمه على ذلك ما كان من فرار عبد الله بن مسلم الزرد إلى عاملهم على درعة إليها فأجمع السلطان أبو سالم النهوض إليها، وعسكر بظاهر فاس الجديد منتصف سنة إحدى وستين وسبعمائة، ولما توافقت لديه الحشود، وتكاملت بسدته الجنود، ارتحل إلى تلمسان.

واتصل خبر نهوضه بسلطانها أبي حمو بن يوسف الزياني، ووزيره عبد الله بن مسلم الزردالي فنادوا في العرب من بني عامر بن زغبة وبني معقل فأجابوهم كافة الأشرذمة قليلة من الأحلاف، ثم خرج أبو حمو وشيعته عن تلمسان إلى الصحراء والتفت عليه العرب بحللهما.

ولما دخل السلطان أبو سالم تلمسان واستولى عليها خالفه أبو حمو في عربه إلى المغرب فنزلوا آكرسيف ووطاط وبلاد ملوية وحطموا زروعها وانتسفوا بركتها وخبروا عمرانها، وبلغ السلطان أبا سالم ما كان من إفسادهم فأهمه أمر المغرب، وكان في جملة من بني زيان محمد بن عثمان ابن

السلطان أبي تاشفين، ويكنى: أبا زيان، فعقد له على تلمسان، وأعطاه الآلة وجمع له جيشاً من مغراوة ويني توجين، ودفع لهم أعطياتهم، وانكفاً راجعاً إلى فاس، فأجفل أبو حمو والعرب أمامه، ثم خالفوه إلى تلمسان فطردوا عنها أبا زيان واستولوا عليها، وثبت قدم أبي حمو بها، وعاد أبو زيان إلى المغرب لاحقاً بالسلطان أبي سالم قبله، وعقد المهادنة مع أبي حمو واستقر الأمر على ذلك. وقد كان ابن الخطيب عندما بلغه استيلاء السلطان أبي سالم على تلمسان هنأه بقصيدة طويلة يقول في مطلعها:

أطاع لساني في مديحك إحساني وقد لهجت نفسي بفتح تلمسان
ويقول في أثنائها وقد ألم بشيء من علم الأحكام النجومية لميل السلطان إليه:

ولله من ملك سعيد ونسبة	قضى المشتري فيها بعزلة كيوان
وسجل حكم العدل من بيوتها	وقوفاً مع المشهور من رأي يونان
فلم تخشى سهم القوس صفحة بدرها	ولم تشك فيها الشمس من بخس ميزان
ولم يعترض مبتزها قطع قاطع	ولا نازعت نوبهرها كف عدوان
تولى اختيار الله حسن اختيارها	فلم يحتج الفرغان فيها لفرغان
ولا صرفت فيها دقائق نسبة	ولا حققت فيها طوالع بلدان

وفاة السودان من أهل مالي على السلطان أبي سالم وإغرابهم في هديتهم بالزراعة الحيوان المعروف

قد تقدم لنا ما جرى من المواصلات بين السلطان أبي الحسن والسلطان منسا موسى وأخيه أو ابنه من بعده منسا سليمان وتردد الوفود وإسداء الهدايا بينهم وقد كان السلطان منسا سليمان قد هيا هدية نفيسة بقصد أن يبعثها إلى السلطان أبي الحسن مكافأة له على هديته فهلك السلطان أبو الحسن خلال ذلك، ثم هلك السلطان منسا سليمان بعده، واختلف أهل مالي وافترق أمرهم وتقاتلوا على الملك إلى أن جمع الله كلمتهم على السلطان منسا زاطة، واستوسق له الأمر ثم نظر في أعطاف ملكه وأخبر بشأن الهدية التي كان منسا

سليمان قد هيأها لملك المغرب فأمر بإنفاذها إليه وضم إليها الزرافة الحيوان الغريب الشكل العظيم الهيكل المختلف الشبه بالحيوانات، وفصلوا بها من بلادهم فوصلوا إلى حضرة فاس في صفر من سنة اثنتين وستين وسبع مائة.

قال ابن خلدون: وكان يوم وفادتهم يوماً مشهوداً جلس لهم السلطان ببرج الذهب بمجلسه المعد لعرض الجنود، ونودي في الناس بالبروز إلى الصحراء، فبرزوا ينسلون من كل حذب حتى غص بهم الفضاء وركب بعضهم بعضاً في الازدحام على الزرافة إعجاباً بخلقها، وحضر الوفد بين يدي السلطان وأدوا رسالتهم بتأكيد الود والمخالصة والعذر عن إبطاء الهدية بما كان من اختلاف أهل مالي وتوابعهم على الأمر، وتعظيم سلطانهم وما صار إليه، والترجمان يترجم عنهم وهم يصدقونه بالتزعم في أوتار قسيهم، عادة معروفة لهم، وحيوا السلطان بأن جعلوا يحثون التراب على رؤوسهم على ستة ملوك العجم، وأنشد الشعراء في معرض المدح والتهنئة ووصف الحال، ثم ركب السلطان إلى قصره، وانفض ذلك الجمع، وقد طار به طائر الاشتهار، واستقر الوفد تحت جراية السلطان أبي سالم إلى أن هلك قبل انصرافهم فوصلهم القاتم بالأمر من بعده وانصرفوا إلى مراکش، ثم منها إلى ذوي حسان عرب السوس الأقصى من بني معقل المتصلين ببلادهم، ومن هناك لحقوا بسلطانهم. والأمر كله لله.

وكان مما قيل من الشعر في ذلك اليوم: قول ابن خلدون من قصيدة يقول في مطلعها:

قلحت يد الأشواق من زند	وهفت بقلبي زفرة الوجد
إلى أن قال في وصف الزرافة:	
ورقيمة الأعطاف حالية	موشية بوشائع البرد
وحشية الأنساب ما أتست	في موحش البيداء بالقرد
تسمو بجيد بالغ صعدا	شرف الصروح بغير ما جهد
طالت رؤوس الشامخات به	ولربما قصرت عن الوهد

قطعت إليك تنائفاً وصل
تحدى على استصعابها ذلاً
بسعودك اللائي ضمن لنا
جاءتك في وفد الأحابش لا
وافوك أنضاء تقليبهم
كالطيف يستقري مضاجعه
يثنون بالحسنى التي سبقت
ويرون لحظك من وفادتهم
يا مستعيناً جل في شرف
جازاك ربك عن خليقته
وبقيت للسكنى وساكنها
وقول الكاتب البارع أبي عبد الله بن زمرك الأندلسي من قصيدة يقول في مطلعها:

لولا تألق بارق التذكار
لكنه مهما تعرض خافقاً
إلى أن قال في الغرض المذكور:
وغريبة قطعت إليك على الونى
تنسيه طيته التي قد أمها
يقتادها من كل مشتمل الدجى
تشدو بحمد المستعين حداتها
أن مسهم لفح الهجير أبلهم
خاضوا بها لجج الفلا فتخلصت
سلمت بسعدك من غوائل مثلها
وأنتك يا ملك الزمان غريبة
موشية الأعطاف رائقة الحللى
راق العيون أديمها فكأنه

ما صاب واكف دمعي المدرار
قدحت يد الأشواق زند أوارى
بيداً تبید بها هموم الساري
والركب فيها ميت الأخبار
فكأنما عيناه جذوة نار
يتعللون به على الأكوار
منه نسيم ثنائك المعطار
منها خلوص البدر بعد سرار
وكفى بسعدك حامياً لذار
قيد النواظر نزهة الأبصار
رقمت بدائعها يد الأقدار
روض تفتح عن شقيق بهار

ما بين مبيض وأصفر فاقع ما بين اللجين به خلال نضار
يحكي حدائق نرجس في شاهر تنساب فيه أرقام الأنهار
تحدو قوائم كالجدوع وفوقها جبل أشم بنوره متواري
وسمت بجيد مثل جذع مائل سهل التعطف لين خوار
تستشرف الجدران منه ترائباً فكأنما هو قائم بمنار
تاهت بكلكلها وأتلع جيدها ومشى بها الإعجاب مشي وقار
خرجوا لها الجم الغفير وكلهم متعجب من لطف صنع الباري
كل يقول لصحبه قوموا انظروا كيف الجبال تقاد بالأسيار
ألفت ببابك رحلها ولطالما ألقى الغريب به عصا التسيار
علمت ملوك الأرض أنك فخرها فتسابت لرضاك في مضمار
يتبوؤون به وإن بعد المدى من جاهك الأعلى أعز جوار
فارفع لواء الفخر غير مدافع واسحب ذيول العسكر الجرار
واهناً بأعياد الفتوح مخولاً ما شئت من نصر ومن أنصار
واليكها من روض فكري نفحة شف الشفاء بها على الأزهار
في فصل منطقها ورائق رسمها مستمتع الأسماع والأبصار
وتميل من أصغى لها فكأنني عاطيته منها كؤوس عقار

مقتل السلطان أبي سالم رحمه الله والسبب في ذلك

كان السلطان أبو سالم رحمه الله قد غلب على هواه الخطيب أبو عبد الله بن مرزوق وألقى زمام الدولة بيده، فنقم خاصة السلطان وحاشيته ذلك عليه وسخطوا الدولة من أجله، ومرضت قلوب أهل الحل والعقد من تقدمه فتربصوا بالدولة الدوائر إلى أن كانت أواخر سنة اثنتين وستين وسبعمائة، فتحول السلطان أبو سالم عن دار الملك من فاس الجديد إلى القصبية من فاس القديم، واختط بها إيواناً فخماً لجلوسه، فلما استولى عمر بن عبد الله ابن علي بن سعيد الفودودي أحد كبراء الدولة ووزرائها على دار الملك، إذ كان السلطان أبو سالم قد خلفه أميناً عليها، حدثته نفسه بالتوثب، وسهل

ذلك عليه ما كان قد عرفه من مرض القلوب على السلطان لمكان ابن مرزوق، فداخل قائد جند النصاري غربية بن أنطول، واتعدوا لذلك ليلة الثلاثاء السابع عشر من ذي القعدة من السنة المذكورة، فعمدوا إلى تاشفين الموسوس ابن أبي الحسن فخلعوا عليه، وألبسوه شارة الملك وقربوا له مركباً وأجلسوه مجلس السلطان، وأكرهوا شيخ الحامية والناشبة محمد بن الزرقاء على البيعة، وجاهرُوا بالخلعان وقرعوا الطبول ودخلوا إلى بيت المال ففرضوا العطاء من غير تقدير ولا حساب، وماج الجند بفاس الجديد بعضهم في بعض، واختطفوا ما وصلوا إليه من العطاء ثم اتهبوا ما كان بالمخازن الخارجية من السلاح والعدة، وأضرموا النيران في بيوتها سترأ على ما ضاع منها، وأصبح السلطان أبو سالم بمكانه من قصبة فاس القديم، وكان قد تحول إليها فراراً من قاطع فلكي خوفه إياه بعض منجميه فكان البلاء فيه موكلأ بالمنطق، فلما علم بالكائنة ركب واجتمع إليه من حضر من أوليائه، وغدا على فاس الجديد وطاف بها يروم اقتحامها فامتعت عليه، ثم اضطرب معسكره بكدية العرائس لحصارها ونادى في الناس بالاجتماع إليه، ولما كان وقت الهاجرة دخل فسطاطه للقلولة فتسائل الناس عنه إلى فاس الجديد فوجأ بعد فوج بمرأى منه إلى أن انفض عنه خاصته وأهله مجلسه فطلب النجاء بنفسه، وركب في لمة من الفرسان وفيهم وزيراه سليمان بن داود ومسعود بن عبد الرحمن بن ماساي، ومقدم الموالى والجند يبابه سليمان بن ونصار، وأذن لابن مرزوق في الدخول إلى داره، ومضى هو على وجهه فيمن معه، ولما غشيهم الليل انفضوا عنه حتى بقي وحده، ورجع الوزيران إلى دار الملك فتقبض عليهما رئيس الثورة عبد الله الفودودي، ومشاركه فيها غربية بن أنطول النصراتي، واعتقلاهما متفرقين، وبعث عمر بن عبد الله الطلب في أثر السلطان أبي سالم فعثروا عليه نائماً من الغد في بعض المجاشر بوادي ورغة وقد غير لباسه اختفاء بشخصه وتوارياً عن العيون بمكانه، فتقبضوا عليه وحملوه على بغل وطيروا بالخير إلى عمر بن عبد الله فأزعج لتلقيه شعيب بن ميمون بن داود، وفتح الله بن عامر بن فتح الله

السدراتي وأمرهما بقتله وإنفاذ رأسه، فلقياه بخندق القصب إزاء كدية العرائس فأمر بعض جند النصارى أن يتولى ذبحه ففعل، وحملوا رأسه في مخلاة ووضعوه بين يدي الوزير الثائر ومشيعته، وكان ذلك يوم الخميس الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة اثنتين وستين وسبعمائة ودفن بالقلة خارج باب الجيسة بأعلى جبل العرض المعروف بجبل الزعفران⁽¹⁾.

قال ابن الخطيب في الإحاطة: «كان السلطان أبو سالم رحمه الله بقية البيت وآخر القوم دماً وحياء وبعداً عن الشرور وركوناً للعافية» قال: وأنشدت على قبره الذي ووريت به جثته قصيدة أدت فيها بعض حقه:

«بني الدنيا بني لمع السراب لدوا للموت وابنوا للخراب»

ومن أعيان وزرائه: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق العجيسي الخطيب المشهور الذي مر ذكره آنفاً.

ومن قضاة عسكره: أبو القاسم محمد بن يحيى الأندلسي البرجي.

ومن أعيان كتابه: الرئيس أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ.

وأبو القاسم⁽²⁾ عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري من أهل مالقة صاحب كتاب السياسة وغيره، ومما نظمه هذا الفاضل عن إذن السلطان أبي سالم رحمه الله ليكتب في طرة قبة رياض الغزلان من حضرته قوله:

(1) ومن أولاده: السلطان أبو العباس أحمد، والسلطان أبو الفضل محمد، ومحمد آخر.

(2) أبو القاسم بن رضوان صاحب كتاب السياسة. لما وقعت هزيمة طريف قرب القيروان على أبي الحسن رجع أبو القاسم هذا إلى الأندلس وبقي بها إلى أن تم الأمر لأبي عنان فرجع حينئذ للمغرب وكلفه أبو عنان بكتابة العلامة أما صاحب درة الحجال فإنه ذكر كاتبين من هذه العائلة أحدهما: اسمه محمد بن يوسف بن رضوان المتوفى سنة 868 وثنائهما يسمى أبا القاسم بن محمد بن يوسف بن رضوان المتوفى سنة 783 أما الكاتب أبو القاسم عبد الله فقد ترجمه في جذوة الاقتباس وذكر أنه توفي بأنفا ودفن بمقبرة الحاج صالح سنة 733 راجع ترجمته طبع فاس.

هذا محل المنى بالأمن مغمور
 مأوى النعيم به ما شئت من ترف
 ويطلع الروض منه مصنعاً عجياً
 ويسطع الزهر من أرجائه أرجاً
 مغنى السرور سقاه الله ما حملت
 انظر إلى الروض تنظر كل معجبة
 مر النسيم به يبغي القرا فقراً
 وهامت الشمس في حسن الظلال به
 كأنما الطير في أفنانها صدحت
 والدوح ناعمة تهتز من طرب
 والنهر شق بساط الأرض تحسبه
 ينساب للجنة الخضراء أزرقه
 هذي مصانع مولانا التي جمعت
 وهذه القبة الغراء ما نظرت
 ولا يصورها في الفهم ذو فكر
 ولا يرام بحصر وصف ما جمعت
 فيها المقاصير تحميها مهابته
 كأنها الأفق تبدو النيرات به
 وينشأ المزن في أرجائه وله
 وينهمي القطر منه وهو منسكب
 وتخفق الريح منه وهي ناسمة
 ويشرق الصبح منه وهو من غرر
 وتطلع الشمس فيه من سنا ملك
 ومضى في مدح السلطان والله تعالى يتغمد الجميع برحمته بمئه
 وكرمه.

من حله فهو بالأمان مجبور
 تهوى محاسنه الولدان والخور
 يضاحك النور من لألائه النور
 ينافح الندى نشر منه منشور
 غر الغمام وحلته الأزاهير
 مما ارتضاه لرأي العين تحبير
 دراهم النور تبديد وتنشير
 ففرقت فوقه منها دنائير
 بشكر مالکها والفضل مشكور
 همساً وصوت غناء الطير مجهور
 سيفاً ولكنه في السلم مشهور
 كالأيم جد انسياب وهو مذخور
 شمل السرور وأمر السعد مأمور
 لشكلها العين إلا عز تنظير
 إلا ومنه لكل الحسن تصوير
 من المحاسن إلا صد تقصير
 لله ما جمعت تلك المقاصير
 ويستقيم بها في السعد تسيير
 من عنبر الشجر إنشاء وتسخير
 ماء من الورد يذكو منه تعطير
 مما أهب به مسك وكافور
 غر تلالاً منهن الأسارير
 تبسم الدهر منه وهو مسرور

الخبر عن دولة السلطان أبي عمر تاشفين الموسوس ابن أبي الحسن المريني

هذا السلطان كان محجوباً لوزيره عمر بن عبد الله الفودودي لا يملك معه ضرراً ولا نفعاً. أمه: أم ولد اسمها ميمونة، صفته: طويل القامة، عظيم الهيكل بعيد ما بين المنكبين، أعين أدعج، وكان فارساً بطلاً قوي الساعد إلا أنه كان ناقص العقل.

ولما ثار عمر بن عبد الله بالسلطان أبي سالم وسعى في هلاكه إلى أن قتل كما مر استبد بأمر الدولة ونصب هذا الموسوس يموه به على الناس فبويع ليلة الثلاثاء التاسع عشر من ذي القعدة سنة اثنتين وستين وسبعمائة حسبما سبق، وكان نقصان عقل تاشفين من أجل الأسر الذي أصابه بوقعة طريف أيام والده السلطان أبي الحسن إلى أن افتدي وبقي ناقص العقل مختل المزاج^(١) إلى أن كان من أمره ما كان.

الفتك بغرسية بن أنطول قائد النصاري ومقتل جنده معه والسبب في ذلك

لما قبض عمر بن عبد الله على الوزيرين مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي، وسليمان بن داود سجنهما متفرقين فأخذ إليه ابن ماساي لمكان صهره منه ودفع لغرسية سليمان بن داود، وكان سليمان بن نصار قد فر مع السلطان أبي سالم كما مر، ولما رجع عنه فيمن رجع نزل على غرسية فقبله وأكرمه. وكان يعاقره الخمر ففاوضه ذات ليلة في الثورة بعمر بن عبد الله واعتقاله، وإقامة سليمان بن داود المسجون بداره مقامه لما هو عليه من السن ورسوخ القدم في الأمر، ونما الخبر بذلك إلى عمر بن عبد الله فارتاب،

(١) انظر ما كتبه المؤلف في هذه المسألة في كتابه «كشف العرين عن ليوث بني مرين» أثناء كلامه على دولة السلطان تاشفين الموسوس ابن أبي الحسن أيضاً.

وكان خلواً من العصبية ففرع إلى قائد المركب السلطاني من ناشبة الأندلس ورماتها، وهو يومئذ إبراهيم البطروجي، فعاقده على أمره، وباعه على الاستماتة دونه، ثم رأى أن ذلك لا يكفيه ففرع ثانياً إلى يحيى بن عبد الرحمن شيخ بني مرين وصاحب شوارهم، فشكا إليه فأشكاه، ووعد الفتك بابن أنطول وأصحابه وانبرم عقد ابن أنطول، وسليمان بن نصار أيضاً على عمر بن عبد الله وغدوا إلى القصر، وداخل ابن أنطول طائفة من النصارى استظهاراً بهم، وتوافت بنو مرين بمجلس السلطان على عاداتهم، وحضر ابن أنطول، والبطروجي، ويحيى بن عبد الرحمن، وغير هؤلاء من الوجوه، فسأل عمر بن عبد الله من ابن أنطول تحويل سليمان بن داود من داره إلى السجن فأبى، وضمن به عن الإهانة، حتى سأل مثلها من ابن ماساي صاحبه، فأمر عمر بالتقبض عليه فكشّر في وجوه الرجال، واختلط سكينه للمدافعة، فتواثبت بنو مرين عليه وقتلوه لحينه، واستلحموا من وجدوا بالدار من جنده النصارى عند دخولهم مع قائدهم، وفر بعضهم إلى معسكرهم، ويعرف بالملاح جوار فاس الجديد، وأرجف الغوغاء بالمدينة أن ابن أنطول قد غدر بالوزير، فقتلوا جند النصارى حيث وجدوهم من سكك المدينة، وتزاحفوا إلى الملاح لاستلحام من بقي به منهم، وركبت بنو مرين لحماية جندهم من معرة الغوغاء، وانتهب يومئذ الكثير من أموالهم وآيتهم وأمتعتهم، وقتل النصارى أيضاً كثيراً من مجان المسلمين كانوا يعاقرون الخمر بالملاح، ثم سكنت الهيعة وما كادت.

واستبد عمر بن عبد الله بدار الملك، واعتقل سليمان بن نصار إلى الليل ثم بعث من قتله بمحبسه، وحول سليمان بن داود إلى بعض الدور من دار الملك فاعتقله بها واستولى على أمره، ثم خاطب عامر بن محمد الهتاتي في اتصال اليد به واقتسام ملك المغرب بينه وبينه، وبعث إليه بأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم اعتده عنده ليوم ما، ثم فسد ما بينه وبين مشيخة بني مرين فاجتمعوا على كبيرهم يحيى بن عبد الرحمن وعسكروا بباب الفتوح واستدعوا عبد الحليم بن أبي علي ابن السلطان أبي سعيد من تلمسان على ما نذكره.

ظهور عبد الحليم بن أبي علي بن أبي سعيد ومحاصرته لفاس الجديد ثم فراره عنها

قد قدمنا في أخبار السلطان أبي الحسن أن أخاه أبا علي صاحب سبلماسة كان قد انتقض عليه فأمكنه الله منه فقتله وكفل أولاده فلم يميز بينهم وبين أولاده في شيء من الأشياء، ولما أفضى الأمر إلى أبي عنان بعث جماعة من إخوته وقرابته إلى الأندلس تحت حياطة ابن الأحمر، وكان فيهم أولاد أبي علي هؤلاء ثم بعد حين سرحوا وقدموا تلمسان على سلطانها أبي حمو بن يوسف فكانوا عنده إلى هذا التاريخ فلما فسد ما بين عمر بن عبد الله وشيوخ بني مرين بعثوا⁽¹⁾ إلى تلمسان جملة منهم لاستقدام عبد الحليم المذكور فسرّحه أبو حمود، وأعان به شيء من الآلة، وجمع عليه من رغب في طاعته، وزحف إلى فاس فتلقته جماعة بني مرين بسبو، ونزلوا على فاس الجديد يوم السبت سابع محرم سنة ثلاث وستين وسبعمائة، واضطربوا معسكرهم بكدية العرائش، وحاصروا دار الملك سبعة أيام، وتتابعت وفودهم وحشودهم، ثم إن عمر بن عبد الله برز يوم السبت القابل في مقدمة السلطان تاشفين بمن معه من جند المسلمين والنصارى رامحة وناشبة، ووكّل بالسلطان من جاء به في الساقة على التعبئة المحكمة، وناوشهم الحرب فزحفوا إليه فاستطرد لهم ليتمكن الناشبة من عقّهم من الأسوار حتى فشت فيهم الجراحات، ثم صمم نحوهم فانفرج القلب وانفضت الجموع، ثم زحف السلطان تاشفين في الساقة فابذعروا في الجهات، وافترق بنو مرين إلى مواطنهم، ولحق يحيى بن عبد الرحمن بمراكش مع مبارك بن إبراهيم شيخ الخلط، ولحق عبد الحليم وإخوته بتازا بعد أن شهد لهم رجال الدولة بصدق الجلال وحسن البلاء في ذلك المقام.

(1) راجع ما عند يحيى بن خلدون في بغية الرواد صحيفة 95 ج 2 طبع الجزائر سنة 1328.

ثم إن الوزير عمر بن عبد الله راجع بصيرته في تقديم المعتوه للأمر، وعلم أن الأمر لا يستقيم له بذلك، فبادر باستقدام أبي زيان محمد بن أبي عبد الرحمن يعقوب ابن السلطان أبي الحسن، وكان عند الطاغية بدار الحرب فقدم، وخلع الوزير المذكور سلطانه الموسوس يوم الاثنين الحادي والعشرين من صفر سنة ثلاث وستين وسبعمائة فكانت دولته ثلاثة أشهر ويومين ومات وسنه ستون سنة، والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله أبي زيان محمد بن أبي عبد الرحمن يعقوب بن أبي الحسن المريني

هذا السلطان كان محجوباً للوزير عمر بن عبد الله أيضاً كنيته: أبو زيان، لقبه: المتوكل على الله، أمه: أم ولد اسمها فضة. صفته: آدم اللون شديد الأدمة، معتدل القامة، منفرج الأنف، دقيق العينين.

وقال ابن الخطيب في الإحاطة: حاله فاضل سكون، منقاد مشغول بخاصة نفسه، قليل الكلام حسن الشكل، درب بركض الخيل، مفوض للوزراء، عظيم التآني لأغراضهم، وكان قبل ولايته عند الطاغية^(١) بالأندلس فر إليه خوفاً على نفسه، ولما التبت الأمور على عمر بن عبد الله طلبه إلى الطاغية فسمح به بعد اشتراط واشتراط، وفصل من إشبيلية في المحرم فاتح سنة ثلاث وستين وسبعمائة ونزل بسبته، وبها سعيد بن عثمان من قرابة الوزير عمر بن عبد الله أرصده لقدمه، فطير إليه بالخبر، فحينئذ خلع عمر تاشفين الموسوس، وبعث إلى السلطان أبي زيان بالبيعة والآلة والفساطيط، ثم جهز عسكرياً للقائه، فتلقوه بطنجة، وأغذ السير إلى الحضرة فنزل منتصف

(١) انظر ما كتبه المؤلف في هذا الموضوع في كتابه «كشف العرين عن ليوث بني مرين» أثناء الكلام على دولة هذا السلطان رحمه الله.

صفر بكدية العرائس ، واضطرب معسكره بها وتلقاه يومئذ الوزير عمر بن عبد الله الياباني وبايعه ، وأخرج فسطاطه فاضطرب بمعسكره وتلوم السلطان أبو زيان هنالك ثلاثاً ثم دخل في اليوم الرابع إلى قصره واقتعد أريكته وتودع ملكه .

وقال ابن الخطيب في الإحاطة : « كان دخوله داره مغرب ليلة الجمعة بطالع الثامن من السرطان ، وبه السعد الأعظم كوكب المشتري من السيارة السبعة » اهـ ولما تم له الأمر خاطبه ابن الخطيب من سلا مهنتاً له بقوله :

يا ابن الخلائف يا سمي محمد	يا من علاه ليس يحصر حاصر
أبشر فأنت مجدد الملك الذي	لولاك أصبح وهو رسم دائر
من ذا يعاند منك وارثه الذي	بسعوده فلك المشيئة دائر
ألقت إليك يد الخلافة أمرها	إذ كنت أنت لها الولي الناصر
هذا وبينك للصريخ وبينها	حرب مضرسة وبحر زاجر
من كان هذا الصنع أول أمره	حسنت له العقبي وعز الآخر
مولاي عندي في علاك محبة	والله يعلم ما تكن ضمائر
قلبي يحدثني بأنك جابر	كسرى وحظي منك حظ وافر
بشرى جدودك قد حططت حقيتي	فوسيلتي لعلاك نور باهر
وبذلت وسعي واجتهادي مثل ما	يلقى لملكك سيف أمرك عامر
فهو الولي لك الذي اقتحم الردى	وقضى العزيمة وهو سيف باتر
وولي جدك في الشدائد عندما	خذلت علاه قبائل وعشائر
فاستهد منه النصيح واعلم أنه	في كل معضلة طبيب ماهر
إن كنت قد عجلت بعض مدائحي	فهو الرياض وللرياض بواكر

ثم أتبعها بنثر أضربنا عنه اختصاراً والله تعالى الموفق .

وفادة ابن الخطيب من سلا على السلطان أبي زيان بن أبي عبد الرحمن رحمهما الله

قال في «الإحاطة»: وفدت على السلطان أبي زيان بن أبي عبد الرحمن
ابن أبي الحسن من محل الانقطاع بسلا وأنشدته قولي:

لمن علم في هضبة الملك خفاق	أفاقت به من غشية الهرج آفاق
تقل رياح النصر عنه غمامة	تمد لها أيدي وتخضع أعناق
وبيعة شورى أحكم السعد عقدها	وأعمل إجماع عليها وإصفاق
قضى عمر فيها بحق محمد	فسجل عهد للوفاء وميثاق
أحلاماً ترى عيناى أم هي فترة	أعندكما في مشكل الأمر مصداق
وفاض لفضل الله في الأرض تبغي	ومجتمعات لا تريب وأسواق
وسرح تهنيه الكلاءة بالكلأ	وفلح لسقي الغيث قام له ساق
وقد كان طيف الحلم لا يعمل الخطأ	وللفتنة العمياء في الأرض إطباق
وللغيث إمساك وفي الأرض رجة	وللدين والدنيا وجوم وإطراق
فكل فريق فيه للبغي راية	وكل طريق فيه للغيث طراق
أجل إنه من آل يعقوب وارث	يحن له البيت العتيق ويشتايق
له من جناح الروح ظل مسجف	ومن رفر العز الإلهي رستاق
أطل على الدنيا وقد عاد ضوءها	دجى وعلى الأحداق للذعر إحداق
فأشرقت الأرجاء من نور ربها	وساح بها لله لطف وإشفاق
فمن ألسن بالشكر لله أعلنت	وكان لها من قبل همس وإطباق
وليس لأمر أبرم الله ناقض	وليس لمسعى النجاح في الله إخفاق
محمد قد أحيت دين محمد	وللخلق أدماء تفيض وأرماق
ولو لم تثب غطى على شفق الضحا	دم لسيوف البغي في الأرض مهراق
فأيمن بمشحون من الفلك سابح	له باختيار الله حط وإيساق
أقلك والدأماء تظهر طاعة	إليك وصفح الماء أزرق رقراق
إلى هدف السعد انبرى منه والدجا	تضل الحجى سهم من السعد رشاق

فخطت لتقويم القوام جداول
تبارك من أهداك للخلق رحمة
هو الله يبلى الناس بالخير فتنة
سمت منك أعناق الورى لخليفة
وقالوا بنان ما استقل بكفه
وأطنب فيك المادحون وأغرقوا
ألست من القوم الذين أكفهم
ألست من القوم الذين وجوههم
رياض إذا العافي استظل ظلالها
أبوك ولي العهد لو سالم الردى
فمن ذا له جد كجدك أو أب
وحسب العلا في آل يعقوب أنهم
أسود سروج أو يلدور أسرة
يطول لتحصيل الكمال سهادهم
ومنها:

لقد نسيت إحسان جلدك فرقة
أجازت خروج ابن ابنه عن ترائه
ومن دون ما راموه الله قدرة
خذ العفو وابلل فيهم العرف ولتسع
فريما تنبو مهنة الطربي
وما الناس إلا مذهب وابن مذهب
ولا ترج في كل الأمور سوى الذي
إذا هو أعطى لم يضر منع مانع
عرفت الردى واستأثرت بك للعدا
فيسر ليسرى وأحى بك الورى

وصحت من التوفيق واليمن أوفاق
ومستبعد أن يهمل الخلق خلاق
وبالشر والأيام سم وترياق
له في مجال السعد عدو وأعناق
تفيض على العافين أم هي أرزاق
فلم يجد إطناب ولم يغن إغراق
غمام ندى إن أخلف الغيث غيداق
بدور لها في ظلمة الروع إشراق
ففيها جنى ملء الأكف وإبراق
وجدك قد فاق الملوك وإن فاقوا
لآلى والمجد المؤثل نساق
هم الأصل في العلياء والناس إلحاق
فإن حاربوا راعوا وإن سالموا راقوا
فهم للمعالي والمكارم عشاق

تزر على أعناقهم منه أطواق
ولم تدر ما ضمت من الذكر أوراق
ومن دون ما أموه للفتح إغلاق
جريرة من أبدى لك العذر أخلاق
وتهفو حلوم القوم والقوم حذاق
ولله إرفاد عليهم وإرفاق
خزائنه ما ضرها قط إنفاق
وإن حشدت طسم وعاد وعملاق
تخوم لمخطط الصليب وأعماق
وللروع إرعاد عليك وإبراق

فجاز صنيع الله وازدد بشكره
وأوف لمن أوفى وكاف الذي كفى
وتهنيك يا مولى الملوك خلافة
فقد بلغت أقصى المنى بك نفسها
فلا راع منها السرب للدهر رائع
أمولاي راع الدهر سربي وغالني
وليس لكسرى غيرك اليوم جابر
ولي فيك ود واعتداد غرسته
وقد عيل صبري في ارتقابي خليفة
وأنت حسام الله والله ناصر
وأنت الأمان المستجار من الردى
وأهون ما يرجى لديك شفاعاة
ودونكها من ذائع الحمد مخلص
إذا قال أما كل سمع لقوله
ودم خافق الأعلام بالنصر كلما

مواهب جود غيئها الدهر دفاق
فأنت كريم طهرت منك أعراق
شجتها تباريح إليك وأشواق
وكم فاز بالوصل المهنا مشتاق
ولا نال منها جدة السعد أخلاق
فطرفي مذعور وقلبي خفاق
ولا ليدي إلا بمجدك أعلاق
فراقت به من يانع الحمد أوراق
تحل به للضر عني أوهاق
وأنت أمين الله والله رزاق
إذا راع خطب أو توقع إملاق
إذا لم يكن عزم حثيث وإرهاق
له فيك تقييد يروق وإطلاق
فمصغ وأما كل أنف فنشاق
ذهبت لمسعى لم يكن فيه إخفاق

قال: «وعدت منه ببر كبير واحترام شهير»: يشير بذلك إلى ما أكرمه به وكتب له من الظهير الذي يتضمن كمال الاحترام والتوقير، ونصه: «هذا ظهير كريم من أمير المسلمين فلان أيده الله ونصره، وسنى له الفتح المبين ويسره، للشيخ الفقيه الأجل الأسنى الأعز الأحظى، الأرفع الأمجد الأسمى الأوحد الأنور الأرقى العالم العلم الرئيس الأعرف المتفطن الأبرع، المصنف المفيد الصدر الأحفل، الأفضل الأكمل، أبي عبد الله ابن الشيخ الفقيه الوزير الأجل الأسنى الأعز الأرفع الأمجد الوجيه الأنوه الأحفل، الأفضل الحسيب الأصيل الأكمل، المبرور المرحوم أبي محمد ابن الخطيب قابله أيده الله بوجه القبول والإقبال، وأضفى عليه ملابس الإنعام والإفضال، ورعى له خدمة السلف الرفيع، الجلال، وما تقرر من

مقاصده الحسنة في خدمة أمرنا العال، وأمر في جملة ما سوغه من الآلاء الوارفة الظلال، الفسيحة المجال، بأن يجدد له حكم ما بيده من الأوامر المتقدم تاريخها، المتضمنة تمشية خمسمائة دينار من الفضة العشرية في كل شهر عن مرتب له ولولده الذي لنظره من مجبي مدينة سلا حرسها الله، ومن حيث جرت العادة أن تمشي له، ورفع الاعتراض ببابها فيما يجلب من الأدم والأقوات على اختلافها من حيوان وسواه، وفيما يستفيدة خدامه بخارجها وأحوازها من عنب وقطن وكتان وفاكهة وخضر وغير ذلك فلا يطلب في شيء من ذلك بمغرم ولا وظيف ولا يتوجه فيه إليه بتكليف، يتصل له حكم جميع ما ذكر في كل عام تجديداً تاماً واحتراماً عاماً، أعلن بتجديد الحظوة واتصالها، وإتمام النعمة وإكمالها، من تواريخ الأوامر المذكورة إلى الآن ومن الآن إلى ما يأتي على الدوام واتصال الأيام، وأن يحمل جانبه فيمن يشركه أو يخدمه محمل الرعي والمحاشاة في السخر مهما عرضت، والوظائف إذا افترضت، حتى يتصل له نال العناية بالطارف، وتتضاعف أسباب المنن والعوارف بفضل الله، وتحرر له الأزواج التي يحرقها بتالماغت من كل وجيبة، وتحاشى من كل مغرم أو ضريبة بالتحرير التام يحول الله وعونه، ومن وقف على هذا الظهير الكريم فليعمل بمقتضاه وليمض ما أمضاه إن شاء الله، وكتب في العاشر من شهر ربيع الآخرة من سنة ثلاث وستين وسبعمائة وكتب في التاريخ اه وقوله وكتب في التاريخ هو العلامة السلطانية في ذلك الزمان يكتب بقلم غليظ، وبعض ملوك المغرب يكتب عند العلامة: «صح في التاريخ».

وفادة ابن محمد الهنتاتي على السلطان أبي زيان بن أبي عبد الرحمن رحمهما الله

كان للوزير عمر بن عبد الله اليباني مودة ومضافة مع الرئيس الشهير أبي ثابت عامر بن محمد الهنتاتي كبير جبل درن والبلاد المراكشية، وكان الوزير عمر المذكور قد بعث إليه بصره وظهيره على الملك مسعود بن عبد الرحمن ابن ماساي يكون عنده عدة وعتاداً ليوم ما، فلما بويع السلطان أبو زيان استقدم عمر بن عبد الله صهره المذكور لوزارته، وكان عامر بن محمد مجمعاً القدوم على السلطان المذكور، فقدم في صحبته مسعود، ونزلا من الدولة بخير منزل.

وعقد السلطان أبو زيان لمسعود المذكور على وزارته بإشارة الوزير عمر بن عبد الله فاضطلع بها، ودفعه عمر إليها استمالة اليد وثقة بمكانه واستظهاراً بعصبيته، وعقد مع عامر بن محمد الحلف على مقاسمة المغرب شق الأبلمة، وجعل إمارة مراكش لأبي الفضل ابن السلطان أبي سالم إسعافاً لغرض عامر بن محمد في ذلك.

وخطب إليهم عامر بنت السلطان أبي بكر الحفصي التي توفي عنها السلطان أبو عنان⁽¹⁾ فأجابوه، وحملوا أولياءها على العقد عليها، وانكفأ راجعاً إلى مكان عمله بمراكش يجر الدنيا وراءه عزاً وثروة وتابعاً، وذلك في جمادى الأولى من سنة ثلاث وستين وسبعمائة، فاستقل بأمر الناحية الغربية من مراكش وجبال المصامدة وما إليها من الأعمال واستبد بها، ونصب أبا الفضل ابن السلطان أبي سالم صورة، واستوزر له وتمكن سلطانه وعلا ذكره، وصارت كأنها دولة مستقلة، فصرف إليه النازعون من بني مرين عن

(1) والصحيح أبو الحسن لأن المصاهرة لم تنعقد بين أبي عنان والحفصيين راجع ابن

خلدون ج 2 صحيفة 472 وتاريخ الدولتين للزركشي صحيفة 83 وصحيفة 84.

الدولة وجوه مفرهم، ولجؤوا إليه فأجارهم على السلطان واجتمع إليه منهم ملأ، واتسع الخرق على الرافع، واضطربت الأحوال بالمغرب، وخرج على السلطان أبي زيان الأمير عبد الحليم بن أبي علي بن أبي سعيد، وتغلب على سجلماسة وأعمالها، ثم غلب عليه أخوه عبد المؤمن بن أبي علي فخرج عبد الحليم إلى المشرق لقضاء فريضة الحج، واستمر عبد المؤمن بسجلماسة، وأقام بها دولة كما كان لوالده من قبل إلى أن فتحها الوزير مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي وأضافها إلى مملكة فاس، ثم انتقض الوزير مسعود أيضاً وبإيعاز الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن بن أبي علي، ونصبه للأمر وصار يشوش به على الدولة، وشرق عمر بن عبد الله بدائه في أخبار طويلة، ولما لم يتم له أمر عبر هو وسلطان البحر من مرسى غساسة إلى الأندلس فاتح سنة سبع وستين وسبعمائة، وأقبلا على الجهاد واستراح الوزير عمر وسلطان أبو زيان من شغبهما. والله غالب على أمره.

مقتل السلطان أبي زيان بن أبي عبد الرحمن رحمه الله

لما طال استبداد الوزير عمر بن عبد الله على السلطان أبي زيان وحجره أباه إذ كان وضع عليه الرقباء والعيون حتى من حرمه وأهل قصره عزم على الفتك بالوزير المذكور، وتناجى بذلك مع بعض ندمائه وأعدله طائفة من العبيد كانوا يختصون به، فنما ذلك إلى الوزير بواسطة بعض الحرم كانت عيناً له عليه فعاجله، وكان قد بلغ من الاستبداد عليه أن كان الحجاب مرفوعاً له عن خلوات السلطان وحرمه، فدخل عليه وهو في وسط حشمة فطردهم عنه، ثم غطه حتى فاض، وأمر به فالقي في بئر بروض الغزلان، واستدعى الخاصة فأراهم مكانه بها، وأنه سقط عن دابته وهو سكران، وذلك في محرم فاتح سنة ثمان وستين وسبعمائة كذا عند ابن خلدون. وقال في «الجدوة»: «توفي يوم الأحد الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة سبع وستين وسبعمائة وله ثمان وعشرون سنة، ودفن بجامع

قصره فكانت دولته أربع سنين وعشرة أشهر ويوماً واحداً» والله أعلم.

الخبر عن دولة السلطان أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن رحمه الله

هذا السلطان هو الذي أنعش دولة بني مرين بعد تلاشيها، وأعاد إليها شبابها بعد هرمها، وتقاضيتها، وأزال عنها وصمة الحجر والاستبداد، وأعادها من العز إلى حالها المعتاد، وهو الذي ذكره ابن خلدون في أول تاريخه الكبير وألفه برسمه، وحلى ديباجته باسمه، أمه: مولدة اسمها مريم، صفته: آدم اللون شديد الأدمة، طويل القامة، يشرف على الناس بطوله، نحيف الجسم، أعين أدعج أخنس، في وجهه أثر جدري. وكان عفواً متمسكاً بالدين، محباً في الخير وأهله، لم يشرب خمراً ولا وقع في فاحشة قط، وبالجملّة فقد كان من صالحى الملوك رحمه الله.

ولما كان من الوزير عمر بن عبد الله الياباني إلى السلطان أبي زيان رحمه الله ما كان من الخنق والإلقاء في البئر، استدعى عبد العزيز بن أبي الحسن هذا، وكان في بعض الدور من القصبة بفاس محتاطاً عليه من قبل الوزير المذكور، فأحضره بالقصر، وأجلسه على سرير الملك وبايعه، وفتحت الأبواب لبني مرين وسائر الخاصة والعامة فازدحموا على تقبيل يده، معطين الصفقة بطاعته، فتم أمره وثبت ملكه وذلك يوم الأحد الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة سبع وستين وسبعمائة، ثم إن الوزير عمر جرى معه على عادته من الاستبداد، ومنع التصرف في شيء من أمور الملك فأنف السلطان عبد العزيز من ذلك وتأفف منه، ودارت بينه وبين الوزير أمور إلى أن عمل السلطان على الفتك به فأعد له جماعة من الخصيان بزوايا داره، ثم أحضره ووبخه وثار به أولئك الخصيان فتناولوه هبراً بالسيوف، وصاح الوزير المذكور صيحة أسمع بها بطانته خارج الدار فوثبوا على الأبواب فكسروها،

واقترحوا الدار فإذا صاحبهم مضرج بدمائه قد فرغ منه فولوا الأدبار هاربين، ثم تتبع السلطان عبد العزيز حاشية الوزير بالاعتقال والقتل حتى أتى على الجميع في خبر طويل، واستبد بملكه واضطلع به وأدار الأمور فيه على ما ينبغي والله تعالى أعلم.

انتقاض أبي الفضل بن أبي سالم ثم مقتله بعد ذلك

قد قدمنا أن أبا الفضل بن أبي سالم كان قد عقد له الوزير عمر بن عبد الله على مراكش إسعافاً لكافله عامر بن محمد الهنتاتي، فلما فتك السلطان عبد العزيز بالوزير المذكور سولت لأبي الفضل نفسه مثلها في عامر بن محمد لاستبداده عليه، وأغراه بذلك بطانته فأحس عامر بالشرف فتمارض بداره من مراكش، ثم استأذنه في الصعود إلى معتصمه من الجبل ليمرضه هنالك حرمة وأقاربه، فارتحل بجملته واحتل بحصنه وكان أعز من الأبلق الفرد، فيش أبو الفضل من الاستمكان منه، ثم أغرته بطانته إذ فاتهم عامر بالفتك بعبد المؤمن بن أبي علي، وكان قد انضاف إليه بعد إجماله عن سجداسة، فسكر أبو الفضل ذات ليلة وبعث عن قائد الجند من النصاري فأمره بقتل عبد المؤمن بمكان معتقله من قصبة مراكش فجاء برأسه إليه، وطار الخبر بذلك إلى عامر فارتاع وحمد الله إذ خلصه من غائلته وبعث ببيعته إلى السلطان عبد العزيز، وأغراه بأبي الفضل ورغبه في ملك مراكش، ووعدته بالمظاهرة، فأجمع السلطان أمره على النهوض إليها، ونادى في الناس بالعطاء، وقضى أسباب حركته، وارتحل من فاس سنة تسع وستين وسبعمائة، وقد استبد أبو الفضل بمراكش وأعمالها.

وأقام بها رسم الملك، واستوزر واستلحق وجعل شوراه لمبارك بن إبراهيم بن عطية الخلطي.

ولما نهض السلطان عبد العزيز من فاس اتصل خبره بأبي الفضل وهو

منازل لعامر بن محمد فانفض معسكره ولحق بتادلا ليعتصم بجبل بني جابر منها، فتبعه السلطان عبد العزيز إليها ونازله، وأخذ بمخنقه وقاتله ففل عسكره. ثم داخل بعض بني جابر في جر الهزيمة عليه على مال يعطيه لهم ففعلوا، وانهزمت جيوشه وتقبض على أشياعه وسيق مبارك بن إبراهيم إلى السلطان عبد العزيز فاعتقله إلى أن قتله مع عامر بن محمد كما نذكر.

ولحق أبو الفضل بقبائل صناكة وراء بني جابر فداخل بنو جابر في شأنه، وبذلوا لهم عن السلطان مالاً دثراً في إسلامه فأسلموه، وبعث السلطان إليهم وزيره يحيى بن ميمون فجاء به أسيراً، وأحضره أمام السلطان فوبخه، ثم اعتقله بفسطاط مجاور له، ثم غط من الليل فكان مهلكه في رمضان سنة تسع وستين وسبعمائة لمضي ثمان سنين من إمارته على مراكش، وبعث السلطان عبد العزيز إلى عامر بن محمد يختبر طاعته فأبى عليه، وجاهر بالخلاف إلى أن كان من شأنه ما نذكره.

انتقاض عامر بن محمد الهنتاتي وحصار السلطان عبد العزيز إياه وظفروه به

كان عامر بن محمد الهنتاتي مجير السلطان أبي الحسن من ابنه أبي عنان على ما وصفنا من بلوغ الغاية في الرياسة والاعتزاز على الدولة وطول الاستبداد بمراكش وأحوازها، وكان قد حصل في مدة رياسته على ثروة عظيمة وجاه كبير، وكان له معتصم بجبل درن أعز من بيض الأنوق قد حصن فيه ماله وسلاحه وذخيرته، وكان كلما هاجه هائج صعد إليه وأمن على نفسه، فلما صفا الأمر للسلطان عبد العزيز جعل عامراً هذا من أهم أمره فنصب له واستعد لقتاله وعقد على وزارته لأبي بكر بن غازي بن يحيى بن الكاس ونهض إليه من فاس سنة سبعين وسبعمائة فحاصره في جبله سنة كاملة. ولما طال الحصار على عامر وشيعته اختلفت كلمتهم عليه وفسد ما

بينه وبين ابن أخيه فارس بن عبد العزيز بن محمد، فبعث إلى السلطان وسهل له الطريق لاقتحام الجبل، فزحفت العساكر والجنود وشارفت المعتصم، ولما استيقن عامر أن قد أحيط به بعث إلى ابنه أبي بكر أن يلحق بالسلطان مختاراً له ومشيراً عليه بالتي هي أحسن وأسلم، فألقى الولد بنفسه إلى السلطان فقبله، وبذل له الأمان وألحقه بجملته، وانتبذ عامر عن الناس وذهب لوجهه ليخلص إلى السوس فردّه الثلج، وقد كانت السماء أرسلت به منذ أيام حتى تراكم بالجبل بعضه على بعض وسد المسالك فاقتحمه عامر حتى هلك فيه بعض حرمه ونفق مركوبه، وغاب الهلكة العاجلة فرجع أدراجه مختفياً حتى آوى إلى غار مع أدلاء كان قد استخلصهم، وبذل لهم مالاً على أن يسلكوا به ظهر الجبل إلى صحراء السوس، فأقاموا ينتظرون إمساك الثلج وقد شدد السلطان عبد العزيز في التنقير عنه والبحث، فعثر عليه بعض البربر بالغار المذكور، فسيق إلى السلطان فأحضره بين يديه ووبخه فاعتذر واعترف بالذنب ورغب في الإقالة فحمل إلى مضرب بني له بإزاء فسطاط السلطان، واعتقل هنالك، وانطلقت الأيدي على معاقل عامر ودياره فانتهب من الأموال والسلاح والذخيرة والزروع والأقوات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

واستولى السلطان على الجبل ومعاقله في رمضان من سنة إحدى وسبعين وسبعمائة لحول من يوم حصاره، وعقد على هنتاة لابن أخي عامر، وهو فارس بن عبد العزيز بن محمد بن علي الهنتاني، وارتحل إلى فاس فاحتل بها آخر رمضان المذكور ودخلها في يوم مشهود برز فيه الناس، وحمل عامر وسلطانه تاشفين من بني عبد الحق كان نصبه للأمر مموهاً به على عادته، فحملاً معاً على جملين وقد أفرغ عليهما لباس رث، وعبث بهما أيدي الإهانة فكان ذلك عبرة لمن رآه.

ولما قضى السلطان عبد العزيز نسك عيد الفطر أحضر عامراً فقرعه بذنوبه، وأتى بكتاب بخطه يخاطب فيه أبا حمو بن يوسف الزياني ويستنجده على

السلطان فشهد عليه به وأمر السلطان بامتحانه فلم يزل يجلد حتى انتشر لحمه وضرب بالعصى حتى ورمت أعضاؤه، وهلك بين يدي الوزعة، وجنب تاشفين سلطانه إلى مصرعه فقتل قعصاً بالرماح وجنب مبارك بن إبراهيم الخلطي من محبسه بعد الاعتقال فالحق بهم، ولكل أجل كتاب، وصفا الجو للسلطان عبد العزيز من المنازعين وتفرغ لغزو تلمسان على ما تذكره إن شاء الله.

ارتجاع الجزيرة الخضراء من يد الإسبانيول

قد قدمنا ما كان من استيلاء الطاغية على الجزيرة الخضراء أيام السلطان أبي الحسن رحمه الله فاستمرت في ملكتهم إلى هذا التاريخ فنشأت بينهم فتنة وتقاتلوا على الملك وأعروا ثغورهم الموالية للمسلمين من الحامية والجند فبقيت عورة، وتشوف المسلمون إلى ارتجاع الجزيرة الخضراء التي قرب عهدهم بانتظامها في ملكة المسلمين.

وكان السلطان عبد العزيز في شغل عن ذلك بفتنة أبي الفضل بن أبي سالم وعامر بن محمد وانتقاضهما، فبعث إلى ابن الأحمر صاحب الأندلس أن يزحف إليها بعساكره وعليه عطاؤهم وإمدادهم بالمال والأساطيل على أن تكون مثوبة جهاده خالصة له، فأجاب ابن الأحمر إلى ذلك، وبعث إليه السلطان عبد العزيز بأحمال المال، وأوعز إلى أساطيله بسبته فانعمرت وأقلعت حتى احتلت بمرسى الجزيرة الخضراء لحصارها، وزحف ابن الأحمر بعساكر المسلمين على أثرها بعد أن قسم فيهم العطاء وأزاح العدد. وأعد الآلات للحصار، فنازلها أياماً قلائل، ثم أيقن النصارى بالهلكة لبعدهم عن الصريخ وبأسهم من مدد ملوكهم، فألقوا باليد وسألوا النزول على الصلح، فأجابهم ابن الأحمر إليه، ونزلوا عن البلد وأقيمت فيه شعائر الإسلام ومحيت منه كلمة الكفر، وكتب الله أجرها لمن أخلص في معاملته^(١)

(١) انظر الإحاطة ج 2 - صحيفة 56.

وكان ذلك سنة سبعين وسبعمائة، وولي ابن الأحمر عليها من قبله ولم تزل إلى نظره إلى أن وقع الاختيار على هدمها خشية استيلاء النصرانية عليها مرة أخرى فهدمت أعوام الثمانين وسبعمائة وأصبحت خاوية كأن لم تغن بالأمس.

نهوض السلطان عبد العزيز إلى تلمسان واستيلاؤه عليها وفرار سلطانها أبي حمو بن يوسف عنها

كان أبو حمو بن يوسف الزياني قد فسد ما بينه وبين عرب سويد وقبض على بعض رؤسائهم محمد بن عريف فاستصرخوا عليه السلطان عبد العزيز، وكانت القوارص لا تزال تسري إليه من أبي حمو المذكور فصادفوا منه صاغية إلى ما التمسوا منه، واعتزم على النهوض إلى تلمسان، وبعث الحاشرين إلى الجهات المراكشية فتوافى الناس إليه على طبقاتهم، واجتمعوا عنده أيام منى سنة إحدى وسبعين وسبعمائة فأفاض العطاء وأزاح العلل، ولما قضى نسك عيد الأضحى عرض الجند ونهض إلى تلمسان فاحتل بتازا.

واتصل خبره بأبي حمو فجمع الجموع وهم باللقاء ثم اختلفت كلمة أصحابه وتفرق عنه العرب من بني معقل فأجفل هو وأشياعه من بني عامر بن زغبة فدخلوا القفر.

وتقدم السلطان عبد العزيز فاحتل بتلمسان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة فدخلها في يوم مشهود، واستولى عليها وعقد لوزيره أبي بكر بن غازي بن الكاس على عساكر مرين والعرب وسرحه في اتباع أبي حمو فأدركه ببعض بلاد زناتة الشرق فأجهضوه عن ماله ومعسكره فانتهب بأسره واكتسحت أموال العرب الذين معه ونجا بزمائه إلى مصاب، وتلاحق به ولده وقومه متفرقين على كل مفازة، ثم دخلوا القفر بعد ذلك ودوخ الوزير المذكور بلاد المغرب الأوسط وشرد عصاته واستنزل ثواره في أخبار طويلة.

واستولى السلطان عبد العزيز على سائر الوطن من الأمصار والأعمال، وعقد عليها للولاء والعمال واستوسق له ملك المغرب الأوسط كما كان لسلفه واستمر مقيماً بتلمسان إلى أن كان ما نذكره.

نزوع الوزير ابن الخطيب عن سلطانه الغني بالله إلى السلطان عبد العزيز بتلمسان

قد قدمنا ما كان من رجوع الغني بالله ابن الأحمر إلى ملكه بالأندلس سنة ثلاث وستين وسبعمائة، ولما استولى على غرناطة وثبت قدمه بها بعث عن مخلفه بفاس من الأهل والولد، والقائم بالدولة يومئذ عمر بن عبد الله فاستقدم عمر ابن الخطيب من سلا وبعثهم إلى نظره، فسر السلطان ابن الأحمر بمقدمه وردّه إلى منزلته ودفع إليه تدبير المملكة وخلط بينه بندمائه وأهل خلوته، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد، وانصرفت إليه الوجوه وعلقت به الآمال وغشى بابّه الخاصة والكافة، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته فتوافقوا على السعاية فيه، وقد صم السلطان عن قبولها، ونما بذلك الخبر إلى ابن الخطيب فشمّر عن ساعده للرحلة عن الأندلس والحق بالمغرب، وكان له حنين إليه ورغبة في الإيالة المرينية من قبل ذلك، فقدم الوسائل إلى السلطان عبد العزيز وأوعز إليه بما عزم عليه من اللحاق بحضرته فوعده السلطان بالجميل وبسط أمله، فحينئذ استأذن السلطان الغني بالله في تفقد الثغور الغربية من أرض الأندلس فأذن له، وسار إليها في جماعة من فرسانه، ومعه ابنه علي فلما حاذى جبل طارق مال إليه، فخرج قائد الجبل لتلقيه، وقد كان السلطان عبد العزيز أوعز إليه بذلك وجهز إليه الأسطول من حينه، فاحتل بسبته ثم سار منها فقدم على السلطان عبد العزيز بتلمسان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، فاهتزت له الدولة وأركب السلطان خاصته لتلقيه وأحله بمجلسه محل الأمن والغبطة، ومن دولته بمكان الشرف والعزة،

وأخرج لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبي مدين سفيراً إلى الأندلس في مطلب أهله وولده فجاء بهم على أكمل الحالات من الأمن والتكرمة، ثم نزل بعد ذلك مدينة فاس القديمة فاستكثر بها من شراء الضياع وتأنق في بناء المساكن واغتراس الجنات وحفظت عليه رسومه السلطانية وتوقيراته، وأقام مطمئناً بخير دار عند أعز جار.

وفاة السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن رحمه الله

كان السلطان عبد العزيز قد أصابه مرض النحول في صغره ولأجل ذلك تجافى السلطان أبو سالم عن بعثه مع الأبناء إلى الأندلس فأقام بالمغرب، ولما شب أفاق من مرضه وصلاح بدنه ثم عاوده وجعه في مثواه بتلمسان وتزايد نحوله، ولما كمل الفتح واستفحل الملك اشتد به الوجع فصابره وكنمه عن الناس خشية الإرجاف ثم عسكر خارج لتلمسان للحاق بالمغرب. ولما كانت ليلة الخميس الثاني والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وسبعمائة قضى نحبه رحمه الله بظاهر تلمسان بين أهله وولده وسبق إلى فاس فدفن بجامع قصره، وسنه يومئذ أربع وعشرون سنة، وكانت دولته ست سنين وأربعة أشهر⁽¹⁾.

ومن نظمه ما ذكره ابن الأحمر في «نثير الجمان» مذيلاً بيتي والده السلطان أبي الحسن اللذين هما قوله:

أرضي الله في سر وجهه وأحمي العرض من دنس ارتياب
وأعطي الوفرة من مالي اختياراً وأشرب بالسيوف طلي الرقاب
فقال هو وأحسن:

وأرغب خالقي في العفو عني وأطلب حلمه يوم الحساب
وأرجو عونه في عز نصر على الأعداء محروس الجناب

(1) ومن أولاده: السلطان محمد السعيد ومحمد وعبد الله.

وعبدك واقف بالباب فارحم عبيداً خائفاً ألم العقاب

الخبر عن دولة السلطان السعيد بالله أبي زيان محمد بن عبد العزيز بن أبي الحسن

هذا السلطان ممن ولي الأمر وهو صبي، وفيه ألف ابن الخطيب كتابه المسمى: «بأعلام الأعلام بمن بويع من ملوك الإسلام قبل الاحتلال» كنيته: أبو زيان. أمه: عائشة بنت القائد فارح العلج، صفته: آدم اللون شديد الأدمة.

ولما مات السلطان عبد العزيز رحمه الله بظاهر تلمسان خرج الوزير أبو بكر بن غازي بن الكاس على الناس، وقد احتمل أبا زيان ابن السلطان عبد العزيز، فعزاهم عن سلطانهم ثم طرح ابنه بين أيديهم، فازدحموا عليه باكين متفجعين يعطونه الصفقة ويقبلون يديه للبيعة، ثم أخرجوه للمعسكر وأنزلوه بفساطيط أبيه وتم أمره وكفله الوزير المذكور فكان إليه الإبرام والنقض، والصبي كالعدم، إذ لم يكن في سن التصرف.

ثم إن الوزير ارتحل بالناس وجد السير فدخل حضرة فاس وأجلس الصبي لبيعة العامة فبايعوا، ثم توافت لديه وفود الأمصار على العادة، واستبد الوزير أبو بكر واستعمل على الجهات وجلس بمجلس الفصل واشتغل بأمر المغرب إبراماً ونقضاً.

ولما فصل بنو مرين عن تلمسان عاد إليها سلطانها أبو حمو بن يوسف الزياني، والتفت عليه بنو عبد الواد من كل جانب ومحا دعوة بني مرين من ضواحي المغرب الأوسط وأمصاره، واتصل الخبر بالوزير أبي بكر بن غازي فهم بالتهوض إليه ثم ثنى عزمه ما كان من خروج الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن بن أبي علي بن أبي سعيد بناحية بطوية، فإن السلطان ابن الأحمر كان قد سرحه من الأندلس صحبة وزيره مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي

لطلب ملك المغرب تشغيلاً على الوزير أبي بكر بن غازي، ثم أتبعه بالأمير أبي العباس أحمد ابن السلطان أبي سالم الذي كان محتاطاً عليه بطنجة، فزحف الأمير أبو العباس المذكور إلى فاس وظاهره ابن عمه الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن فحاصروا الوزير أبا بكر بن غازي وسلطانه أبا زيان ابن عبد العزيز، وضربوا على فاس الجديد سياجاً بالبناء للحصار، وأنزلوا به أنواع القتال بعد أن بعث ابن الأحمر رسله إلى الأمير عبد الرحمن باتصال اليد بابن عمه الأمير أبي العباس ومظاهرتة على ملك سلفه بفاس واجتماعهما لمنازلتها، وعقد بينهما الاتفاق والمواصلة وأن يختص عبد الرحمن بملك سلفه من سجلمامسة وأعمالها، فتراضيا وزحفاً إلى فاس كما قلنا، وأمدهم ابن الأحمر بجمع من جنده، فاستمر الحال على حصار فاس إلى أن أذعن الوزير أبو بكر لخلع سلطانه أبي زيان ومبايعة الأمير أبي العباس، فخلعه يوم الأحد السادس من محرم قاتح سنة ست وسبعين وسبعمائة وغرب إلى الأندلس فكانت دولته سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يوماً والله غالب على أمره.

الخبر عن الدولة الأولى للسلطان المستنصر

بالله أبي العباس أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن

هذا السلطان يقال له: ذو الدولتين لأنه ولي الملك مرتين كما سيأتي. أمه: حرة بنت أبي محمد السبائي. كنيته: أبو العباس، لقبه: المستنصر بالله، صفته: أبيض اللون ربعة تعلوه صفرة رقيقة، أدعج أسود الشعر أكحل الحاجبين ضيق البلج أسيل الخدين براق الشنايا جميل الوجه مليح الصورة ظريف المنزع لطيف الشمائل حسن الشكل إذا ركب، بويح أولاً بطنجة في شهر ربيع الآخر سنة خمس وسبعين وسبعمائة، ثم بويح البيعة العامة بالمدينة البيضاء بعد استيلائه عليها يوم الأحد السادس من محرم سنة ست وسبعين

وسبعماية، وكان الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن عندما أشرفوا على فتح فاس شرط عليهم ولاية مراكش عوضاً عن سجلماسة فعدوا له على كرهه مخافة أن تفترق كلمتهم ولا يتم أمرهم ففعلوا، وطووا له على النكت فارتحل إلى مراكش واستولى عليها، ثم فارقه وزيره مسعود بن عبد الرحمن وأجاز البحر إلى الأندلس فاستقر بها في إيالة ابن الأحمر.

واستقل السلطان أبو العباس بن أبي سالم بملك فاس وأعمالها، واستوزر محمد بن عثمان بن الكاس وفوض إليه أموره فغلب على هواه وجعل أمر الشورى إلى سليمان بن داود فاستقل بها وحاز رياسة المشيخة، واستحكمت المودة بينه وبين ابن الأحمر وجعلوا إليه المرجع في نقضهم وإبرامهم، فصار له بذلك تحكم في الدولة المرينية وأصبح المغرب كأنه من بعض أعمال الأندلس وذلك بما كان لابن الأحمر من إعانة السلطان أبي العباس على ملك المغرب حتى تم له، وبما كان تحت يده من أبناء الملوك المرشحين للأمر، فكان أبو العباس وحاشيته يصاتعونه لأجل ذلك، والله تعالى أعلم.

محنة الوزير ابن الخطيب ومقتله رحمه الله

لما لجأ ابن الخطيب إلى بني مرين وأصاب عندهم داراً وقراراً عز ذلك على ابن الأحمر، وسعى بطائفة عنده في ابن الخطيب لعداوتهم له، ثم بلغه أنه يغري السلطان عبد العزيز بتملك أرض الأندلس وقطع دعوة بني الأحمر منها، فعظم عليه ذلك ودبر الحيلة في قتل ابن الخطيب، وتتبع أعداؤه كلمات زعموا أنها صدرت منه في بعض تأليفه فأحصوها عليه ورفعوها إلى قاضي غرناطة أبي الحسن النباهي فاسترعاها وسجل عليه بالزندقة، وبعث ابن الأحمر برسم الشهادة مع هدية لم يسمع بمثلها إلى السلطان عبد العزيز وطلب منه إقامة الحد على ابن الخطيب أو إسلامه إليه، فصم السلطان عبد العزيز عن ذلك وأنف لذمته أن تخفر ولجواره أن يؤذى، وقال للوفد: «هلا

انتقمتم منه وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه، وأما أنا فلا يخلص إليه بذلك أحد ما كان في جوارِي» ثم وفر الجراية والإقطاع له ولبنيه ولمن جاء من فرسان الأندلس في جملته.

ثم لما مات السلطان عبد العزيز رحمه الله وولي ابنه أبو زيان وقام بأمره الوزير أبو بكر ابن غازي عاود ابن الأحمر الكلام في شأن ابن الخطيب وبعث بهدية أخرى إلى الوزير المذكور وطلب منه إسلامه إليه، فأبى الوزير وأساء الرد، وعادت رسل ابن الأحمر إليه مخففين، وقد رهبوا سطوته، فعند ذلك عمد ابن الأحمر إلى الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن، وكان عنده بالأندلس فأطعمه في ملك المغرب وأركبه البحر، فقذف به بساحل بطوية من بلاد الريف تشغيلاً على الوزير أبي بكر بن غازي كما مر، ثم تاب له رأي آخر فأغرى محمد بن عثمان بن الكاس وهو ابن عم أبي بكر بن غازي المذكور، وكان يومئذ بسبته قائماً على ثغرها، فداخله في البيعة لأبي العباس ابن أبي سالم، وكان يومئذ بسبته محتاطاً عليه في جملة من القرابة، والتزم أن يمدّه بالمال والرجال حتى يتم أمره، لكن بشرط أن ينزل له عن جبل طارق، ويبعث له بالقرابة الذين هم بطنجة ليكونوا تحت يده، ويسلم إليه ابن الخطيب متى قدر عليه، فكان الأمر كذلك، فإن السلطان أبا العباس لما استولى على الأمر نزل لابن الأحمر عن جبل طارق فمحا دعوة بني مرين من وراء البحر، ثم ملك بعد ذلك سبته فاستولى عليها، وبعث إليه بالقرابة المذكورين فأوسع لهم جنباه بغرناطة، ثم قبض السلطان أبو العباس ووزيره محمد بن عثمان على ابن الخطيب وطيروا بالأعلام لابن الأحمر، فحينئذ بعث وزيره أبا عبد الله بن زمرك، وكان من تلاميذه ابن الخطيب وبه تخرج، فقدم على السلطان أبي العباس وأحضروا ابن الخطيب بالمشور في مجلس الخاصة وأهل الشورى من الفقهاء، وعرضوا عليه بعض كلمات وقعت له في بعض كتبه فعظم عليه النكير فيها فويخ ونكل، وامتنحن بالعذاب بمشهد ذلك

الملا، ثم ثل إلى محبسه، وتفاوضوا في قتله بمقتضى تلك المقالات المسجلة عليه فأفتى بعض الفقهاء بقتله، فدرس سليمان بن داود إليه بعض الأوغاد من حاشيته فطرقوا السجن ليلاً ومعهم زعانفة من أهل الأندلس جاؤوا في لفيق ذلك الوفد فقتلوه خنقاً في محبسه وأخرجوا شلوه من الغد فدفن في مقبرة باب المحروق، ثم أصبح من الغد طريحاً على شافة قبره وقد جمعوا له أعواداً فأضرموها عليه ناراً فاحترق شعره واسود بشره، وأعيد إلى حفرته، وكان في ذلك انتهاء محنته، وعجب الناس من هذه السفاهة التي جاء بها سليمان بن داود واعتدوها من هتاتته، وعظم النكير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته.

وكان ابن الخطيب رحمه الله أيام مقامه بالسجن يتوقع مصيبة الموت فتجيش هواتفه بالشعر يبكي نفسه فمما قال في ذلك:

بعدنا وإن جاورتنا البيوت	وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفسنا سكنت دفعة	كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاماً	وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شمس سماء العلا	غربنا فناحت عليها السموت
فكم جدلت ذا الحسام الطيبي	وذو البخت كم جدلته البخوت
وكم سيق للقبر في خرقة	فتى ملئت من كسائه التخوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب	وفات ومن ذا الذي لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له	فقل يفرح اليوم من لا يموت

وكانت نكبته رحمه الله أوائل سنة ست وسبعين وسبعمائة، وعند الله

تجتمع الخصوم.

بقية أخبار أمير مراكش عبد الرحمن بن أبي يفلوسن رحمه الله

قد تقدم لنا ما كان من معاهدة السلطان أبي العباس والأمير عبد الرحمن ابن أبي يفلوسن على ولاية سجلماسة أولاً ثم التعويض عنها بمراكش ثانياً، فلما فتح السلطان أبو العباس فاساً وفي للأمير عبد الرحمن بعقده فسار إلى مراكش واستولى عليها وعلى أعمالها، واقتسمت مملكة المغرب الأقصى يومئذ بنصفين.

وكان الحد بين الدولتين ثغر آزمور فكانت في إيالة صاحب فاس، وما وراءها إلى مراكش في إيالة صاحب مراكش، ثم كانت بينهما بعد ذلك مواصلات ومناقضات ومسالمات ومحاربات يطول جلبها، واتصل ذلك إلى منتصف سنة أربع وثمانين وسبعمائة فظفر السلطان أبو العباس بعبد الرحمن بعد محاصرته بقصبة مراكش تسعة أشهر، ولما أشرف السلطان أبو العباس على فتحها وانفض الناس من حول الأمير عبد الرحمن ونزلوا من الأسوار ناجين إلى السلطان وبقي هو في قصبته منفرداً بات ليلته يراد ولديه على الاستماتة وهما: سليم وأبو عامر، وركب السلطان أبو العباس من الغد في التعمية إلى القصبة فاقتحمها بمقدمته ولقيه الأمير عبد الرحمن وولداه مسابقين إلى الميدان ومباشرين القتال بين أبواب دورهم فجالوا معهم جولة قتل فيها الولدان قتلهم علي بن إدريس وزيان بن عمر الوطاسي.

قال ابن خلدون: «وطالما كان زيان يمتری ثدي نعمتهم ويجر ذيله خيلاء في جاههم فذهب مثلاً في كفران النعمة وسوء الجزاء والله لا يظلم مثقال ذرة» وكان ذلك خاتم جمادي الآخرة سنة أربع وثمانين المذكورة لمضي عشر سنين من إمارة عبد الرحمن على مراكش، ثم رحل السلطان أبو العباس منقلباً إلى فاس وقد استولى على سائر أعمال المغرب وظفر بعده ودفع النازعين عن ملكه والله غالب على أمره.

ذكر الشاوية وبيان نسبهم وأوليتهم وشرح لقبهم وتسميتهم

ذكر ابن خلدون أن الشاوية من ولد حسان بن أبي سعيد الصبيحي نسبة إلى صبيح بالتصغير بطن من سويد، وسويد إحدى قبائل بني مالك بن زغبة الهلاليين، وكان دخول حسان وأخيه موسى ابني أبي سعيد إلى المغرب الأقصى أيام السلطان يعقوب بن عبد الحق رحمه الله، قدموا في صحبة عبد الله بن كندوز العبد الوادي ثم الكمي، وكان عبد الله هذا قد نزع عن يغمراسن بن زيان إلى السلطان يعقوب المذكور فقدم عليه قبل فتح مراكش، فاهتز السلطان يعقوب لقدمه وأحله بالمكان الرفيع من دولته وأنزل قومه بجهات مراكش وأقطعهم البلاد التي كفتهم مهماتهم وجعل انتجاع إبله ورواحله وسائر ظهره في إحيائهم، فقدم عبد الله بن كندوز على رعايتها حسان وأخاه موسى الصبيحيين وكانا عارفين برعاية الإبل والقيام عليها فأقاموا يتقلبون في تلك البلاد ويتعدون في نجعتها إلى أرض سوس، وكانت ماشية السلطان يعقوب متفرقة في سائر المغرب فجمعها لعبد الله بن كندوز، وجمعها عبد الله لحسان الصبيحي المذكور، فكان حسان يباشر أمور السلطان في شأن تلك الماشية ويطالعه بمهمات فحصلت له مداخلة معه جلبت إليه الحظ حتى ارتفع قدره، ونشأ بنوه في ظل الدولة وعزها وتصرفوا في الولايات منها وانفردوا بخطة الشاوية فلم تزل ولايتها متوارثة فيهم منقسمة بينهم لهذا العهد إلى ما كانوا يتصرفون فيه من غير ذلك من الولايات، وكان لحسان من الولد علي ويعقوب وطلحة وغيرهم، ومن حسان هذا تفرعت شعوبهم في ولده.

قال ابن خلدون: «وهم لهذا العهد يتصرفون في الدولة على ما كان لسلفهم من ولاية الشاوية والنظر في رواحل السلطان والظهر الذي يحمل من الإبل ولهم عدد وكثرة ونباهة في الدولة» اهـ. قلت: ولفظ الشاوية نسبة إلى الشاء التي هي جماعة الغنم مثلاً قال الصحاح: «والنسبة إلى الشاء شاوي قال الراجز:

لا ينفع الشاوي فيها شاته ولا حماراه ولا علاته

وإن سميت به رجلاً قلت شائي وإن شئت شاوي» اهـ.

واعلم أن الشاوية اليوم يطلقون على سكان تامسنا من قبائل شتى بعضها عرب وبعضها زناتة وبربر غير أن لسان الجميع عربي، وكان أصل جمهورهم من هؤلاء الذين ذكر ابن خلدون، ثم انضافت إليهم قبائل أخرى، واختلطوا بهم فأطلق على الجميع شاوية تغليياً، وهكذا وقع في سائر عرب المغرب الأقصى المواطنين بتلوله فإنهم وقع فيهم اختلاط كبير حتى نسوا أنسابهم وأصولهم الأولى إلا في النادر، وذلك بسبب تعاقب الأعصار وتناسخ الأجيال وتوالي المجاعات والانتجاعات ووقعات الملوك بهم في كثير من الأحيان وتفريق بعضهم من بعض ونقل بعضهم إلى بلاد بعض، ومع ذلك فأسماؤهم الأولى لا زالت قائمة فيهم لن تتغير إلى الآن فمنها يهتدي الفطن إلى التنقير عن أنسابهم وإلحاق فروعهم بأصولهم متى احتاج إلى ذلك. والله تعالى أعلم.

نهوض السلطان أبي العباس إلى تلمسان وفتحها وتخريبها

لما نهض السلطان أبو العباس إلى مراكش وحاصر بها عبد الرحمن بن أبي يفلوسن خالقه إلى المغرب أبو حمو بن يوسف الزياني في جمع من أولاد حسين عرب معقل وذلك بإغراء عبد الرحمن المذكور، فدخلوا إلى أحواز مكناسة وعاثوا فيها ثم عمدوا إلى مدينة تازا فحاصروها سبعا وخربوا قصر الملك هنالك ومسجده المعروف بقصر تازروت وبينما هم على ذلك بلغهم الخبر اليقين بفتح مراكش وقتل الأمير عبد الرحمن فأجفلوا من كل ناحية ومر أبو حمو في طريقه إلى تلمسان بقصر ونزمار بن عريف السويدي في نواحي بطوية المسمى بمرادة فهدمه.

ووصل السلطان أبو العباس إلى فاس فأراح بها أياماً ثم أجمع النهوض إلى تلمسان فانتهى إلى تاويريرت، وبلغ الخبر إلى أبي حمو فاضطرب رأيه

واعتزم على الحصار وجمع أهل البلد عليه فاستعدوا له، ثم بدا له فخرج في بعض تلك الليالي بولده وأهله وخاصته وأصبح مخيماً بالصفيف فأهرع أهل البلد إليه بعيالهم وأولادهم متعلقين به تفادياً من معرة هجوم العسكر عليهم فلم يزع ذلك عن قصده، وارتحل ذاهباً إلى البطحاء، ثم قصد بلاد مغراوة فنزل في بني بو سعيد قريباً من شلف وأنزل أولاده الأصاغة وأهله بحصن تاجحمومت وجاء السلطان أبو العباس إلى تلمسان فملكها واستقر بها أياماً ثم هدم أسوارها وقصور الملك بها بإغراء وليه ونزمار جزاء بما فعله أبو حمو في تخريب قصر تازروت وحصن مرادة، ثم خرج من تلمسان في اتباع أبي حمو ونزل على مرحلة منها وهنالك بلغه الخبر بإجازة موسى بن أبي عنان من الأندلس إلى المغرب، وأنه خالفه إلى دار الملك فانكفاً راجعاً عوده على بدئه ورجع أبو حمو إلى تلمسان فاستقر ملكه بها إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله.

خلع السلطان أبي العباس بن أبي سالم وتغريبه إلى الأندلس والسبب في ذلك

قد قدمنا ما كان من تحكم ابن الأحمر في مملكة المغرب ودالته على السلطان أبي العباس بما أنه كان السبب في ولايته وبما تحت يده من القرابة المرشحين الذين أرصدهم للتشغيب على دار الملك بالمغرب متى رأى من أحدهم ما لا يوافق هواه، وكان مع كثرة تحكمه فيهم يتجنى عليهم في بعض الأوقات بما يأتونه من تقصير في شفاعاة أو مخالفة في أمر لا يجدون عنها محيصاً فيضطغن ذلك عليهم، وكان يعتد على السلطان أبي العباس بشيء من هذه الهنات.

فلما نهض إلى تلمسان واستولى عليها سنة خمس وثمانين وسبعمائة اتصل بابن الأحمر أن دار الملك بفاس قد بقيت عورة من الجند والحامية فانتهاز الفرصة وبادر بتسريح موسى ابن السلطان أبي عنان إلى المغرب

واستوزر له مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي رئيس الفتنة وقطب رحاها، وكان عنده بالأندلس بعد مفارقة عبد الرحمن بن أبي يفلوسن، فنزل موسى ابن أبي عنان سبئة فاستولى عليها وسلمها لابن الأحمر فدخلت في طاعته، ثم تقدم إلى فاس فدخلها من يومه واستقر قدمه بها.

واتصل الخبر بالسلطان أبي العباس وهو بتلمسان فجاء مبادراً ونزل بتازا فأقام بها أربعاً ثم تقدم إلى الموضع المعروف بالركن فانتقض عليه رؤساء جيشه وتسلبوا إلى موسى طوائف وأفراداً ولما رأى ما نزل به رجع إلى تازا بعد أن انتهب معسكره وأضرمت النار في خيامه وذلك يوم الأحد الموفي ثلاثين من ربيع الأول سنة ست وثمانين وسبعمائة.

ثم بعث موسى بن أبي عنان من أتاه بالسلطان أبي العباس في الأمان فقدم عليه وقيده وبعث به إلى ابن الأحمر فبقي عنده محتطاً عليه إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله.

وكانت دولته هذه عشر سنين وشهرين وأربعة وعشرين يوماً، ومن وزرائه في هذه الدولة: محمد بن عثمان بن الكاس المجذولي ومن كتابه: عبد المهيمن ابن أبي سعيد بن عبد المهيمن الحضرمي تغمد الله الجميع برحمته.

الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله أبي

فارس موسى ابن أبي عنان بن أبي الحسن

أمه: مولدة اسمها تاملالت، صفته: أسمر مائل إلى السواد قصير القامة جاحظ العينين عظيم اللحية تملأ صدره قائم الأنف وإذا تكلم يملأ لسانه فمه فيخرج من بين شفتيه ويتحرك فيقبح كلامه، بويح يوم الخميس الموفي عشرين من شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين وسبعمائة وقام بأمر دولته وزيره مسعود بن ماساي مستبداً عليه، ولما استقر أمره بالحضرة وجه إليه ابن الأحمر أمه وعياله وكانوا عنده وهناه وزيره أبو عبد الله بن زمرك بتوشيح يقول في مطلعته:

قد نظم الشمل أتم انتظام
وضاحك الروض ثغور الغمام
ولا تحت الأقمار بعد المغيب
عن مبسم الزهر البرود الشيب
إلى أن قال في آخره:

مولاي يهنيك وحق الهنا
قد فزت بالفخر ونيل المنى
قد نظم الشمل كنظم السعود
وأنجز السعد جميع الوعود
وقرت العين وزال العنا
ولم يزل ملكك حلف الدوام
وكلما مر صنيع يعود
يحوز في التخليد أوفى نصيب
يتلو عليك الدهر بعد السلام
نصر من الله وفتح قريب

خروج الحسن بن الناصر بغمارة ونهوض الوزير ابن ماساي إليه

كان الحسن بن الناصر بن أبي علي بن أبي سعيد قد لحق من مقره بالأندلس بحضرة تونس في سبيل طلب الملك، وكان الوزير مسعود بن ماساي قد قتل محمد بن عثمان بن الكاس وافتقرت حاشيته في الجهات فطلبوا بطن الأرض دون ظهرها، ولحق منهم ابن أخيه العباس بن المقداد بتونس فعثر على الحسن بن الناصر بها فثاب له رأي في الرجوع به إلى المغرب لطلب الأمر، فخرج به من تونس وقطع المفاوز إلى أن انتهى إلى جبال غمارة ونزل على أهل الصفيحة منهم فأكرموا مثواه ومنقلبه وأعلنوا بالقيام بدعوته، واستوزر العباس بن المقداد.

وبلغ الخبر إلى مسعود الوزير فجهز العساكر مع أخيه مهدي بن عبد الرحمن بن ماساي فحاصره بجبل الصحيفة أياماً فامتنع عليه فنهض إليه مسعود بنفسه على ما ذكره.

وفاة السلطان موسى بن أبي عنان رحمه الله

لما كان من استبداد ابن ماساي على السلطان موسى ما قدمناه استنكف من ذلك وداخل بطانته في الفتك به فنما ذلك إليه وحصلت له نفرة من السلطان طلب لأجلها البعد عنه وبادر إلى الخروج لدافعة الحسن بن الناصر القائم بغماره، واستخلف على دار الملك أخاه يعيش بن عبد الرحمن بن ماساي، فلما انتهى إلى قصر كتامة بلغه الخبر بوفاة السلطان موسى، وكانت وفاته في جمادى الآخرة طرقه المرض فهلك ليوم وليلة من مرضه، وكان الناس يرمون يعيش أخا الوزير بأنه سمه، قاله ابن خلدون.

وقال ابن القاضي في الجذوة: «توفي السلطان موسى بن أبي عنان مسموماً يوم الجمعة الثالث من شهر رمضان سنة ثمان وثمانين وسبعمائة وله إحدى وثلاثون سنة فكانت دولته سنتين وأربعة أشهر وولي بعده محمد بن أحمد بن أبي سالم» اهـ.

ومن كتابه: أبو الفضل محمد بن محمد بن أبي عمرو التميمي وأبو القاسم محمد بن سودة المري، ومن قضااته: أبو عبد الله محمد بن محمد المغيلي والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة المنتصر بالله السلطان أبي زيان

محمد بن أبي العباس ابن أبي سالم بن أبي الحسن

أمه: حرة وهي رقية بنت السلطان أبي عنان، صفته: أبيض اللون قائم الأنف أسيل الخدين، بويع بعد خاله موسى بن أبي عنان يوم الجمعة الثالث من شهر رمضان سنة ثمان وثمانين وسبعمائة، وسنه يوم بويع خمس سنين وخلع يوم الجمعة الخامس عشر من شوال من السنة المذكورة وغرب إلى الأندلس مع أبيه فكانت دولته ثلاثة وأربعين يوماً تحت استبداد الوزير مسعود عفا الله عنه.

الخبر عن دولة السلطان الواثق بالله أبي زيان محمد بن أبي الفضل بن أبي الحسن

أمه: أم ولد اسمها عسيلة، صفته: أسود اللون عظيم الخلق رحب الوجه طويل القامة والساقين ممتلئ الأنف عظيم الساعدين، وكان قبل ولايته عند ابن الأحمر بالأندلس في جملة القرابة ولما استوحش الوزير مسعود من السلطان موسى بن أبي عنان بعث ابنه يحيى إلى ابن الأحمر يسأل منه إعادة السلطان أبي العباس إلى ملكه فأخرجه ابن الأحمر من الاعتقال وجاء به إلى جبل الفتح يروم إجازته إلى العدو، فلما توفي السلطان موسى بدا للوزير مسعود في أمره ودس لابن الأحمر في رده وأن يبعث إليه بالواثق هذا وراه أليق بالاستبداد والحجر فأسغفه ابن الأحمر في ذلك ورد السلطان أحمد إلى مكانه بالحمراء وجيء بالواثق فحضر بجبل الفتح عنده فأجازه إلى سبتة، واتفق أن جماعة من الحاشية انتقضوا على الوزير مسعود ولحقوا بسبتة فقدم عليهم الواثق بها ورجعوا به إلى المغرب وتقلبوا في نواحيه إلى أن وصلوا إلى جبل مغيلة قرب فاس، فبرز الوزير مسعود في العساكر ونزل قبالتهم وقتلهم هنالك أياماً ثم وقع الاتفاق على أن يبايع مسعود للواثق بشرط الاستبداد فتم العقد على ذلك.

قال في «الجدوة»: بويع السلطان الواثق بالله أبو زيان محمد بن أبي الفضل يوم الجمعة الخامس عشر من شوال سنة ثمان وثمانين وسبعمائة وقام بأمره الوزير مسعود بن ماساي، ثم حدثت الفتنة بين الوزير المذكور وابن الأحمر بسبب أن الوزير طلب منه إعادة سبتة إلى الإيالة المرينية وكان موسى ابن أبي عنان قد نزل له عنها كما مر وكان طلبه على سبيل الملاطفة فاستشاط ابن الأحمر غضباً وأساء الرد فجهز ابن ماساي العساكر لحصار سبتة مع العباس بن عمر بن عثمان الوسنافي ويحيى بن علال بن أمصمود والرئيس محمد بن أحمد الأبكم من بني الأحمر فاستولى عليها،

ثم سرح ابن الأحمر السلطان أبي العباس من اعتقاله وبعثه إلى المغرب لطلب ملكه وللتشغيب على ابن ماساي الجاحد لإحسانه، فعبر السلطان أبو العباس البحر إلى المغرب فاحتل سبتة واستولى عليها، ثم تقدم إلى فاس فحاصرها وضيق على ابن ماساي وسلطانه الواصل بالله، وأهرع الناس إلى الدخول في طاعته حتى من مراكش، فاستمر الحصار على فاس الجديد ثلاثة أشهر، ثم أذن الوزير مسعود للطاعة على شرط أن يبقى وزيراً ويغرب سلطانه إلى الأندلس فأجيب وخلع الواصل بالله، ثم خرج إلى السلطان أبي العباس فبايعه وتقدم أمامه فدخل داخل ملكه يوم الخميس خامس رمضان سنة تسع وثمانين وسبعماية، ولحين دخوله قبض على الواصل بالله فقيده وبعث به إلى طنجة فقتل بها بعد ذلك وسنه يوم قتل ثمان وثلاثون سنة وبها قبر.

ومن وزرائه: يعيش بن علي بن فارس اليباني ومسعود بن رحو بن ماساي، ومن كتبه: منصور بن أحمد بن محمد التميمي، وأبو يحيى محمد ابن محمد بن أبي القاسم بن أبي مدين، ومن قضاته: أبو يحيى محمد بن محمد السكاك رحمهم الله تعالى بمنه.

الخبر عن الدولة الثانية للسلطان

أبي العباس بن أبي سالم بن أبي الحسن

لما دخل السلطان أبو العباس حضرة فاس الجديد في التاريخ المتقدم ببيع البيعة العامة في اليوم الثالث من دخوله وهو يوم السبت السابع من رمضان سنة تسع وثمانين وسبعماية لمضي ثلاث سنين وخمسة أشهر وستة أيام من خلعه.

ولما ملك أمر نفسه قبض على الوزير ابن ماساي وعلى إخوته وحاشيته وامتحنهم امتحاناً بليغاً فهلکوا من العذاب، ثم سلط على مسعود من العذاب

والانتقام ما لا يعبر عنه واعتد عليه بما كان يفعله في دور بني مرين النازعين عنه إليه، فإنه كان متى هرب منهم أحد عمد إلى بيوته فنهبها فأمر السلطان أبو العباس بعقابه في أطلالها فكان يؤتى به إلى كل بيت فيها فيضرب عشرين سوطاً إلى أن يرح به العذاب وتجاوز الحد، ثم أمر به فقطعت أربعته فهلك عند قطع الثانية وذهب مثلاً للآخرين.

ظهور محمد بن عبد الحليم بن أبي علي بسجلماسة ثم اضمحلاله بعد ذلك

قد قدمنا أن الأمير عبد الحليم بن أبي سعيد كان تغلب على سجلماسة ثم غلبه عليها أخوه عبد المؤمن، وسافر عبد الحليم إلى المشرق فهلك في سفرته تلك، وكان قد ترك ابنه محمداً هذا رضيعاً فشب متقلباً بين الدول من ملك إلى آخر على أن أكثر مقامه إنما كان عند أبي حمو صاحب تلمسان، ولما حاصر السلطان أبو العباس فاس الجديد كان محمد هذا عند العرب الأحلاف، فلما اشتد الحصار على مسعود بن ماساي دس إلى الأحلاف أن ينصبوا محمد بن عبد الحليم للأمر ويجلبوا به على المغرب ليأخذ بحجة السلطان أبي العباس عنه ففعلوا ودخل محمد بن عبد الحليم سجلماسة فملكها حتى إذا استولى السلطان أبو العباس على فاس الجديد وأوقع بمسعود ابن ماساي وإخوته خرج محمد بن عبد الحليم عن سجلماسة ولحق بأحياء العرب فسارت طائفة منهم معه إلى أن أبلغوه مأمنه ونزل على أبي حمو بتلمسان إلى أن هلك فسار إلى تونس ونزل على صاحبها أبي العباس الحفصي، ثم ارتحل بعد وفاته إلى المشرق لحج الفريضة والله تعالى أعلم.

نكبة الكاتب ابن أبي عمرو وحركات بن حسون ومقتلهما

كان محمد بن محمد بن أبي عمرو التميمي، وقد تقدم ذكر والده، في دولة السلطان أبي عنان كاتباً عند السلطان أبي العباس في دولته الأولى، فلما خلع وولي موسى بن أبي عنان تقرب إليه بسالف المخالصة لأبيه من أبي عنان فقد كان أعز بطانته كما مر، فاستخلصه السلطان موسى للشورى ورفع منزلته على منازل أهل الدولة وجعل إليه كتابة علامته على المراسم السلطانية كما كان لأبيه، وكان يفاوضه في مهماته ويرجع إليه في أموره حتى غص به أهل الدولة وسعى هو عند السلطان موسى في جماعة من بطانة السلطان أبي العباس فأتى عليهم النكال والقتل لكلمات كانت تجري بينهم وبينه في مجالس المنادمة عند السلطان أبي العباس حقدوا عليهم، فلما ظفر بالحظ من السلطان موسى سعى بهم عنده فقتلهم، وكان القاضي أبو إسحاق إبراهيم اليزناسني من بطانة السلطان أبي العباس وكان يحضر مع ندمائه فيحقد عليه ابن أبي عمرو وأغرى به السلطان موسى فضربه وأطافه، وجاء بها شنعاء غريبة في القبح، ثم سافر ابن أبي عمرو عن سلطانه موسى إلى الأندلس فكان يمر بمجلس السلطان أبي العباس من محل اعتقاله فلا يلم به وربما يلقاه فلا يحييه ولا يوجب له حقاً، فأحفظ ذلك السلطان أبا العباس فلما رد الله عليه ملكه وفرغ من ابن ماساي قبض على ابن أبي عمرو هذا وأودعه السجن ثم امتحنه بعد ذلك إلى أن هلك تحت السياط وحمل إلى داره، وبينما أهله يحضرونه إلى قبره إذا بالسلطان قد أمر بأن يسحب في نواحي المدينة إبلاغاً في النكال فحمل من نعشه وقد ربط في رجله حبل وسحب في سكك المدينة ثم ألقى على بعض المزابل.

ثم قبض السلطان على حركات بن حسون شيخ العرب وكان مجلباً في الفتنة، وكان العرب المخالفون من معقل لما أجاز السلطان أبو العباس إلى

سبته وحركات هذا بتادلا، راودوه على طاعة السلطان فامتنع أولاً ثم أكرهوه وجاؤوا به إلى السلطان فطوى على ذلك حتى إذا استقام أمره وملك حضرة فاس الجديد قبض عليه وامتحنه إلى أن هلك. وإلى الله عاقبة الأمور.

أخبار تلمسان واستيلاء السلطان أبي العباس عليها

كان السلطان أبو حمو بن يوسف الزياني قد عاد إلى تلمسان وثبت قدمه بها كما قلنا إلى أن خرج عليه ابنه أبو تاشفين آخر سنة ثمان وثمانين وسبعمائة ف وقعت بينهما حروب وشرق أبوه بدائه، ثم عادت له الكرة عليه في أخبار طويلة، فاستمد أبو تاشفين السلطان أبا العباس فأمدّه بابنه الأمير أبي فارس ووزيره محمد بن يوسف بن علال عقد لهما على جيش كثيف من بني مرين وغيرهم، فانتصر أبو تاشفين على أبيه فقتله وبعث برأسه إلى السلطان أبي العباس، ثم تقدم فدخل تلمسان آخر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة واستمر بها مقيماً لدعوة السلطان أبي العباس فكان يخطب له على منابر تلمسان ويبعث إليه بالضرية كل سنة كما شرط على نفسه عند توجيه العساكر معه واستمر على ذلك إلى أن مات سنة خمس وتسعين وسبعمائة⁽¹⁾، فتغلب على تلمسان أخوه الأخير يوسف بن أبي حمو.

ولما اتصل الخبر بالسلطان أبي العباس خرج من الحضرة إلى تازا ومن

(1) وكان نازعه أخوه أبو زيان بن أبي حمو صاحب الجزائر وزحف إليه مراراً فلم يغن شيئاً ثم وفد على السلطان أبي العباس متطارحاً عليه على الانتصاف من أخيه فأقام عنها مدة ثم أسعفه وجهازه معه عسكراً إلى تلمسان منتصف سنة 795 فأنهى إلى تازا وهناك اتصل به خبر وفاة أبي تاشفين وحينئذ خرج السلطان أبو العباس من فاس انظر «كشف العرين» للمؤلف.

هنالك بعث ابنه الأمير أبا فارس في العساكر إلى تلمسان فاستولى عليها وأقام فيها دعوة والده وفر يوسف بن أبي حمو إلى بعض الحصون فاعتصم به إلى أن كان ما نذكره

وصول هدية صاحب مصر السلطان الظاهر برقوق إلى السلطان أبي العباس بتازا والسبب في ذلك

كان العلامة الرئيس ولي الدين ابن خلدون قد استوطن في آخر عمره مصر القاهرة ونزل من سلطاتها بالمنزلة الرفيعة قال رحمه الله : «وكان يوسف ابن علي بن غانم أمير أولاد حسين من معقل ثم من أولاد جرار منهم قد حج سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة، واتصل بصاحب مصر الملك الظاهر برقوق أول ملوك الجراكسة من الترك قال: فتقدمت إلى السلطان المذكور فيه وأخبرته بمحله من قومه فأكرم تلقيه وحمله بعد قضاء حجه هدية إلى صاحب المغرب يطرفه فيها بتحف من بضائع بلده على عادة الملوك، فلما قدم يوسف بها على السلطان أبي العباس أعظم موقعها وجلس في مجلس حفل لعرضها والمباهاة بها وشرع في المكافأة عليها بمتخير الجياد والبضائع والثياب حتى إذا استكمل من ذلك ما رضىه وعزم على بعثها مع يوسف بن علي حاملها الأول وإنه يبعثه بها من موضع مقامه بتازا اخترمته المنية دون ذلك.

وفاة السلطان أبي العباس بن أبي سالم رحمه الله

كانت وفاة السلطان أبي العباس بمحل مقامه من تازا وهو يشارف أحوال ابنه أبي فارس ووزيره صالح بن حمو اليباني وكان قد قدمهما لفتح تلمسان والبلاد الشرقية فأصابه حماهم هنالك ليلة الخميس السابع من محرم فاتح سنة ست وتسعين وسبعمائة وحمل إلى فاس فدفن بالقلعة وسنه يومئذ تسع وثلاثون سنة فكانت دولته الثانية ست سنين وأربعة أشهر، ومن وزرائه في هذه الدولة: صالح بن حمو اليباني ومحمد بن يوسف بن علال الصنهاجي، ومن حجابيه: أبو العباس أحمد بن علي القبائلي، ومن كتابه: الشريف أبو القاسم محمد بن عبد الله الحسني السبتي، والقائد محمد بن موسى بن محمود الكردي، ويحيى بن الحسن بن أبي دلامة التسولي، ومن قضاته: القاضي أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم اليزناسني: قال في «الجدوة»: وكان السلطان أبو العباس شاعراً مفلحاً بديع التشبيه فمن نظمه قوله:

«أما الهوى يا صاحبي فآلقته وعهدته من عهد أيام الصبا
ورأيت قوت النفوس وحليها فتخذته ديناً إليّ ومذهباً
ولبست دون الناس منه حلة كان الوفاء لها طرازاً مذهباً
لكن رأيت له الفراق منغصاً لا بفراقنا لا مرحباً»

ومن أخبار السلطان أبي العباس ما حكاه في «نفح الطيب»: «أن الأديب الكاتب أبا الحسن علي ابن الوزير لسان الدين ابن الخطيب كان مصاحباً للسلطان أبي العباس هذا، فحضر معه ذات يوم في بستان سح فيه ماء المذاكرة الهتان وقد أبدى الأصيل شواهد الاصفرار وأزمع النهار لما قدم الليل على الفرار فقال السلطان أبو العباس لما لان جانبه وسألت بين سرحات البستان جداوله ومذانيه:

يا فاس أني وأيم الله ذو شغف بكل ربيع به مغناه يسبيني
وقد أنست بقربك منك يا أملي ونظرة فيكم بالأنس تحييني

فأجابه أبو الحسن ابن الخطيب بقوله المصيب :

لا أوحش الله ريعاً أنت زائرہ يا بهجة الملك والدنيا مع الدين
يا أحمد الحمد أبقاك الإله لنا فخر الملوك وسلطان السلاطين
ومن أخباره أيضاً: أن كاتبه أبا زكرياء يحيى بن أحمد بن عبد المنان
دخل عليه عشاء فقال له: «أنعم الله صباح مولانا» فأنكر السلطان ذلك وظن
أنه ثمل ففطن أبو زكرياء لما صدر منه وتدارك ذلك فأنشد مرتجلاً⁽¹⁾:

صبحته عند المساء فقال لي ماذا الكلام وظن ذاك مزاحاً
فأجبتة إشراق وجهك غرني حتى توهمت المساء صباحاً

الخبر عن دولة السلطان المستنصر بالله أبي فارس عبد العزيز ابن أبي العباس بن أبي سالم رحمه الله

من الاتفاق الغريب: أن سلطان فاس والمغرب في هذا التاريخ كان اسمه
عبد العزيز بن أحمد، وسلطان تونس وإفريقية كان اسمه أيضاً عبد العزيز بن
أحمد، وكانت ولايتهما في سنة واحدة إلا أن مدة الحفصي طالت جداً.
أم هذا السلطان: أم ولد اسمها جوهر، صفته: شاب السن ربعة من
القوم أدعج العينين جميل الوجه.

لما توفي السلطان أبو العباس بن أبي سالم رحمه الله بتازا كان ابنه أبو
فارس هذا بتلمسان فاستدعاه رجال الدولة منها فقدم عليهم بتازا وبايعوه بها
يوم السبت التاسع من محرم سنة ست وتسعين وسبعمائة، ولما تم أمره
أطلق أبا زيان بن أبي حمو الزياني وكان معتقلاً عنده بفاس لالتجائه إلى أبيه
من قبل في خبر ليس تفصيله من غرضنا، وبعثه إلى تلمسان أميراً عليها من
قبله، فسار إليها أبو زيان وملكها وأقام فيها دعوة السلطان أبي فارس، ثم

(1) إنما تمثل بهما.

خرج عليه أخوه يوسف بن أبي حمو واتصل بأحياء بني عامر بن زغبة وعزم على الإجلاب عليه بهم فسرب أبو زيان فيهم الأموال فقتلوه وبعثوا إليه برأسه فسكنت أحوال تلمسان وذهبت الفتنة بذهاب يوسف واستقامت أمور دولة السلطان أبي فارس قاله ابن خلدون، وهو آخر ما ورخه عن دولة المغرب.

واعلم أن ما نسوقه بعد هذا من الأخبار عن هذه الدولة المرينية لم يسمح لنا الوقت بالوقوف عليه في تأليف يخصها أو موضوع يقص أخبارها نسقاً وينصها، وإنما تتبعنا ما أثبتناه من ذلك في مواضع ذكرت فيها بحسب التبع لا بالقصد الأول وعلى الله تعالى في الهداية إلى الصواب المعول.

بقية أخبار السلطان عبد العزيز ووفاته

قالوا: كان السلطان عبد العزيز بن أبي العباس رحمه الله كثير الشفقة رقيق القلب منقبضاً عن الغدر متوقفاً في سفك الدماء وكان فارساً عارفاً بركض الخيل ويحسن قرص الشعر ويحب سماعه فمن نظمته، وقد نزل المطر، يشكر الله تعالى عليه، قوله:

الله يلطف بالعباد فواجب أن يشكروا في كل حال نعمته
فهو الذي فيهم ينزل غيثه من بعد ما قنطوا وينشر رحمته

توفي رحمه الله يوم السبت ثامن صفر سنة تسع وتسعين وسبعمائة ودفن مع أبيه بالقلعة فكانت دولته ثلاث سنين وشهراً ومن وزرائه: صالح بن حمو الياباني ويحيى بن علال بن أمصمود الهسكوري ومن كتابه: يحيى بن الحسن ابن أبي دلالة ومن قضاته: عبد الحليم بن أبي إسحاق اليزناسني رحمهم الله تعالى بمتته.

الخبر عن دولة السلطان المستنصر بالله أبي عامر عبد الله ابن أبي العباس بن أبي سالم رحمه الله تعالى

هذا السلطان شقيق الذي قبله، أمه: الجواهر المتقدمة. صفته: أدعج العينين حسن الأنف لامي العذار. بويح بعد أخيه عبد العزيز يوم السبت الثامن من صفر سنة تسع وتسعين وسبعمائة، وكان التصرف والنقض والإبرام في هذه المدة كلها للوزراء وتوفي السلطان المذكور بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء الموفي ثلاثين من جمادى الآخرة سنة ثمانمائة، فكانت دولته سنة وخمسة أشهر سوى أيام، ومن وزرائه: صالح بن حمو ويحيى بن علال، ومن قضاته: عبد الرحيم اليزناسني، ومن حجابه: أبو العباس أحمد بن علي القبائلي وفارح بن مهدي العلج والله تعالى أعلم.

وأما أخبار الغني بالله ابن الأحمر بالأندلس فإنه كان أسقط رئاسة الجهاد من بني مرين بها ومحا رسمها من مملكته أيام أجاز عبد الرحمن بن أبي يفلوسن للتشغيب على أبي بكر بن غازي بن الكاس حسبما تقدم. وصار أمر الغزاة والمجاهدين إليه وبأشأ أحوالهم بنفسه واستمر الحال على ذلك إلى أن هلك سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة، فولي مكانه ابنه أبو الحجاج يوسف وبايعه الناس وقام بأمره خالد مولى أبيه وتقبض على إخوته: سعد ومحمد ونصر فكان آخر العهد بهم ولم يوقف لهم بعد على خبر، ثم سعى عنده في خالد القائم بدولته وأنه أعد السم لقتله وأن يحيى بن الصائغ اليهودي طبيب دارهم قد داخله في ذلك ففتك بخالد وتناوشته السيوف بين يديه لسنة أو نحوها من ملكه، ثم حبس الطبيب المذكور فذبح في محبسه، ثم هلك سنة أربع وتسعين وسبعمائة لستين أو نحوها من ولايته.

وقد وقفت لبعض الإصينوليين، واسمه: منويل باولو القشتيلي، على كتاب موضوع في أخبار المغرب الأقصى فنقلت منه بعض أخبار لم أجد لها إلا عنده وهو وإن كان ينقل الغث والسمين والرخيص والثمين إلا أن الناقد

البصير يميز حصباءه من دره ويفرق بين حشفه وثمره، فمن ذلك أنه حكى عن السلطان أبي الحجاج المذكور ما صورته قال: «كانت مراسلات السلطان المريني، يعني السلطان أبا العباس مع السلطان يوسف بن الغني بالله صاحب غرناطة حسنة في الظاهر تدل على الموافقة والمحبة وكان المريني في الباطن يحب الاستيلاء على مملكة غرناطة ولما لم يمكنه ذلك بالسيف عدل إلى أعمال الحيلة فأهدى إلى السلطان أبي الحجاج كسي رفيعة أحدها مسمومة فلبسها فهلك لحينه ومع ذلك فلم يدرك المريني غرضه فإنه لم يلبث إلا يسيراً حتى توفي أيضاً اهـ. ولما توفي أبو الحجاج بويح ابنه محمد بن يوسف وقام بأمره القائد أبو عبد الله محمد الخصاصي من صنائع أبيه، قال ابن خلدون: «والحال على ذلك لهذا العهد» ولنذكر ما كان في هذه المدة من الأحداث:

ففي سنة خمسين وسبعمئة كان الوباء الذي عم المسكونة شرقاً وغرباً على ما نبهنا عليه فيما مضى.

وفي سنة خمس وستين وسبعمئة توفي الولي الزاهد أبو العباس أحمد ابن عمر بن محمد بن عاشر الأندلسي نزيل سلا العارف المشهور. قال أبو عبد الله بن سعد التلمساني في كتابه: «النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب»: كان ابن عاشر أحد الأولياء الأبدال معدوداً في كبار العلماء مشهوراً بإجابة الدعاء معروفاً بالكرامات مقدماً في صدور الزهاد منقطعاً عن الدنيا وأهلها ولو كانوا من صالح العباد ملازماً للقبور في الخلاء المتصل ببحر مدينة سلا منفرداً عن الخلق لا يفكر في أمر الرزق، وله أخبار جلييلة وكرامات عجيبة مشهورة ممن جمع الله له العلم والعمل وألقى عليه القبول من الخلق شديد الهيبة عظيم الوقار كثير الخشية طويل التفكير والاعتبار، قصده أمير المؤمنين أبو عنان وارتحل إليه سنة سبع وخمسين وسبعمئة فوقف ببابه طويلاً فلم يأذن له وانصرف وقد امتلأ قلبه من حبه وإجلاله ثم عاود

الوقوف ببابه مراراً فما وصل إليه فبعث إليه بعض أولاده بكتاب كتبه إليه يستعطفه لزيارته ورؤيته فأجابه بما قطع رجاءه منه وأياسه من لقائه فاشتد حزنه وقال: «هذا ولي من أولياء الله تعالى حجه الله عنا» اهـ. ومناقب الشيخ ابن عاشر وكراماته كثيرة وقد ألف فيها أبو العباس بن عاشر الحافي من علماء سلا كتابه المسمى «بتحفة الزائر في مناقب الشيخ ابن عاشر» فانظره.

وفي سنة ست وسبعين وسبعمائة وهي السنة التي قتل فيها ابن الخطيب كان الجوع بالمغرب قال أبو العباس ابن الخطيب القسنطيني المعروف: بابن قنفذ في كتابه «أنس الفقير» ما حاصله: «أنه رجع من هجرته بالمغرب الأقصى في السنة المذكورة إلى بلده قسنطينة فاجتاز في طريقه بتلمسان» قال: وفي هذه السنة كانت المجاعة العظيمة وعم الخراب المغرب فأقامت بتلمسان نحو شهر أنتظر تيسر سلوك الطريق فالتجأت إلى قبر الشيخ أبي مدين ودعوت الله عنده فوق ما أملت وارتحلت بعد أيام يسيرة فرأيت في الطريق من الخير ما كان يتعجب منه من شاهده، وكان أمر الطريق في الخوف والجوع بحيث أن كل من تقدم عليه يتعجب من وصولنا سالمين، ثم عند ارتحالنا من عنده يتأسف علينا حتى أن منهم من يسمعننا ضرب الأكف خلفنا تحسراً علينا حتى انتهى سفرنا على وفق اختيارنا والحمد لله».

وفي سنة ثمان وسبعين وسبعمائة توفي الشيخ الفقيه المحدث أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عمران الفنزاري السلوي المعروف بابن المعجrad صاحب «لامية الجمل» و«شرح الدرر» وغيرهما من التأليف الحسان، قال صاحب «بلغة الأمانة ومقصد اليب فيمن كان بسبته في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب» في حق الشيخ المذكور: «كان محدثاً حافظاً راوية له معرفة بالرجال والمغازي والسير وكان رجلاً صاحباً حسن السيرة صادق اللهجة انتفع به الناس وظهرت بركته على كل من عرفه أو لازم مجلسه أو قرأ عليه من صغير أو كبير» قال: «وذلك عندنا معروف بسبته

مشهور بين أهلها وانتقل إلى بلده سلا وتوفي بها في السنة المذكورة» قلت: وقبره مشهور بها إلى الآن وعليه قبة صغيرة وهو من مزارات سلا خارج باب المعلقة منها عن يمين الخارج على نحو غلوة وأهل سلا يسمونه سيدي الإمام السلاوي رحمه الله ورضي عنه.

وفي سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة توفي الشيخ الإمام العارف المحقق الرباني أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النفزي المعروف بابن عباد شارح (الحكم العطائية) وأحد تلامذة الشيخ ابن عاشر المذكور آنفاً، قال صاحبه وأخوه في الله الشيخ أبو زكرياء السراج في حقه ما نصه: «كان حسن السميت طويل الصمت كثير الوقار والحياء جميل اللقاء حسن الخلق والخلق على الهمة متواضعاً معظماً عند الخاصة والعامة، نشأ ببلدة رندة على أكمل طهارة وعفاف وصيانة وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، ثم اشتغل بعد بطلب العلوم النحوية والأدبية والأصولية والفروعية حتى رأس فيها وحصل معانيها، ثم أخذ في طريق الصوفية والمباحثة عن الأسرار الإلهية حتى أشير إليه وتكلم في علوم الأحوال والمقامات والعلل والآفات وألف فيها تأليف عجيبة وتصانيف بديعة غريبة، وله أجوبة كبيرة في مسائل العلوم نحو مجلدين، ودرس كتباً وحفظها كلها أو جلها» إلى أن قال: «ولقي بسلا الشيخ الحاج الصالح السني الزاهد الورع أحمد بن عاشر وأقام معه ومع أصحابه سنين عديدة» قال رحمه الله: «قصدتهم لوجدان السلامة معهم»، وتوفي رحمه الله بفاس بعد صلاة العصر من يوم الجمعة ثالث رجب من السنة المذكورة وحضر جنازته السلطان أبو العباس بن أبي سالم فمن دونه وهمت العامة بكسر نعشه تبركاً به رحمه الله ورضي عنه.

ومن فوائده التي نقلها عن شيخه ابن عامر ما ذكره في رسائله قال: «كنت قد ما خرجت في يوم مولد النبي ﷺ صائماً إلى ساحل البحر فوجدت هنالك سيدي الحاج أحمد بن عاشر رحمه الله ورضي عنه وجماعة من

أصحابه ومعهم طعام يأكلونه فأرادوا مني الأكل فقلت: إني صائم فنظر إلي سيدي الحاج نظرة منكرة وقال لي: «هذا يوم فرح وسرور يستقبح في مثله الصوم كالعيد» فتأملت قوله فوجدته حقاً وكأنه أيقظني من النوم» اهـ.

واعلم أنه في آخر هذا القرن الثامن تبدلت أحوال المغرب بل وأحوال المشرق ونسخ الكثير من عوائد الناس ومألوفاتهم وأزيائهم. قال ابن خلدون في مقدمة تاريخه بعد أن ذكر أن الأحوال العامة للأفانق والأجيال والأعصار هي أس المؤرخ الذي تنبني عليه أكثر مقاصده ما نصه: «وأما لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت بالجملة، واعتاض من أجيال البربر أهله على القدم بمن طراً فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب بما كثروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان، وشاركوهم فيما بقي من البلدان بملكتهم وبأسهم، هذا إلى ما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحايها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وفل من حدها وأوهن من سلطانتها وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها، وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخموم والانقباض فبادر بالإجابة والله وارث الأرض ومن عليها، وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث» إلى آخر كلامه رحمه الله، فافهم هذه الجملة وتفطن لأحوال الدول التي سردنا أخبارها فيما مضى وأحوال التي نسرد أخبارها فيما بعد وتأمل الفرق بين ذلك والسبب فيه والله تعالى الموفق للصواب بمتة.

الخبر عن دولة السلطان أبي سعيد

عثمان بن أبي العباس ابن أبي سالم

هذا السلطان هو ثالث الإخوة الأشقاء من بني أبي العباس الذين ولوا الأمر من بعده ولاء. أمه: الجواهر أم أخويه قبله. بويغ بعد صلاة العصر له من يوم الثلاثاء الموفي ثلاثين من جمادى الآخرة سنة ثمانمائة وسنه يومئذ ست عشرة سنة وكان النقض والإبرام وسائر التصرفات في دولته للوزراء والحجاب والسلطان متفرغ لاستيفاء لذاته، ومن أكبر حجابه: أبو العباس القبائلي الذي نذكر خبره الآن.

حجابه أبي العباس القبائلي ونكبته

ومقتله والسبب في ذلك^(١)

بيت بني القبائلي بيت مشهور في الوزارة والحجابه والكتابة من لدن الدولة الموحدية بمراكش إلى هذا التاريخ، وكان الرئيس الفقيه أبو العباس أحمد بن علي القبائلي كاتباً مشهوراً وحاجباً مذكوراً وكان قد بذ الأقربان وتصدر على الأعيان وبلغ من الجاه ونفوذ الكلمة مبلغاً عظيماً، وكان يحابي بالخطط السلطانية الأقارب والأرحام لا يعدل بها عمن سواهم فاضطغت عليه القلوب وكثرت فيه السعائيات إلى أن نفذ أمر الله فأوقع به السلطان أبو سعيد وقعة شنعاء كان من خبرها: أنه كان للحاجب المذكور ولد اسمه عبد الرحمن وكان من فضلاء وقته، وكان لعبد الرحمن هذا ولد اسمه علي وكان من نجباء الأبناء فكان لجده أبي العباس لذلك ميل إليه ومحبة وافتتان به، فاتفق أن مرض هذا الحافد ذات يوم فنزل جده أبو العباس من الحضرة بفاس الجديد لعيادته بدار ولده عبد الرحمن من عدوة القرويين من فاس القديم

(١) انظر ترجمة القبائلي هذا في «الضوء اللامع» للسخاوي ولا بد، فقد أفاد ج ١ صفحة

وكانت الدار بزينة الجيلة من الطالعة فبات الشيخ عند حافده تلك الليلة، وكان منذ ولي خطة الحجابة لم يغب عن دار الملك ليلة واحدة بل كان يأخذ في ذلك بالحزم بحيث يسد أبواب الحضرة ويفتحها ويباشر سائر الأمور السلطانية بنفسه، فلما أراد الله إنفاذ قدره غطى على عقله وبصره فتساهل في تلك الليلة وبعث ولده أبا القاسم ليقوم مقامه في غلق الأبواب وفتحها مع صاحب السقيف ومساهمه في القيام بالأمور السلطانية أبي محمد عبد الله الطريفي الآتي ذكره فغلقا الأبواب على العادة، ولما كان الصباح من الغد تقدم الولد أبو القاسم لأخذ المفاتيح من دار الخلافة فأخرجت إليه وتولى فتح الأبواب وحده دون أن يحضر الطريفي المشارك له في ولاية السقيف، فلما جاء أبو محمد المذكور ورأى الأبواب مفتحة بدون حضوره أخذه من ذلك ما قدم وما حدث وأسرها في نفسه حتى إذا كان المساء وحضر الوقت المعهود لغلق الأبواب طلع للحضرة ولد آخر من ولد الحاجب القبائلي يعرف بأبي سعيد فبادر أبو محمد فسد الأبواب في وجهه قبل أن يصل إليه وأمسك المفاتيح عنده واستبد بها فطلب منه أبو سعيد أن يفتح له الباب فتجهمه وامتنع وكأنه أمر دبر بليل، ثم تقدم القائد أبو محمد المذكور إلى السلطان أبي سعيد فأعلمه بما اتفق له مع أولاد الحاجب فأوعز إليه السلطان أن لا يفتح الباب بعد غلقه إلا وقت فتحه المعتاد وزاد في الوصية بأن لا يفتح ولا يغلق إلا بمحضر السعيد ابن السلطان أبي عامر رحمه الله. ولما رجع أبو سعيد إلى والده بعدوة القرويين من فاس أعلمه بما اتفق له مع القائد الطريفي فامتلاً غيظاً وقامت قيامته وكانت فيه دالة على السلطان فتخلف عن الحضور ولم يذكر ما قالته الحكماء: (إذا عاديته من يملك فلا تلمه إنه يهلكك)، ثم استعطفه السلطان فأبى أن يعطف ثم بعث إليه ببراءة بخطه ليزيل ما ب صدره من الموجدة فكتب الحاجب جوابها، وأقسم أن لا يطأ بساطاً فيه فارح بن مهدي العليج وكان فارح هذا بعين التجلة من السلطان فلما وقف السلطان أبو سعيد على جواب الحاجب حمى أنفه وأظلمت الدنيا في عينيه وأمر بالإيقاع بالحاجب في الحين فذبح هو وولده عبد الرحمن يوم الخميس الموفي ثلاثين

من شوال سنة اثنتين وثمانمائة، وكان عبد الرحمن هذا فاضلاً شاعراً فمن شعره في الغزل قوله:

أتسمع في الهوى قول اللواحي	وقد أبصرت خشف بني رياح
غزال خلف الصب المعني	من الوجد المبرح غير صاح
وقد قتلت ولا إثم عليها	مراض جفونه كل الصحاح
يقول ولحظه بالعقل يزري	علام تطيل وصفي وامتداحي
فقلت فنون سحر فيك راقت	قضت للقلب بالعشق الصراح
جبينك والمقلد والثنايا	صباح في صباح في صباح

وبقي الحافد أبو الحسن علي بن عبد الرحمن المذكور مرتباً في جملة الكتاب وكان فاضلاً شاعراً أيضاً ولما مرض السلطان أبو سعيد في شعبان سنة سبع وثمانمائة وصح من مرضه وهنأته الشعراء بقصائد كثيرة فكان من جملتهم أبو الحسن المذكور فقال:

هنيئاً لنا ولكل الأنام	براحة فخر الملوك الهمام
إمام أقام رسوم العلا	وحل من المجد أعلى السنام
به قرت العين لما بدا	صحيحاً وما إن به من سقام
وهل هو إلا كبدر الدجا	يواري قليلاً وراء الغمام
ويظهر طوراً فيجلو به	عن الناس يا صاح ساجي الظلام
أو الليث يعكف في غيله	فتحذر منه السباع اهتجام
أمولاي عثمان بحر الندى	ومردي العداة ونجل الكرام
لقد رفع الله مقداركم	فنفسي الفداء لكم من إمام
أمولاي عبدك قد ضره	أقول رضاكم وبعد المرام
وأضحى كئيباً لإبعادكم	مشوقاً لتقبيل ذاك المقام
فكن راحماً يا إمام الورى	عطوفاً بمملوكك المستهام
لعل الذي ناله ينقضي	وتشمل منك هبات جسام
فأيدك الله بالنصر ما	ترنم فوق الغصون حمام

حجابه فارح بن مهدي وأوليته وسيرته

قال ابن خلدون: «يا فارح بن مهدي من معلوجي السلطان يعني أبا العباس وأصله من موالي بني زيان ملوك تلمسان» اهـ. وقال في «الجدوة»: «هو من موالي السلطان أبي سعيد بن أبي العباس». ولا منافاة بين الكلامين والله أعلم. ولما قتل أبو العباس القبائلي ولي الحجابة من بعده فارح بن مهدي هذا. قال في «الجدوة»: ولم يكن من أهل العلم لكنه كان شيخاً مجرباً للأمور عارفاً مجيداً في التدبير قد أعطى الرياسة حقها والخطط مستحقها وكان ممسكاً عنانه فلا يميل مع نفسه ولا يسحب أردانه ولا يوحش سلطانه موسوماً عند الخلافة بالأمانة ملحوظاً لديها بعين المروة والصيانة. وكان السلطان أبو سعيد يعتني به لأجل كبر سنه وتربيته الحرة: آمنة بنت السلطان أبي العباس^(١) كانت تبدي له وجهها في حالي صغرها وكبرها فكانت له بذلك مزية لم تكن لغيره. بهذا ذكره التاورتي ولعل فيه تعريضاً بالحاجب قبله. ولما تكلم أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في كتابه: «مرآة المحاسن» على مدينة تيجساس وصفها بقوله: «إنها في شرقي تطاوين على مسيرة يوم منها في موضع كثير الحجارة والصخر في سفح جبل من غربيها وتحتها من شمالها جرف كثير الصخر عظيمه على مكسر موج البحر ولها نهر نفاع يجلب إليها منه جدول ولها بسيط تركبه الجداول من كل جهة فتسقي الزرع والكتان والثمار فأهلها في أمن من القحط» إلى أن قال: «ولم تزل عامرة إلى حدود ثمانمائة فجلا عنها أهلها بسبب جور فارح بن مهدي الوالي عليها من قبل بني مرين فخلت من سكانها وانتقلوا إلى القبائل وغيرها ولم يزل سورها ماثلاً إلى الآن» اهـ. قلت: وفي هذه المدة خربت تطاوين القديمة أيضاً فزعم منويل في تاريخه: أن قراصين المسلمين من أهل تطاوين وغيرهم

(١) آمنة المرينية التي ينسب إليها البستان (للمؤلف).

كانت تغير على سواحل أصبانيا وتغنم مراكبها ولما كانت سنة ألف وأربعمائة مسيحية الموافقة لسنة ثلاث وثمانمائة هجرية بعث الطاغية الريكي الثالث شكوادرة لغزو تطاوين ومراكبها فانتهدت إلى وادي مرتيل وأفسدت قراصين المسلمين التي به ثم نزلت عساكر الإصبيول للبر فاقتحمت مدينة تطاوين بعد أن جلا أهلها عنها وخربتها وعاثت فيها وبقيت خربة نحو تسعين سنة ثم جدد بناؤها على يد الرئيس أبي الحسن علي المنظري الغرناطي كما سيأتي . وكانت وفاة فارج بن مهدي في الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة ست وثمانمائة والله تعالى أعلم .

حجابه أبي محمد الطريفي وسيرته

لما توفي الحاجب فارج بن مهدي ولي الحجابة من بعده أبو محمد عبد الله الطريفي وكان من فضلاء الحجاب وهو الذي بنى مسجد السوق الكبير بفاس الجديد وحبس عليه كتباً كثيرة فكان ذلك من حسناته الباقية نفعه الله بقصده .

حدوث الفتنة بين السلطان أبي سعيد والسلطان

أبي فارس الحفصي والسبب في ذلك

لما توفي السلطان أبو العباس الحفصي صاحب تونس ولي الأمر من بعده ابنه أبو فارس المذكور فوزع الوظائف من الإمارة والوزارة وولاية الأعمال على إخوته فاعتضد بهم، وكان من جملتهم أخوه أبو بكر بن أبي العباس بقسنطينة فنازعه بها ابن عمه الأمير أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء الحفصي صاحب بونة وألح عليه في الحصار فصمد إليه السلطان أبو فارس الحفصي وأوقع به على سييوس وقعة شنعاء انتهت به هزيمتها إلى فاس مستصرخاً صاحبها، وهو يومئذ أبو فارس المريني، فأقام أبو عبد الله بفاس

إلى سنة عشر وثمانمائة في دولة السلطان أبي سعيد فاتفق أن فسد ما بين السلطان أبي فارس الحفصي وبين أعراب إفريقية من سليم فقدمت طائفة منهم حضرة فاس مستنجدين السلطان أبا سعيد على صاحبهم أبي فارس فألفوا عنده الأمير أبا عبد الله المنهزم بسيوس كما مر، فعقد له السلطان أبو سعيد على جيش من بني مرين وغيرهم وبعثه مع العرب فلما انتهى إلى بجاية تلقته أعراب إفريقية طائفة وهون عليه المرباط شيخ حكيم منها أمر تونس فرد الجيش المريني وقصدها بمن انضم إليه من الحشود فأخذ بجاية من أبي يحيى وفر في البحر، وعقد أبو عبد الله عليها لابنه المنصور ثم زحف إلى السلطان أبي فارس فخالفه إلى بجاية فافتكها من يد ابنه المنصور ووجه به مع جماعة من كبار أهلها معتقلين إلى الحضرة، وعقد عليها لأحمد ابن أخيه ونهض لقتال ابن عمه أبي عبد الله المذكور فنزع المرباط عنه إلى السلطان أبي فارس لعهد كان بينهما، فانفض جمع أبي عبد الله وقتل واحتز رأسه ووجهه السلطان أبو فارس مع من علقه بباب المحروق أحد أبواب فاس إغاية للسلطان أبي سعيد وذلك سنة اثنتي عشرة وثمانمائة. ثم تحرك السلطان أبو فارس إلى جهة المغرب قاصداً أخذ الثار من السلطان أبي سعيد فاستولى على تلمسان ثم قصد حضرة فاس فلما شارفها جنح السلطان أبو سعيد إلى السلم فوجه إليه بهدايا جلييلة فقبل ذلك أبو فارس وكافاً عليه وانكفاً راجعاً إلى حضرته، ولحقته في طريقه بيعة أهل فاس وانتظم له ملك المغرب وبايعه صاحب الأندلس أيضاً قاله صاحب «الخلاصة النقية» وهو الأديب أبو عبد الله محمد الباجي أحد كتاب الدولة التركية بتونس.

(1) كان زحف أبي فارس إلى المغرب سنة 827 كما عند الزركشي صفحة 110 وهلك أبو سعيد سنة 823 وعليه فإن السلطان المريني المأخوذ منه الثار هو أحد الملوك الذين تعاقبوا على مملكة المغرب قبل السلطان عبد الحق كما يعلم تحقيق ذلك في تأليفنا الموضوع في تاريخ المغرب فراجعته تستفد والله أعلم للمؤلف.

استيلاء البرتغال على مدينة سبتة أعادها الله

كان جنس البرتغال وهو البردقيز في هذه السنين قد كثر بعد القلة واعتز بعد الذلة وظهر بعد الخمول وانتعش بعد الذبول فانتشر في الأقطار وسما إلى تملك الأمصار فانتهى إلى أطراف السودان بل وأطراف الصين على ما قيل، وألح على سواحل المغرب الأقصى فاستولى في سنة ثمان عشرة وثمانمائة على مدينة سبتة أعادها الله بعد محاصرته لها حصاراً طويلاً، وسلطان المغرب يومئذ أبو سعيد بن أحمد صاحب الترجمة، وسلطان البرتغال يومئذ خوان الأول.

وذكر منويل في تاريخه: أن سلطان المغرب يومئذ عبد الله بن أحمد أخو أبي سعيد المذكور وسيأتي كلامه بتمامه.

وذكر صاحب «نشر المثنائي»: في كيفية استيلاء البرتغال على سبتة قصة تشبه قصة قصير مع الزباء قال: «رأيت بخط من يظن به الثبوت والصدق أن النصارى جاؤوا بصناديق مقفلة يوهمون أن بها سلعاً وأنزلوها بالمرسى كعادة المعاهدين وذلك صبيحة يوم الجمعة من بعض شهور سنة ثمان عشرة وثمانمائة وكانت تلك الصناديق مملوءة رجالاً عددهم أربعة آلاف من الشباب المقاتلة فخرجوا على حين غفلة من المسلمين واستولوا على البلد وجاء أهله إلى سلطان فاس مستصرخين له، وعليهم المسوح والشعر والوبر والنعال السود رجالاً ونساءً وولداناً فأنزلهم بملاح المسلمين ثم ردهم إلى الفحص قرب بلادهم لعجزه عن نصرتهم حتى تفرقوا في البلاد والأمر لله وحده» قال: «وسمعت من بعضهم أن الذي جرأ النصارى على ارتكاب تلك المكيده هو أنهم كانوا قد قاطعوا أمير سبتة على أن يفوض إليهم التصرف في المرسى والاستبداد بغلتها ويبدلوا له خراجاً معلوماً في كل سنة فكان حكم المرسى حينئذ لهم دون المسلمين ولو كان المسلمون هم الذين يلون حكم المرسى ما تركوهم ينزلون ذلك العدد من الصناديق مقفلة لا يعلمون ما فيها والله أعلم بحقيقة الأمر».

ولما استولى البرتغال على سبتة اعتنى بها وحصنها واستمرت في ملكتهم مدة تزيد على مائتين وخمسين سنة ثم ملكها منهم طاغية الإصبيول في سبيل مهادنة وشروط انعقدت بينهم بمدينة أشبونة في حدود الثمانين وألف، وأخبار السلطان أبي سعيد كثيرة، وقد أرخ دولته وسيرته الكاتب أبو إسحاق إبراهيم ابن أحمد التاورتي رحمه الله. وتوفي السلطان المذكور سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة، وولي الأمر من بعده ابنه عبد الحق الأخير، كذا ذكره في «جذوة الاقتباس». وقد ذكر منويل في أمر أبي سعيد ووفاته ما يخالف هذا، قال: «لما كانت دولة السلطان أبي سعيد المريني كان المسلمون أهل جبل طارق قد سئموا ملكة ابن الأحمر صاحب غرناطة وتحققوا بأن المريني أقوى منه شوكة وأقدر على تخليصهم مما عسى أن ينالهم به الإصبيول من حصار ونحوه، فبعثوه إليه يخطبون ولايته ويعرضون عليه الدخول في طاعته إن هو أمدهم بما يدفعون به في نحر ابن الأحمر فأعجب أبا سعيد ذلك وللحين بعث إليهم أخاه عبد الله بن أحمد المعروف بسيدي عبو ومعه طائفة من الجيش إمداداً لهم وكان قصد أبي سعيد بيعت أخيه عبد الله الحصول على إحدى الفائدتين: أما فتح جبل طارق إن كان الظهور له، أو الاستراحة منه إن كان عليه، لأنه كان يشوش عليه فجاء الأخ المذكور حتى نزل بإزاء جبل طارق ففتح أهل البلد الباب وأدخلوه وأدخلوا جنده، وتحصن قائد الغرناطي وعسكره بقلعة الجبل وطير الأعلام بذلك إلى صاحبه، فبعث إليه جيشاً قويت به نفسه فنزل من القلعة وانضم إليه مدده وقاتلوا جيش المريني فهزموه، وقبضوا على عبد الله باليد وعلى جماعة من أصحابه وبعثوا بهم أسرى إلى صاحب غرناطة، فعمد صاحب غرناطة إلى عبد الله وأنزله في محل معتبر وأحسن إليه، فتخلف ظن السلطان أبي سعيد فيما كان يحب لأخيه من التلف وغازله فعل ابن الأحمر معه من الإحسان والإبقاء عليه، ثم أن أبا سعيد دبر حيلة بأن بعث من قبله رجلاً إلى أخيه ليسقيه السم ويستريح

منه، مع أن غوغاء أهل المغرب وقبائله المنحرفة عن السلطان كانوا قد تشوقوا لقدمه عليهم وقيامهم معه، فبطلت حيلة أبي سعيد في السم ولم يحصل على طائل. ثم إن ابن الأحمر اتفق مع عبد الله على أن يمدّه بالعسكر والمال ويسرّحه إلى المغرب ليستولي على ملكه ويأخذ له بالثأر من أخيه، فقبل عبد الله ذلك وأمدّه ابن الأحمر وسرّحه إلى المغرب، فلما احتل به تبعه عدد وافر من قبائله الذين كانوا مستقلين لوطأة أبي سعيد، فنهض إليه أبو سعيد فكانت الكرة عليه ورجع مفلولاً في يسير من الجند إلى فاس فتقبض عليه أهلها وسجنوه وأعلنوا بنصر أخيه عبد الله، وفتحوا الباب فدخل الحضرة واستولى عليها وتم أمره، وسجن أخاه أبا سعيد إلى أن مات. قال: «ولما استقل عبد الله بأمر المغرب كله هدأت الرعية واستقامت الأحوال، إلا أنه تكدر عيشه بذهاب سبتة التي استولى عليها طاغية البرتغال خوان الأول بعد ما حاصرها أشد الحصار، وكان ذلك على السلطان من أعظم النحوس، وتكدر المسلمون غاية لفوات هذه المدينة العظيمة منهم. ثم ثاروا على السلطان عبد الله واعتورته رماحهم حتى فاظ، ولما قتل تنازع الملك بعده اثنان من إخوته، وبعد قتال شديد ولم ينتصف أحد منهما من صاحبه اتفق أهل الحل والعقد على أن يولوا عبد الحق بن أبي سعيد» اهـ كلام منويل. وهذا السلطان عبد الله الذي زاده منويل بين أبي سعيد وعبد الحق لم يذكره صاحب «جذوة الاقتباس» ويبعد أن يكون هذا الخبر الذي ساقه منويل لا أصل له والله أعلم بحقيقة الأمر.

ومن جملة حجاب السلطان أبي سعيد الرئيس أبو فارس عبد العزيز بن أحمد الملياني. قال في «الجذوة»: أصله من زرهون وتولى حجابة السلطان المذكور» قال: «فغدر مولاه ومخدومه، وهتك ستره، وخرب داره وعبث بحريمه، وقتل أولاده وإخوانه، ورفع الأذنان، وحط الرؤساء، وكان فساد المغرب على يده، وقد ذكره التاورتي فأثنى عليه. قال في «الجذوة»:

«ووجدت في طرة ذمه وتنقيصه» والله أعلم.

ومن وزراء السلطان أبي سعيد: صالح بن حمو الياباني، ويحيى بن علال بن أمصمود الهسكوري، وقد تقدم ذكرهما، ومن كتابه: الفقيه الأديب أبو زكرياء يحيى بن أبي الحسن بن أبي دلامة، وكان صاحب العلامة عند السلطان المذكور، وممن شهد له أهل عصره بالتبريز في النظم الفائق. ثم ابنه محمد من بعده، ومن قضااته: الفقيه أبو محمد عبد الرحيم بن إبراهيم اليزناسني وقد تقدم ذكره، والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة السلطان عبد الحق بن أبي سعيد ابن أبي العباس بن أبي سالم المريني رحمه الله

هذا السلطان هو آخر ملوك بني عبد الحق من بني مرين، وهو أطولهم مدة، وأعظمهم محنة وشدة، وهو أبو محمد عبد الحق بن أبي سعيد عثمان ابن أبي العباس أحمد بن أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن علي بن أبي سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الزناتي المريني، أمه علجة إصبيولية على ما ذكره منويل، وفي أيامه ضعف أمر بني مرين جداً وتداعى إلى الانحلال وكان التصرف للوزراء والحجاب شأن دولة أبيه من قبله على ما نذكره.

زحف البرتغال إلى طنجة ورجوعهم عنها بالخبيثة

قال منويل: «كان لطاغية البرتغال خمسة إخوة شجعان، فأرادوا أن يدركوا فخرأ باستيلائهم على ثغر من ثغور المغرب، يضيفونه إلى سبتة ويوسعون به ما ملكوه من أعمالها، فركبوا قراصينهم في ستة آلاف عسكري ونزلوا بسبتة. ثم زحفوا إلى طنجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة وحاصروها وضيقوا على أهلها ثم عاجلهم سلطان فاس وسلطان مراكش وأرهبهم عن

فتحها وأوقعوا بهم وقبضوا على كبير عسكرهم فرناندو وجماعة من أصحابه وعادوا بهم أسرى إلى فاس، فلما صارت عظماء البرتغال في يد المسلمين وأسروهم جنحوا إلى السلم فسالمهم المسلمون على أن يردوا لهم سبته ويسرحوا لهم كبيرهم وأصحابه الذين معه، فرضي البرتغال بذلك وانعقد الصلح عليه ثم كان من قدر الله أن هلك كبير البرتغال الذي وقع الشرط عليه في سجن فاس واستمرت سبته في يد العدو وعد ذلك من سوء بخت المسلمين والأمر لله وحده».

وقد ذكر صاحب «المرآة»: أن البرتغال استولى على طنجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة وهو غير صواب، وإنما كان الحصار فقط. والله تعالى أعلم.

أخبار الوزراء والحجاب وتصرفاتهم

كان من جملة وزراء السلطان عبد الحق الوزير صالح بن صالح بن حمو الياباني، قالوا: وهو الذي أوقع بالفقيه القاضي أبي محمد عبد الرحيم ابن إبراهيم اليزناسني قتله ذبحاً سنة أربع وثلاثين وثمانمائة. ومن وزراء السلطان المذكور الوزير أبو زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي. قالوا: وفي سنة ست وأربعين وثمانمائة غزا الوزير المذكور الشاوية، وكانوا قد تمردوا على الدولة وأعضل داؤهم فقل الوزير المذكور جمعهم وخرّب منازلهم ثم كانت وفاته سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة، قتله عرب أنكاد على سبيل الغدر قعصاً بالرماح وحمل قتيلاً إلى فاس فدفن بالقلة خارج باب الحيسة. وولي الوزارة بعده علي بن يوسف الوطاسي، قالوا: فكانت أيامه مواسم لديانته وصيانته وحفظه أمور الملك ورفقه بالرعية مع العدل وحسن الإدارة، ثم توفي بتامسنا خامس رمضان سنة ثلاث وستين وثمانمائة، وحمل إلى فاس فدفن بالقلة أيضاً. وفي هذه السنة أو التي قبلها استولى البرتغال على

قصر المجاز وهو المعروف بقصر مصمودة والقصر الصغير وهو الآن خراب. والله أعلم.

وزارة يحيى بن يحيى الوطاسي ومقتله ومقتل الوطاسيين معه والسبب في ذلك

لما توفي الوزير علي بن يوسف رحمه الله قدم للوزارة بعده أبو زكرياء يحيى بن يحيى بن عمر بن زيان الوطاسي، قالوا: فكانت ولاية هذا الوزير هي مبدأ الشر ومنشأ الفتنة، وذلك أنه لما استقل بالحجابة أخذ في تغيير مراسم الملك وعوائد الدولة، وزاد ونقص في الجند ونقص جل ما أبرمه قبله الوزراء، وعامل الرعية بالعسف ومن جملة ما نقم عليه أنه عزل قاضي فاس الفقيه أبا عبد الله محمد بن محمد بن عيسى بن علال المصمودي وقدم مكانه الفقيه يعقوب التسولي^(١): وكان المصمودي من الدين وتحري المعدلة بمكان، فلما رأى السلطان عبد الحق فعل الوزير واستحواذه على أمور الدولة وتبين له أن الوطاسيين قد التحقوا معه رداء الملك وشاركوه في بساط العز وكادوا يغلبونه على أمره سطا بهم سطوة استأصلت جمهورهم إلا من حماه الأجل منهم فتقبض على الوزير يحيى وعلى أخويه أبي بكر وأبي شامة وعلى عمهم فارس بن زيان وقريبهم محمد بن علي بن يوسف وأتى الذبح على جميعهم واستمر البحث عن محمد الشيخ ومحمد الحلو أخوي الوزير المذكور فلم يوجدا لذهاب الشيخ في ذلك اليوم للصيد واختفاء الحلو عند قيام الهيعة، فكان ذلك من لطف الله بهما، واتصل بهما ما جرى على عشيرتهم وبني أبيهم فذهبا إلى منجاتهما وكان من أمرهما ما نذكره. وكانت هذه الحادثة الصماء بعد مضي سبعين يوماً من وزارة يحيى بن يحيى

(١) راجع «درة الحجال» ج ١ ص ٢٢٠ فقد ذكر أن الذي قدم للقضاء بعده هو أبو عبد الله

محمد بن عبد الله المكناسي.

المذكور، وصفا للسلطان عبد الحق أمّره ورأى أن قد شفا نفسه من الوطاسيين ونقى بساط حضرته من قضضهم، وأبرأ جسم ملكه من مرضهم والله غالب على أمره.

رياسة اليهوديين هارون وشاويل وما نشأ عن استبدادهما من المحنة والفتنة

قالوا: كان السلطان عبد الحق منذ أوقع ببني وطاس لم تسمح نفسه بإعطاء منصب الوزارة لأحد ثم نما إليه أن العامة وكثيراً من الخاصة قد نعموا عليه إيقاعه بالوطاسيين، وأن أذنهم صاغية إلى محمد الشيخ صاحب آصيلا، وكان قد استولى عليها بعد فراره حسبما نذكر، وربما شافهه البعض منهم بذلك. فولى عليهم اليهوديين المذكورين تأدياً لهم وتشفياً منهم زعموا فشرع اليهوديان في أخذ أهل فاس بالضرب والمصادرة على الأموال، واعتز اليهود بالمدينة وتحكموا في الأشراف والفقهاء فمن دونهم، وكان اليهودي هارون قد ولى على شرطته رجلاً يقال له: الحسين لا يألو جهداً في العسف واستلاب الأموال، واستمر الحال على ذلك والناس في شدة.

وفي سنة سبع وستين وثمانمائة انتزع الإصبيول جبل طارق من يد ابن الأحمر.

استيلاء البرتغال على طنجة

ثم في سنة تسع وستين وثمانمائة استولى البرتغال على طنجة، زحفوا إليها من سبتة في ألوف من العساكر واستولوا عليها واستمرت بأيديهم أكثر من مائتين وخمس سنين ثم بذلوها لطاغية النجليز سنة أربع وسبعين وألف في سبيل المهادة والصهر الذي انعقد بينهما كما سيأتي.

مقتل السلطان عبد الحق بن أبي سعيد والسبب في ذلك

ثم إن اليهودي عمد إلى امرأة شريفة من أهل حومة البليدة فقبض عليها والبليدة: حومة بفاس. قالوا: وكانت بدار الكومي قرب درب جنيارة فأنحى عليها بالضرب، ولما ألهبها الشياط جعلت تتوسل برسول الله ﷺ فحمي اليهودي وكاد يتميز غيظاً من سماع ذكر الرسول، وأمره بالإبلاغ في عقابها، وسمع الناس ذلك فأعظموه، وتمشت رجالات فاس بعضهم إلى بعض، فاجتمعوا عند خطيب القرويين الفقيه أبي فارس عبد العزيز بن موسى الوريكلي وكانت له صلابة في الحق وجلادة عليه، بحيث يلقي نفسه في العظام ولا يبالي، وقالوا له: «ألا ترى إلى ما نحن فيه من الذلة والصغار وتحكم اليهود في المسلمين والعبث بهم حتى بلغ حالهم إلى ما سمعت» فنجع كلامهم فيه وللحين أغراهم بالفتك باليهود وخلع طاعة السلطان عبد الحق وبيعة الشريف أبي عبد الله الحفيد فأجابوه إلى ذلك واستدعوا الشريف المذكور فبايعوه، والتفت عليه خاصتهم وعامتهم، وتولى كبر ذلك أهل حومة القلقليين منهم، ثم تقدم الوريكلي بهم إلى فاس الجديد فصمدوا إلى حارة اليهود فقتلوهم واستلبوهم واصطلموا نعمتهم واقتسموا أموالهم، وكان السلطان عبد الحق يومئذ غائباً في حركة له ببعض النواحي. قال في «نشر المثاني»: «خرج السلطان عبد الحق بجيشه إلى جهة القبائل الهبطية وترك اليهودي يقبض من أهل فاس المغارم، فشدد عليهم حتى قبض على امرأة شريفة وأوجعها ضرباً» وحكى ما تقدم، فاتصل ببعده الحق الخبر وانفض مسرعاً إلى فاس واضطرب عليه أمر الجند، ففسدت نياتهم، وتنكرت وجوههم، وصار في كل منزلة تنفض عنه طائفة منهم، فأيقن عبد الحق بالنكبة وعاین أسباب المنيّة. ولما قرب من فاس استشار هارون اليهودي فيما نزل به فقال اليهودي له: «لا تقدم على فاس لغليان قدر الفتنة بها وإنما يكون قدومنا على مكناسة الزيتون لأنها بلدنا

وبها قوادنا وشيعتنا، وحينئذ يظهر لنا ما يكون» فما استتم اليهودي كلامه حتى انتظمه بالرمح رجل من بني مرين يقال له تيان، وعبد الحق ينظر، وقال: «وما زلنا في تحكم اليهود واتباع رأيهم والعمل بإشارتهم» ثم تعاورته الرماح من كل جانب وخر صريعاً لليدين والفم». ثم قالوا للسلطان عبد الحق: «تقدم أمامنا إلى فاس فليس لك اليوم اختيار في نفسك». فأسلم نفسه، وانتهبت محلته، وفيئت أمواله وحلت به الإهانة، وجاءوا به إلى أن بلغوا عين القوادس خارج فاس الجديد، فاتصل الخبر بأهل فاس وسلطانهم الحفيد فخرج إلى عبد الحق وأركبه على بغل بالبردة، وانتزع منه خاتم الملك وأدخله البلد في يوم مشهود حضره جمع كبير من أهل المغرب وأجمعوا على ذمه وشكروا الله على أخذه، ثم جنب إلى مصرعه فضربت عنقه صبيحة يوم الجمعة السابع والعشرين من رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة ودفن ببعض مساجد البلد الجديد، ثم أخرج بعد سنة ونقل إلى القلة فدفن بها وانقرضت بمهلكه دولة بني عبد الحق من المغرب والبقاء لله وحده⁽¹⁾.

ونقل الثقات أن الشيخ أبا العباس أحمد زروق رحمه الله كان قد ترك الصلاة خلف الفقيه أبي فارس الوريكلي لما صدر منه في حق السلطان عبد الحق، وكان يقول: «لا آمن الغندور على صلاتي يعييه بذلك، والغندور في لسان المغاربة ذو النخوة والإبابة وما أشبه ذلك، والله يتغمدنا والمسلمين برحمته آمين.

ولنذكر ما كان في هذه المدة من الأحداث فنقول:

في سنة سبع وثمانمائة توفي الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح المكودي عالم فاس وأديبها ونحوها صاحب المقصورة وشرح

(1) وكانت دولته منذ تاريخ وفاة والده أبي سعيد ستاً وأربعين سنة.

الخلاصة وغير ذلك من التأليف، قيل: هو آخر من درس كتاب سيبويه في النحو بفاس.

وفي سنة ثمان عشرة وثمانمائة توفي الشيخ أبو عبد الله محمد بن عمر ابن الفتوح التلمساني ثم المكناسي، يقال: إن سبب انتقاله من تلمسان أنه كان شاباً حسن الصورة، جميل الشارة، فمرت به امرأة جميلة فجعل ينظر إليها من طرف خفي فقال: «اتق الله يا ابن الفتوح يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور» فتأثر لقولها واتعظ وتاب إلى الله تعالى، وجعل من تمام توبته أن يهاجر من الأرض التي قارف الذنب فيها فارتحل إلى فاس فأقام بها مدة وانتفع الناس به، ثم انتقل بعدها إلى مكناسة فتوفي بها في السنة المذكورة. قالوا: وهو أول من أدخل مختصر الشيخ خليل مدينة فاس والمغرب.

وفي سنة ست وأربعين وثمانمائة كان الوباء العظيم بالمغرب، هلك فيه جمع من كبار العلماء والأعيان، ويسمى هذا الوباء عند أهل فاس بوباء عزونة.

وفي سنة تسع وأربعين وثمانمائة في ذي القعدة منها توفي الشيخ أبو محمد عبد الله العبدوسي مفتي فاس وعالمها الكبير ومحدثها الشهير وكان من أهل الصلاح والخير والإيثار.

وفي سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة في أواخر ذي القعدة منها توفي إمام الجماعة بفاس الشيخ أبو عبد الله محمد بن قاسم الأندلسي الأصل المعروف بالقوري ودفن بباب الحمراء منها.

وفي سنة تسع وتسعين وثمانمائة في أواخر صفر منها توفي الشيخ العارف بالله المحقق أبو العباس أحمد البرنسي الشهير بزروق وكانت وفاته بمسراته من أعمال طرابلس. والله أعلم.

بقية أخبار بني الأحمر واستيلاء العدو على غرناطة وسائر الأندلس منها وانقراض كلمة الإسلام منها

كانت دولة بني الأحمر في هذه المدة متماسكة . والفتنة بين أعياصها متشابكة ، والعدو فيما بين ذلك يخادعهم عما بأيديهم ويراوغهم ويسالهم تارة ويحاربهم إلى أن كانت دولة السلطان أبي الحسن عليّ ابن السلطان سعد ابن الأمير عليّ ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغني بالله ، فنازعه أخوه أبو عبد الله محمد بن سعد المدعو بالزغل ، قدم من بلاد النصارى وبويع بمالقة وبقي بها مدة ، وعظم الخطب واشتدت الفتن ، وشرق المسلمون بداء الخلاف . الواقع بين هذين الأخوين ، وتكالب العدو عليهم ووجد السبيل إلى تفريق كلمتهم والتمكن من فسخ عهدهم ودمتهم ، وذلك أعوام الثمانين وثمانمائة . ثم انقاد أبو عبد الله لأبي الحسن فسكنت أحوال الأندلس بعض الشيء ثم خرج عليه ولده أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن وأسره النصارى في بعض الوقعات فراجع الناس طاعة أبي الحسن ثم نزل لأخيه أبي عبد الله الزغل عن الأمر لآفة أصابته في بصره . ثم إن العدو عمد لأسيره أبي عبد الله ابن الحسن فوعده ومناه ، وأظهر له من أكاذيبه وخدعه غاية مناه ، وبعثه للتشغيب على عمه طلباً لتفريق كلمة المسلمين وعكس مرادهم وتوصلاً إلى ما بقي عليه من حصون المسلمين وبلادهم وطالت الفتنة بين العم وابن الأخ وكل عقد كان بين العدو وبينه انحل وانفسخ ، وخبت العامة الذين هم أتباع كل ناعق في ذلك ووضعت ، وكان ذلك من أعظم الأسباب المعينة للعدو على التمكن من أرض الأندلس والتهامها واستئصال كلمة الإسلام منها . ثم إن ابن الأخ استولى على غرناطة بعد خروج العم عنها إلى الجهاد ففت ذلك في عضده وعطف إلى وادي آش فاعتصم بها ، وحاصر العدو مالقة فقاتله أهلها بكل ما أمكنهم حتى إذا لم يجدوا للقتال مساعاً نزلوا على الأمان ، فاستولى العدو عليها أواخر شعبان سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة ، ثم استولى بعد ذلك على وادي آش وأعمالها صلحاً ودخل في طاعته صاحبها أبو عبد الله العم بعد

أن استهوى العدو قواده بالأموال الجزيلة، ثم إن العدو خذله الله وأرسل أبا عبد الله بن أبي الحسن صاحب غرناطة وعرض عليه الدخول في الخطة التي دخل فيها عمه من النزول له عن البلاد على أموال جزيلة يبذلها له ويكون تحت حكمه مخيراً في أي بلاد الأندلس شاء فشاور رعيته فاتفق الناس على الامتناع والقتال، فعند ذلك أرهف العدو حده. وجعل غرناطة وأهلها من شأنه بعد أن استولى أثناء هذه الفتن والتضريبات على حصون كثيرة لم نتعرض لذكرها، حتى لم يبق له إلا غرناطة وأعمالها، وقد اختصرنا معظم هذه الأخبار إذ لم تكن من موضوع الكتاب وإنما ألممنا بهذه النبذة تمييزاً للفائدة وزيادة في الإمتاع. ولما كان اليوم الثاني والعشرون من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وثمانمائة خرج العدو بمحلاته إلى مرج غرناطة وأفسد الزرع ودوخ الأرض، وهدم القرى وأمر ببناء موضع بالسور والحفير فأحكمه، وكان الناس يظنون أنه عازم على الانصراف، فإذا به قد صرف عزمه إلى الحصار والإقامة وصار يضيق على غرناطة كل يوم ودام القتال سبعة أشهر، واشتد الحصار بالمسلمين غير أن النصارى على بعد، والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق، والطعام يأتي من ناحية جبل شلير إلى أن تمكن فصل الشتاء وكلب البرد ونزل الثلج، فانسد باب المرافق، وانقطع الجالب وقل الطعام، واشتد الغلاء، وعظم البلاء واستولى العدو على أكثر الأماكن خارج البلد، ومنع المسلمين من الحرث والسبب وضاق الحال وبان الاختلال وعظم الخطب، وذلك أول سنة سبع وتسعين وثمانمائة. وطمع العدو في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب والقتال ففر ناس كثيرون من الجوع إلى البشرات، ثم اشتد الأمر في شهر صفر من السنة وقل الطعام وتفاقم الخطب، فاجتمع ناس مع من يشار إليه من أهل العلم كأبي عبد الله الموافق شارح «المختصر» وغيره وقالوا: «انظروا لأنفسكم وتكلموا مع سلطانكم» فأحضر السلطان أبو عبد الله بن أبي الحسن أهل دولته وأرباب مشورته وتكلموا في هذا الأمر وأن العدو يزداد مدده كل يوم ونحن لا مدد لنا وكنا نظن أنه يقلع عنا في فصل الشتاء فخاب الظن وبني وأسس وأقام وقرب

منا فانظروا لأنفسكم وأولادكم». فاتفق الرأي على ارتكاب أخف الضررين، وشاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الأجناد قبل ذلك في إسلام البلد خوفاً على نفوسهم وعلى الناس، ثم عددوا مطالب وشروطاً أثاروها وزادوا أشياء على ما كان في صلح وادي آش، منها: أن صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط إذا مكنوه من حمراء غرناطة والمعاقل والحصون ويحلف على عادة النصارى في العهود، وتكلم الناس في ذلك وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك امتن عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة فانقادوا إليها ووافقوا عليها وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة فقبلها منهم، ونزل سلطان غرناطة أبو عبد الله عن الحمراء ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وفي ثاني ربيع الأول من السنة، أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة، استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهناً خوف الغدر، وكانت الشروط سبعة وستين شرطاً، منها: تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعتهم وعقارهم، ومنها: إقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعته، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً، وأن لا يولي على المسلمين نصراني أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم، وأن يفتك جميع من أسر في غرناطة حيث كانوا وخصوصاً أعياناً نص عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكة ولا لغيره، والسلطان يدفع ثمنه لمالكة، ومن أراد الجواز إلى العدو لا يمنع ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء، وأن لا يؤخذ أحد بذنوب غيره، وأن لا يجبر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يعاتب

على من قتل نصرانياً أيام الحرب ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام
العداوة، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ولا يسفر لجهة من
الجهات ولا يزيدون على المغارم المعتادة، وترفع عنهم جميع المظالم
والمغارم المحدثه، ولا يطلع نصراني للصور ولا يتطلع على دور المسلمين،
ولا يدخل مسجداً من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في
نفسه وماله، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن، ولا يمنع
مؤذن ولا صائم ولا مصل ولا غيره من أمور دينه ومن ضحك منهم يعاقب،
ويتركون من المغارم سنين معلومة. وأن يوافق على كل الشروط صاحب
رومة ويضع خط يده وأمثال هذا مما تركنا ذكره.

وبعد انبرام ذلك ودخول النصارى للحمراء والمدينة جعلوا قائداً
بالحمراء وحكاماً ومقدمين بالبلد، ولما علم بذلك أهل البشرات دخلوا في
هذا الصلح وشملهم حكمه على هذا الوجه، ثم أمر العدو ببناء ما يحتاج إليه
في الحمراء وتحصينها وتجديد بناء قصورها وإصلاح سورها، وصار الطاغية
يختلف إلى الحمراء نهراً ويبيت بمحلته ليلاً إلى أن اطمأن من خوف الغدر
فدخل المدينة وتطوف بها وأحاط خبراً بما يرومه منها، ثم أمر سلطان
المسلمين أن ينتقل لسكنى البشرات وأنها تكون له في سكناء بأندرش،
فانصرف إليها وأخرج الأجناد منها، ثم احتال عدو الله في نفيه لبر العدو
وأظهر أن السلطان المذكور طلب منه ذلك ثم كتب لصاحب المرية أنه ساعة
وصول كتابي هذا لا سبيل لأحد أن يمنع مولاي أبا عبد الله من السفر حيث
أراد من بر العدو، ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه وليقف معه وفاء بما
عهد له، فانصرف السلطان أبو عبد الله في الحين بنص هذا الكتاب وركب
البحر فنزل بمليلة واستوطن فاساً وكان قبل ذلك قد طلب الجواز لناحية
مراكش فلم يسعف بذلك، وحين جوازه لبر العدو لقي شدة وغلاء وبلاء.
ثم إن النصارى نكثوا العهد، ونقضوا الشروط عروة عروة إلى أن آل الحال
لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة بعد أمور وأسباب أعظمها
عليهم أنهم قالوا: إن القسيسين كتبوا على جميع من أسلم من النصارى أن

يرجع مهرعاً لدينه، ففعلوا ذلك وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة. ثم تعدوا ذلك إلى أمر آخر وهو أن يقولوا للرجل المسلم إن جدك كان نصرانياً فأسلم فترجع أنت نصرانياً. ولما تفاحش هذا الأمر قال أهل البيازين على الحكام فقتلوهم وهذا كان السبب الأعظم في التنصر، قالوا: لأن الحكم خرج من عند السلطان أن من قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا أن يتنصر فينجو من الموت وبالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة، وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبياً إلا ما كان من جبل بللنقة فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر.

ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلي فشدد النصارى في البحث عنهم حتى إنهم أحرقوا كثيراً منهم بسبب ذلك ومنعواهم من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد، وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً فلم يقيض الله تعالى لهم ناصراً إلى أن كان إخراج النصارى إياهم جملة أعوام سبعة عشر وألف بعد أن ساكنوهم بغرناطة وأعمالها نحواً من مائة وعشرين سنة كانوا فيها تحت ذمة النصارى كما رأيت والأمر لله وحده. ولما أجلاهم العدو عن جزيرة الأندلس خرجت ألوف منهم بفاس وألوف آخر بتلمسان ووهران وخرج جمهورهم بتونس فتسلط عليهم في الطرقات الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى من الأوباش ونهبوا أموالهم وهذا ببلاد تلمسان وفاس ونجا القليل من هذه المضرة. وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم وكذلك بتطاوين وسلا ويبيجة الجزائر ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى، وهو المنصور السعدي، منهم عسكرياً جراراً وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور، وحصنوا قلعة سلا. وهي رباط الفتح، وبنوا بها القصور والحمامات والدور.

قال أبو العباس المقرئ في «نفح الطيب»: وهم الآن - يعني في حدود الثلاثين وألف - بهذا الحال، ووصل جماعة منهم إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام وانقضى أمر الأندلس وعادت نصرانية كما كانت أول مرة، «والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين».

وفي السنة التي استولى الإصبيول على غرناطة انكشفت لهم أرض ماركان التي كانت مجهولة قبل هذا التاريخ لسائر الأمم. وذلك أن الحكماء الأقدمين من اليونان وغيرهم أجمعوا على أن شكل الأرض كرة وأن الماء قد غمر أحد جانبيها كله بحيث صارت الأرض فيه كأنها بيضة مغرقة في طست ماء قد رسب فيه أكثرها وبرز أقلها، وأجمعوا على أن هذا البارز منها هو المسكون ببني آدم وغيرهم من الحيوانات وهو المقسم إلى سبعة أقسام تسمى الأقاليم ولم يهتدوا إلى أن الجانب الآخر منكشف عنه الماء ولا أنه مسكون كهذا الجانب بل جزموا بأنه ماء صرف يسمى البحر المحيط، واستمر هذا الاعتقاد عندهم ونقله الخلف عن السلف ووضعوا فيه التآليف العديدة إلى أن كانت سنة سبع وتسعين وثمانمائة وهي السنة التي استولى فيها الإصبيول على غرناطة وسائر الأندلس، فاتفق أن ظهر في تلك المدة رجل من فرنج جنوة اسمه كلنب بضم الكاف واللام كانت حرفته الملاحة والسفر في البحر وكان بعيد الهممة، مولعاً بالشهرة مغرماً بالذكر وحسن الصيت، فخطر بباله أن جانب الأرض الذي أغفل الحكماء الأولون ذكره وزعموا أنه بحر صرف ربما يكون مسكوناً كهذا الجانب.

وكان جنس البرتغال في هذه المدة قد كثرت أسفارهم في البحر وملكوا عدة محال من جزائره الخالدات، فحصل لكلنب الجنويزي بعض غيرة ونفاسة منهم وأراد أن يأتي بأعظم مما فعلوا فعزم على التلجج في البحر المحيط والإبعاد فيه عسى أن يظفر بمراده، فتطارح على ملك البرتغال واسمه يومئذ يوحنا الثاني في أن يعينه على ما هو بصده ويمده بما يكون سبباً في نيل مقصده، فلم يلتفت إلى قوله ولا عرج على رأيه ومن قبل ما كان أهل

جنوة يحمقونه وينسبونه إلى التهور بمثل هذه الآراء، فلما لم يجد عند ملك البرتغال مراده تطارح على ملكة الإصبيول، وهي يومئذ إيسابيل الشهيرة الذكر عندهم، فأسعفته وهيأت له ثلاث سفائن وشحنتها بالرجال والسلاح والزاد والمال ودفعت ذلك إليه، فسافر بها كلب في البحر المحيط على سمت المغرب حتى أرسى ببعض الجزائر الخالدات فأراح بها أياماً ثم سافر على السميت المذكور ملججاً مدة من شهرين، ولما طال السفر على أصحابه الذين معه أرادوا قتله، وبينما هم في ذلك ظهرت له أرض ماركان فسار حتى أرسى بأجفانه على ساحلها في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة سنة سبع وتسعين وثمانمائة المذكورة، فعثر منها على أرض واسعة ذات أقطار ونواحي وجبال وأتھار تفوت الحصر، حتى قيل: إنها تساوي نصف هذا المسكون من الأرض أو تزيد، وإذا فيها خلق كثير من بني آدم كهذه إلا أنهم لم يفقهوا قوله ولا فقه قولهم. فعاد كلب إلى ملكة الإصبيول بعد أن بنى هنالك حصناً وترك به بعض الجند وساق من تلك الأرض بعض الغرائب من حيوان وغيره، إثباتاً لمدعاه فلما قدم على الملكة بعد مغيبه سبعة أشهر وأحد عشر يوماً أعظمت قدره، ونوھت باسمه، وسرت بما أتى به من ذلك كله، وعدت ذلك من سعادتها إلى ما تسنى لها من الظفر بجزيرة الأندلس والاستيلاء عليها، وتبين للفرننج حينئذ أن الأرض معمورة من كلا الجانبين لا من جانب واحد كما اعتقده الأقدمون، فحينئذ تسارعت أجناسهم إلى أرض ماركان واقتسموها واعتنوا بعمرانها وسموها: الدنيا الجديدة، فكانت من أعظم الأسباب في انتعاشهم وتقويتهم وضخامة دولهم واتساع خطط ممالكهم، والأمور كلها بيد الله.

ومن جملة ما كان مفقوداً بأرض ماركان نوع الخيل وكذا غيرها من الحيوانات الأهلية. ولما رأوا الأدمي راكباً على الفرس مسرجاً ظنوه قطعة واحدة وأن الفارس وفرسه حيوان واحد خلق على تلك الكيفية إلى غير ذلك وأخبار أرض ماركان وكيفية العثور عليها ثم التردد إليها واعتمارها بعد ذلك طويلة وملخصها ما ذكرناه، والله تعالى الموفق بمثته.

وهذا آخر النصف الأول من كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، قد شرعنا في إملائه منتصف رجب الفرد الحرام من سنة سبع وتسعين ومائتين وألف وفرغنا منه في منتصف ذي الحجة الحرام في السنة المذكورة. ونشرع بعون الله تعالى في الجزء الثاني منه مفتتحاً بما يكون كالتوطئة لدولة بني وطاس من أخبار البرتغال على الجملة، وعلى الله تعالى الكمال بمنه وفضله^(١).

أخبار البرتغال بالمغرب الأقصى على الجملة

اعلم أن هذا المغرب الأقصى حرسه الله وكلاه بعين حفظه، لم يزل بجميع ثغوره وسواحله وأقطاره منذ الفتح الإسلامي إلى المائة التاسعة محفوظاً الجوانب من طروق أمم الفرنج وغيرهم من أعداء الدين، محفوف الأكتاف بالحامية من جنود المسلمين، مرهوبة شوكة ملوكة عند أمم النصرانية جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، ودولة بعد دولة. لم تكن الفرنج تحدث نفسها بغزو شيء من بلاده، أو طرق ثغر من ثغوره، أو الاستيلاء على شيء من سواحله، ولم يكن أهلها أيضاً يتوقعون ذلك منهم ولا يخشونه، بل هم الذين كانوا يغزون الفرنج في عقر ديارهم وأعز بلادهم، ويحامون عن بلاد الأندلس وسواحل إفريقية وغيرها متى هاج أهلها هيج من ذلك حسبما تقدمت الأخبار المفصحة عن ذلك، ولم يبلغنا أن جنساً من أجناس الفرنج فيما قبل المائة التاسعة غزا شيئاً من أطراف المغرب الأقصى، أو ثغراً من ثغوره بقصد الاستيلاء والتملك، إلا ما كان من مدينة سلا التي دخلها الإصبيول غدرًا أيام الفتنة بين اليعقوبيين ثم خرجوا عنها لمدة يسيرة حسبما مر، وإلا ما كان من محاصرة أهل جنوة لسبته ثم الإقلاع عنها كذلك، ونحو هذا مما لا يعتبر، فلما دخلت المائة التاسعة ومضى صدرها وتداعت دول المغرب من بني أبي حفص بإفريقية، وبني زيان بالمغرب الأوسط، وبني مرين بالمغرب الأقصى،

(١) ما بين قوسين هو زيادة بخط المؤلف في الأصل بعد الطبعة الأولى.

وبني الأحمر بالأندلس، وأشرفت على الهرم وحدثت الفتن بين المسلمين ودامت فيهم واشتغلوا بأنفسهم دون الالتفات إلى جهاد العدو ومطالبة في أرضه وبلاده على ما كان لهم من العادة قبل ذلك، وافق ذلك ابتداء ظهور الجلالقة وهم الإصبيول والبرتغال، وهم البرطقيز، بجزيرة الأندلس واستفحال أمرهم، فكثرت أسفار البرتغال في البحر المحيط ودام تقلبهم فيه ومرونا عليه حتى حصلوا على عدة جزائر منه، واكتشفوا بعض الرؤوس الساحلية من أرض السودان وغيرها، ثم شرهوا لتمكنك سواحل المغرب الأقصى، فهجموا عليها وجالدوا أهلها دونها حتى تمكنوا منها ونشبوها فيها، فقويت شوكتهم وعظم ضررهم على الإسلام وطمحت نفوسهم للاستيلاء على ما وراء ذلك حسبما تقف عليه مبيناً في مواضعه إن شاء الله.

فاستولوا في سنة ثمان عشرة وثمانمائة على مدينة سبتة بعد محاصرتهم لها ست سنين على ما في بعض تواريخ الإفرنج، ثم في سنة اثنتين وستين وثمانمائة استولوا على قصر المجاز، ثم استولوا في سنة تسع وستين وثمانمائة على طنجة، ثم في حدود سنة ست وسبعين وثمانمائة ملكوا أصيلا، وفي هذا التاريخ نفسه أو قبله ييسر استولوا على مدينة آنفا وبعض سواحل السوس، ثم في حدود سنة سبع وتسعمائة نزلوا بأرض الجديدة فيما بين آزموور وتيط وبنوا بها حصن البريجة وطال مقامهم بها، ثم في سنة عشر وتسعمائة استولوا على مدينة العرائش، ثم بعد ذلك ييسر في حدود العشر وتسعمائة على ما تقتضيه تواريخ الفرنج ملكوا حصن أكادير وما اتصل به من سواحل السوس الأقصى، ثم ملكوا في حدود اثنتي عشرة وتسعمائة رباط آسفي ثم عطفوا على ثغر آزموور فاستولوا عليه في سنة أربع عشرة وتسعمائة. ثم المعمورة وهي، المهدية، ملكوها أيضاً في حدود سنة عشرين وتسعمائة وفي هذا التاريخ نفسه رجعوا إلى مدينة آنفا بعد هدمها فبنوها وسكنوها، وبالجملة فلم يبق من ثغور المغرب الأقصى بيد المسلمين إلا القليل مثل سلا ورباط الفتح وفُجى المسلمون من هذا البرتغال بالأمر العظيم، ودهوا منه بالخطب الجسيم، واستحوذ عدو الله على بلاد الهبط وضايقهم بها حتى

انحازوا إلى الأمصار المنزوية عن الأطراف والقرى النائية عن السواحل، وكان ذلك كله فيما بين انقراض دولة بني وطاس وظهور دولة الشرفاء السعديين، ولقد ذكر في «مرآة المحاسن» أن قصر كتامة كان في صدر المائة العاشرة مقصداً للتجار وسوقاً تجلب إليه بضائع العدوتين وسلعها، قال: «إذ كان القصر المذكور ثغراً بين بلاد المسلمين وبين بلاد النصارى تحط به رحال تجار المسلمين من آفاق المغرب وتجار الحربيين من أصيلا وطنجة وقصر المجاز وسبتة ولأنه كان محل عناية سلطان المغرب إذ ذاك محمد الشيخ بن أبي زكرياء الوطاسي، فإن القصر قاعدة بلاد الهبط التي كانت موقد شرارة السلطان المذكور، ومشب ناره، وموشج عصيته مع مجاورته لبلاد الحرب، فكان نظره مصروفاً إليه واختصاصه موقوفاً عليه وتقبل بنوه من بعده مذهبه فيه» اه كلامه. فهذا يدل على ما كان عليه العدو خذله الله من المضايقة للمسلمين في ثغورهم وبلادهم والله الأمر من قبل ومن بعد.

ولما نزل بأهل المغرب الأقصى ما نزل من غلبة عدو الدين واستيلائه على ثغور المسلمين، تباروا في جهاده وقتاله، وأعملوا الخيل والرجل في مقارعته ونزاله، وتوفرت دواعي الخاصة منهم والعامة على ذلك، وصرفوا وجوه العزم لتحصيل الثواب فيما هنالك، فكم من رئيس قوم قام لنصرة الدين غيرة واحتساباً، وكم من ولي عصر أو عالم مصر باع نفسه من الله ورأى ذلك صواباً حتى لقد استشهد منهم أقوام وأسر آخرون، وبلغ الله تعالى جميعهم من الثواب ما يرجون، فمن استشهد منهم في سبيل الله سيدي عيسى ابن الحسن المصباحي دفين الدعداعة بأرض البروزي من بلاد طليق، وأبو الحسن علي بن عثمان الشاوي من أصحاب الشيخ أبي محمد الغزواني، وأبو الفضل فرج الأندلسي ثم المكناسي، وأبو عبد الله محمد القصري المعروف بسقين قتله النصارى عند ضريح الشيخ أبي سلهم، وكان قد قصده للزيارة ففتكوا به هنالك، وكل هؤلاء معدود في أولياء الله تعالى، وممن أسر منهم ثم خلصه الله الشيخ أبو محمد عبد الله بن ساسي دفين تانسيفت من أحواز مراكش، والشيخ أبو محمد عبد الله الكوش دفين جبل العرض من أحواز

فاس، ووالد صاحب «دوحة الناشر» وهو أبو الحسن علي بن مصباح الحسني عرف بابن عسكر، والشيخ العلامة أبو العباس أحمد ابن القاضي المكناسي أحد قضاة سلا وهو صاحب «جذوة الاقتباس» و«المنتقى المقصور» وغيرهما من التأليف الحسان أسر وهو ذاهب إلى الحج، وأبو عبد الله محمد بن أبي الفضل التونسي المعروف بخروف نزيل فاس وشيخ الجماعة بها، هؤلاء كلهم أصابه الأسر ثم خلصه الله بعد حين، وغير هؤلاء ممن لم يحضرنا ذكرهم، أجزل الله ثوابهم ويسر بمتة حسابهم، ولقد ألف الناس في ذلك العصر التأليف في الحض على الجهاد والترغيب فيه، وقال الخطباء والوعاظ في ذلك فأكثرُوا، ونظم الشعراء والأدباء فيه ونثروا، فممن ألف في ذلك الباب فافاد: الشيخ المتقن البارع الصوفي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم ابن يجيش التازي، قال في «الدوحة»: «وقفت له على تأليف ألفه في الحض على الجهاد في سبيل الله فكان مما ينبغي أن يتناول باليدين، ويكتب دون المداد باللجين، أودعه نظماً ونثراً» وممن نظم في ذلك فأجاد، الشيخ الصالح المتصوف المجاهد أبو عبد الله محمد بن يحيى البهلولي، قال في «الدوحة»: «كان هذا الشيخ ممن لازم باب الجهاد وفتح له فيه، وله في ذلك أشعار وقصائد زجلية وغيرها» وكان معاصراً للسلطان أبي عبد الله محمد ابن محمد الشيخ الوطاسي المعروف بالبرتغالي، فكان إذا جاءه زائراً حضه على الغزو فيساعده على ما أراد من ذلك، ولما توفي السلطان المذكور، ودالت الدولة لولده السلطان أحمد، وغص بالشرفاء القائمين عليه ببلاد السوس، عقد الهدنة مع النصارى المجاورين له ببلاد الهبط وصاحبهم سلطان البرتغال، فبلغ ذلك الشيخ أبا عبد الله المذكور فألقى على نفسه أن لا يلقي السلطان المذكور ولا يمشي إليه ولا يقبل منه ما كان عينه له والده من جزية أهل الذمة بفاس لقوته وضرورياته، فمكث على ذلك إلى أن حضرته الوفاة، وكان في النزاع وأصحابه دائرون به فقال له بعضهم: «يا سيدي أخبرك أن السلطان أمر بالغزو ونادى به وحض الناس عليه، والمسلمون في شرح لذلك وفرح». ففتح الشيخ عينيه وتهلل وجهه فرحاً وحمد الله وأثنى عليه،

ففاضت نفسه وهو مسرور بذلك، ولهذا الشيخ زجليات ومقطعات حسان في الحض على الجهاد، منها اللامية المشهورة التي خاطب بها السلطان أبا عبد الله المذكور ومطلعها:

قل للأمير محمد يا طلعة الهلال
لويلة في السواحل من أفضل الليال
ومنها القصيدة التي مطلعها:

ظهر الرمل مرادي والعسكريا كرام
نفسي على الجهاد سبلت والسلام
ومنها القصيدة التي أولها:

قم للجهاد رعاك الله منتهجاً نهج الرشاد إلى الأقوام لو فهموا
من بعد أندلس ما زلت محتتماً لو كان يمكنني في الليل أحترم

إلى غير ذلك مما يطول ذكره قال صاحب «الدوحة»: «حدثني الفقيه العدل أبو العباس أحمد الدغموري القصري، قال: كان الشيخ أبو عبد الله يقول: «ما غزونا غزوة قط إلا رأيت رسول الله ﷺ فيها، ويخبرني بجميع ما يتفق لي ولأصحابي في تلك الغزوة»، وله رضي الله عنه في شأن الجهاد والرجولية حكاية ظريفة وهي أنه غزا مرة غزوة إلى الثغور الهبطية ثم قدم منها مع أصحابه فوجد زوجته فلانة بنت الشيخ أبي زكرياء يحيى بن بكار قد توفيت وصلى الناس عليها بجامع القرويين، وإمامهم الشيخ غازي ابن الشيخ أبي عبد الله محمد بن غازي الإمام المشهور، فوصل الشيخ أبو عبد الله ووجد جنازتها على شفير القبر والناس يحاولون دفنها فقال لهم: مهلاً ثم تقدم وأعاد الصلاة عليها مع أصحابه الذين قدموا معه فبادر الناس إليه بالإنكار في تكرير الصلاة في الجنازة بالجماعة مرتين، فقال لهم على البديهة: «صلاتكم التي صليتم عليها فاسدة، لكونها بغير إمام»، فقالوا له: «كيف ذلك يا سيدي؟» قال: «لأن من شرط الإمام الذكورية وهي مفقودة في صاحبكم لأن الذي لم يتقلد سيفاً في سبيل الله قط ولم يضرب به ولا عرف الحرب كما كان نبينا ﷺ ولم يتعبد بالسيرة النبوية فكيف يعد إماماً ذكراً بل

إمامكم والله من جملة النساء» اهـ. وحكى أيضاً في ترجمة الشيخ أبي محمد عبد الله الورياكلي الذي قال له العلامة ابن مرزوق وقد عزم على الرحلة إلى بلاد المشرق في طلب العلم: «ليس أمامك أحد أعلم منك»، قال: «فرجع من هنالك فوجد النصارى قد تغلبوا على طنجة وأصيلا، فلازم الثغور الهبطية لأجل الرباط والجهاد في سبيل الله، وبث العلم ونشره»، قال: «وكان من عادته أن يشتغل بالتدريس في فصلي الشتاء والربيع، ويخرج في الصيف والخريف فيربط في ثغور القبائل الهبطية» إلى آخر كلامه، وأمثال هذا كثير ذكرنا منه هذه النبذة اليسيرة لتقف بها على أحوال القوم وما كانوا عليه من الرغبة في الجهاد والمثابرة عليه قدس الله أرواحهم وجعل في دار النعيم غدوهم ورواحهم.

وقد آن أن نشرع في الأخبار عن دولة بني وطاس بعد أن نذكر دولة الشريف العمراني الذي بايعه أهل فاس يوم مقتل السلطان عبد الحق بن أبي سعد رحمه الله.

الخبر عن دولة الشريف أبي عبد الله الحفيد وأوليته

هذا الشريف هو أبو عبد الله محمد بن علي الإدريسي الجوطي العمراني من بيت بني عمران فرقة من أدارسة فاس، وهم واسطة عقد البيت الإدريسي، وأوضحهم نسباً، وأعلاهم حسباً، قال ابن خلدون: «ليس في المغرب فيما نعلمه من أهل البيت الكريم من يبلغ في صراحة نسبه ووضوحه مبلغ أعقاب إدريس رضي الله عنه» قال: «وكبرائهم لهذا العهد بنو عمران بفاس من ولد يحيى الجوطي بن محمد بن يحيى العدام بن القاسم بن إدريس بن إدريس، وهم نقباء أهل البيت هناك والساكنون ببيت جدهم إدريس ولهم السيادة على أهل المغرب كافة» اهـ. والجوطي قال في «المرآة»: «نسبة إلى جوطه بجيم مضموم وواو مد وطاء مفتوحة وهاء تأنيث وهي قرية عظيمة على نهر سبو في العدو الجنوبية خربت ولم يبق منها إلا آثار، ولها مسيل شتوي يعرف بمخروط جوطه، نزلها السيد يحيى فنسب إليها وقبره هنالك معروف» اهـ.

بيعة السلطان أبي عبد الله الحفيد والسبب فيها

كان بنو مرين أيام ولايتهم على المغرب يعظمون هؤلاء الأشراف الأدارسة ويوجبون حقهم ويتقربون إلى الله تعالى برفع منزلتهم وجبر خواطرهم لما فاتهم من رتبة الخلافة التي كانت تكون لهم بطريق الاستحقاق الشرعي، فكان بنو مرين لما جبلوا عليه من الجنوح إلى مراسم الدين وانتحالها يرون في أنفسهم كأنهم متغلبون مع وجود هؤلاء الأشراف. فلذا كانوا يخضعون لهم، ويتأدبون معهم ما أمكن، ولقد حكى أبو عبد الله بن الأزرق: أن الشيخ الكبير أبا عبد الله المقرئ كان يحضر مجلس السلطان أبا عنان ليث العلم وكان نقيب الشرفاء بفاس إذا دخل مجلس السلطان يقوم له السلطان وجميع من في المجلس إجلالاً له، إلا الشيخ المقرئ فإنه كان لا يقوم له، فجرت بين الشريف والفقير المذكور معاتبة ومراجعة في حكاية مشهورة، تركناها لعدم تعلق الغرض بها⁽¹⁾ إذ الغرض هو الوقوف على ما كان عليه القوم من التجلة والتعظيم لأهل هذا البيت الكريم، فلما اضطربت أحوال الدولة المرينية بفاس واجتمع رؤساء فاس إلى الفقيه أبي فارس الوريكلي في شأن اليهوديين اللذين كانا يحتكمان في المدينة ويعتسفان أهلها، أجمع رأيهم على مبايعة هذا الشريف الحفيد، وكان يومئذ على نقابة الأشراف بفاس، فاستدعوه فحضر ويابعوه في العشر الأواخر من رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة، وتم أمره وكان من قتله للسلطان عبد الحق ما تقدم ذكره والله أعلم.

(1) راجع ذلك في «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» للشيخ أحمد بابا ص 254 طبع فاس وفتح

الطيب، للمقرئ - ج 3 - صفحة 148.

فتنة الشاوية ووصولهم إلى بلاد الغرب

قد قدمنا ما كان من أمر الشاوية وفتنتهم في أيام السلطان عبد الحق ولما كانت أيام الحفيد هذا تزايد ضررهم واستطال شرهم فزحفوا إلى بلاد الغرب من أحواز مكناسة وفاس، وعاثوا وأفسدوا، ولما تكلم أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في «مرآة المحاسن» على الشيخ عبد الوارث الياصوتي وأنه أخذ من جماعة منهم: أبو النجاء سالم الروداني الشاوي، والشيخ أبو عبد الله الصغير السهلي، والشيخ أبو محمد الغزواني، قال: «وكان الشيخ أبو النجاء أولاً يقرأ بالمدرسة العنانية، فلما نزل الشاوية الغرب، خرج من فاس خائفاً يترقب، وذلك في أيام الحفيد» اهـ، وبلاد الغرب تطلق في عرف أهله على خصوص بسيط أزغار وما اتصل به إلى ساحل البحر والله أعلم.

استيلاء البرتغال على مدينة أنفي وأصيلا

رأيت في بعض تواريخ الفرنج أن استيلاء البرتغال على أنفي كان في حدود أربع وسبعين وثمانمائة، وأنهم هدموها وبقيت كذلك مدة تزيد على أربعين سنة، ثم شرعوا في تحصينها والبناء بها، ولم يزالوا مقيمين بها إلى حدود أربع وخمسين ومائة وألف في سنة ست وسبعين وثمانمائة استولوا على أصيلا، وظفروا فيها ببيت مال الوطاسي، وأسروا ولده محمداً المدعو بالبرتغالي، وابنته وزوجتيه وجماعة من الأعيان، وكان الخطب عظيماً، وبقي ولد الوطاسي عند البرتغال سبع سنين، ثم افتكه والده بعد، وكان يوم أسر صبيّاً صغيراً، وأما مدينة فضالة فلم يقع عليها استيلاء وإنما كانت بها كمبانية خمسة نفر من تجار مادريد قاعدة قشتالة، نزلوها بقصد التجارة بإذن سلطان الوقت^(١) وكانت سلعهم توسق وتوضع من مرساها، وبنوا بها البناء الموجود

(١) مولاي سليمان اهـ من خط مؤلفه.

اليوم والله تعالى أعلم.

خلع السلطان أبي عبد الله الحفيد وانقراض أمره

قال في «الجدوة»: «لما قامت عامة فاس على السلطان عبد الحق وأقاموا هذا النقيب من أهل مدينة فاس إماماً استمر بها، وابنه وزير له، إلى سنة خمس وسبعين وثمانمائة، فعزل عن الإمامة وكان الذي خلعه أبا الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسي، وكان ذلك سبب ذهاب الشريف المذكور إلى تونس لمدة يسيرة من خلعه، وبقيت حضرة فاس الجديد في يد أخت أبي الحجاج المذكور وهي الزهراء المدعوة بزهور، مع قائده السجيري، إلى أن تولى الأمر أبو عبد الله محمد الشيخ الوطاسي» والله غالب على أمره.

الخبر عن دولة بني وطاس وذكر نسبهم وأوليتهم

اعلم أن بني وطاس فرقة من بني مرين غير أنهم ليسوا من بني عبد الحق، ولما دخل بنو مرين المغرب واقتسموا أعماله حسبما تقدم، كان لبني وطاس هؤلاء بلاد الريف فكانت ضواحيها لنزولهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم، وكان بنو الوزير منهم يسمون إلى الرياسة ويرومون الخروج على بني عبد الحق، وقد تكرر ذلك منهم حسبما مر، ثم أذعنوا إلى الطاعة وراضوا أنفسهم على الخدمة، فاستعملهم بنو عبد الحق في وجوه الولايات والأعمال واستظهروا بهم على أمور دولتهم، فحسن أثرهم لديها وتعدد الوزراء منهم فيها، وذكر ابن خلدون: «أن بنى الوزير هؤلاء يرون أن نسبهم دخیل في بني مرين، وأنهم من أعقاب يوسف بن تاشفين اللمتوني لحقوا بالبدو ونزلوا على بني وطاس ووشجت فيهم عروقهم حتى لبسوا جلدتهم، ولم يزل السرو متربعا بين أعينهم لذلك والرياسة شامخة بأنوفهم» اهـ. ولما كانت دولة السلطان أبي عنان واستولى على بجاية، عقد عليها لعمر بن علي الوطاسي من بني الوزير هؤلاء فثار عليه أهلها واستلحموه في خبر مر التنبيه عليه.

ثم لما كانت الدولة الأولى للسلطان أبي العباس بن أبي سالم، وخلص ملك مراكش وأعمالها إلى ابن عمه الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن، كان من جملة من تحيز إليه وصار في جملته، زيان بن عمر بن علي المذكور، فكانت له في دولته الوجاهة الكبيرة، والمنزلة الرفيعة، ثم لما فسد ما بين السلطان أبي العباس والأمير عبد الرحمن كان زيان بن عمر في جملة النازعين إلى السلطان أبي العباس، فاتصل به وصار في جملته إلى أن حاصر السلطان أبو العباس قصبة مراكش، وبها يومئذ الأمير عبد الرحمن، فأبلى

زيان بن عمر في ذلك الحصار وكان أحد الذين باسروا قتل ولدي الأمير عبد الرحمن.

قال ابن خلدون: «وطالما كان زيان هذا يمتري ثدي نعمتهم ويجر ذيله خيلاء في جاههم، فذهب مثلاً في كفران النعمة وسوء الجزاء، والله لا يظلم مثقال ذرة». ثم جاء بعده ابنه أبو زكرياء يحيى بن زيان فولي الوزارة للسلطان عبد الحق كما مر، ثم بعده ابنه يحيى أيضاً، وهو الذي قتله السلطان عبد الحق في جماعة من عشيرته، وفر أخوه أبو عبد الله محمد الشيخ إلى الصحراء وبقي متقللاً في البلاد إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ بن أبي زكرياء الوطاسي رحمه الله

قد تقدم لنا ما كان من إيقاع السلطان عبد الحق ببني وطاس وإفلات محمد الشيخ ومحمد الحلو من النكة، وأن الشيخ كان قد خرج للصيد فاتصل به الخبر فذهب على وجهه لا يلوي على شيء، وأن الحلو اختفى حتى إذا سكنت الهيئة تسلل ولحق بالشيخ فسارا إلى جهة الصحراء وجعلا يترددان فيما بينها وبين البلاد الهبطية حتى ملكا أصيلا، وذلك قبل استيلاء البرتغال عليها. ولما ملك الشيخ أصيلا واستفحل أمره بها تشوفت إليه الأعيان من أهل فاس والرؤساء من أهل دولة السلطان عبد الحق وصاروا يكتابونه ويقدمون إليه الوسائل سراً وربما دعوه إلى القدوم على أن يذلوا له من الطاعة والنصرة ما شاء فاستمر الحال على ذلك إلى أن قتل عبد الحق وبويع الحفيد، فحينئذ أرهف الشيخ حده، واستفرغ في المطالبة جهده، إلى أن استولى على الحضرة وصفا له ملك المغرب.

قال في «المرآة»: «لما بايع أهل فاس أبا عبد الله الحفيد قام محمد الشيخ الوطاسي في أصيلا واستتبع القبائل واستفحل أمره، وحاصر فاساً وقتاً

بعد وقت إلى أن دخلت في طاعته في رمضان سنة ست وسبعين وثمانمائة. وخرج عنها الحفيد ودخلها محمد الشيخ المذكور في أوائل شوال من السنة المذكورة وهو مورث الملك لبنيه بها» اهـ. وقد تقدم لنا أن الذي خلع الشريف من الملك هو أبو الحجاج يوسف بن منصور الوطاسي، وأن حضرة فاس الجديد قد بقيت بعد ذهاب الشريف إلى تونس في يد زهور الوطاسية والقائد السجيري إلى أن قدم السلطان محمد الشيخ والله تعالى أعلم.

وقال منويل في أخبار محمد الشيخ هذا ما صورته: «كانت مملكة المغرب الأقصى في غاية الاضطراب والانتكاس حتى طمع في ملكها كل من كانت توسوس له نفسه بذلك، واستولى ابن الأحمر على جميع الثغور التي كانت لبني مرين بأرض الأندلس ولم يترك لهم قيد شبر، واشترأت أجناس الفرنج للتغلب على المغرب، وفي تلك المدة كان بأصيلا محمد الشيخ الوطاسي، وكان شجاعاً مقداماً، وأحس من نفسه بالقدرة على الاستيلاء على كرسي فاس وتنحية الشريف عنه، لا سيما مع ما كان الناس فيه من افتراق الكلمة فجمع جنداً صالحها وزحف إلى فاس فبرز إليه الشريف والتقوا بأحواز مكناسة فوقعت بينهما حرب عظيمة كانت الكرة فيها على الوطاسي، ثم جمع عسكرياً آخر وزحف به إلى فاس وحاصرها نحو ستين والشريف فيها مع أرباب دولته، وفي أثناء الحصار ورد عليه الخبر باستيلاء البرتغال على أصيلا وعلى بيت ماله الذي كان بها وعلى حظاياها وأولاده، فأفرج عن فاس ورجع مبادراً إلى أصيلا فحاصرها، ولما امتنعت عليه عقد مع البرتغال هدنة وعاد سريعاً إلى فاس فحاصرها وضيق على الشريف بها حتى خرج فاراً بنفسه وأسلمها إليه فدخلها محمد الشيخ وتمت بيعته وتفرغ لتدوين القبائل التي بأحواز فاس وغيرها، فدخلوا في طاعته واغبطوا به» اهـ كلامه.

رياسة بني راشد من شرفاء العالم بغمارة وبنائهم مدينة شفشاون وما يتبع ذلك

قال في «نشر المثاني»: «اختط بعض شرفاء العلم مدينة شفشاون بقصد تحصين المسلمين من نصارى سبتة، إذ كانوا بعد استيلائهم عليها يتطاولون على أهل تلك المداشر في أواخر دولة بني وطاس».

وقال في «المرآة»: «كان ابتداء اختطاط مدينة شفشاون في الجهة المعروفة عندهم بالعدوة، وهي عدوة وادي شفشاون، في حدود سنة ست وسبعين وثمانمائة، على يد الشريف الفقيه الصالح الناصح المجاهد أبي الحسن بن أبي محمد المعروف بأبي جمعة العلمي، واسمه الحسن بن محمد ابن الحسن بن عثمان بن سعيد بن عبد الوهاب بن علال بن القطب أبي محمد عبد السلام بن مشيش، ومات شهيداً قبل إتمام ما شرع فيه، بتدبير النصارى دمرهم الله مع أهل النفاق إذ ذاك من أهل الخروب، وقد جاءهم في سبيل الجهاد وبينما هو يتجهد من الليل في مسجد هنالك، إذ أضرموا عليه ناراً فمات رضون الله عليه، وقام مقامه فيما كان بسبيله من الجهاد والاستنفار له وتجييش الجيوش ابن عمه الأمير الجليل، الفاضل الأصيل، أبو الحسن علي بن موسى بن راشد بن علي بن سعيد بن عبد الوهاب إلى آخر النسب المتقدم، فشرع في اختطاط مدينة شفشاون في العدو الأخرى فبنى قصبتها وشيدها وأوطنها بأهله وعشيرته، وزل الناس بها فبنوا وصارت في عداد المدن إلى أن توفي سنة سبع عشرة وتسعمائة، وورثها بنوه من بعده ولم يزالوا فيها بين سلم وحرب إلى أن أخرجهم منها الشرفاء السعديون عند استيلائهم على بلاد المغرب والله تعالى أعلم».

ثورة عمرو بن سليمان السيف ببلاد السوس وشيء من أخباره

هذا الرجل هو عمرو بن سليمان الشيطمي المغيبي المعروف بالسيف، ويقال له: المريدي بضم الميم، وكان ابتداء أمره أنه كان من تلامذة الشيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي صاحب دلائل الخيرات، نقل الثقات أنه كان يتردد إلى الشيخ المذكور، أيام حياته ويأتيه بالراح فيها كلام كثير منسوب إلى الخضر عليه السلام، فلا يقول له في ذلك شيئاً غير أنه أثنى عليه مرات كثيرة، ثم لما مات الشيخ المذكور رحمه الله سنة سبعين وثمانمائة ثار عمرو المذكور مظهراً للطلب بثأر الشيخ والانتقام من الذين سموه، إذ كان سمه بعض فقهاء عصره، فتبعهم حتى قتلهم، ثم صار يدعو الناس إلى إقامة الصلاة ويقاتلهم عليها، فانتصر عليهم وشاع ذكره وتمكن ناموسه، ثم تجاوز ذلك إلى أن صار يدعو الناس إلى نفسه ويقتل المنكرين عليه وعلى شيوخه وأصحابه، وسمى أصحابه المريدين، بضم الميم، قال زروق: «وما أحقها بالفتح» وسمى المخالفين له الجاحدين ثم جعل يتفوه بالمغيبات ويزعم أنه مأذون، وربما ادعى النبوة. وكان قد أخرج شلو الشيخ الجزولي من قبره وجعله في تابوت وصار يقدمه بين يديه في حروبه كتابوت بني إسرائيل فينتصر على من خالفه، وقيل: إنه لم يدفنه وإنما أخذه بعد موته فكفنه وجعله في التابوت، وجمع الجموع، وقاد الجيوش، وسفك الدماء، واستمرت فتنة في الناس عشرين سنة.

قال الشيخ زروق رحمه الله: «بلغني أن شيخنا الفقيه أبا عبد الله القوري ورد عليه سؤال في شأن عمرو بن سليمان السيف فبادرت إليه كي أراه فقال لي: (قد خرج من يدي)، فقلت له: (فما مقتضاه؟)، قال: (مقتضاه أنه يقول: إن أحكام الكتاب والسنة ارتفعت ولم يبق إلا ما يقول له قلبه). قال زروق: «وشاع من أمره أنه يقول: إنه وارث النبوة، وأن له أحكاماً تخصه كما في قصة الخضر مع موسى عليهما السلام، وأن الخضر حي، ونبي مرسل، وأنه يلقاه ويأخذ عنه، بل يدعي ذلك من هو دونه من تلامذته».

وحكى بعضهم أن عمراً المذكور لما جعل شلو الشيخ في التابوت، كان إذا رجع به من حربته وضعه في روضة عنده يسميها الرباط، فإذا جنة الليل أطاف الحرس بالروضة يحرسون التابوت من السراق ويوقد عليه كل ليلة فتيلة عظيمة في مقدار الثوب مغموسة في نحو مدين من الزيت ليقوى الضوء ويتشع، ويبلغ من كل الجهات إلى مسافة بعيدة، فتتكشف الطرق عمن يأتي عليها، كل ذلك مخافة أن يؤخذ منه شلو الشيخ فيتصر به عليه.

ويقال: إن ثورة عمرو المذكور وفتنته كانت أثراً من آثار دعوات الشيخ الجزولي رحمه الله، فقد ذكر تلامذته كالشيخ التباع وغيره: أن الشيخ الجزولي خرج عليهم من آخر الليلة التي قتل في صبيحتها، فقالوا له: «يا سيدي الناس يزعمون أنك الفاطمي المنتظر» فقال: «ما يبحثون إلا عمن يقطع رقابهم، الله يسلط عليهم من يقطع رقابهم» وكرر ذلك مراراً، فكانوا يرون أن أثر دعوته ظهر في عمرو السيف والله أعلم.

وقتل عمرو المذكور سنة تسعين وثمانمائة واختلف فيمن قتله، فقيل: كان عمرو قد تزوج زوجة الشيخ الجزولي وبنته فلما رأتا ما هو عليه من الزندقة والفساد في الأرض قتلته امتعاضاً للدين، ترصدتاه حتى إذا نام عدتا عليه فقتلته ثم رمت إحداهما وهي بنت الشيخ بنفسها من كوة هنالك في البيت الذي كانوا به فوصلت إلى الأرض سالمة ونجت، وبقيت الأخرى، وهي الزوجة، بالبيت فدخلوا عليها فقتلوها. وقيل: إنما قتله زوجته وربيبته، وقيل: غير ذلك والله أعلم.

ولما هلك عمرو السيف دفن الناس الشيخ الجزولي، وقيل: هو دفنه بموضع يعرف بتاصروت ثم نقل بعد إلى مراكش على ما نذكر إن شاء الله ولما ذكر الشيخ أبو العباس الصومعي في كتابه الموضوع في مناقب الشيخ أبي يعزى قصة نقل الشيخ الجزولي إلى مراكش، وأنه وجد طرياً لم يتغير بعد وفاته بنحو سبعين سنة، قال: «وأعجب من هذا أن عمراً المغيطي السيف زعموا أنه وجد كذلك، ولعله أدركته بركة هذا الشيخ مع ما كان عليه والفضل بيد الله» أهـ.

وفي سنة إحدى وتسعين وثمانمائة استدعى السلطان محمد الشيخ الإمام أبا عبد الله بن غازي من مكناسة إلى فاس فولى الخطابة أولاً بالمسجد الجامع من فاس الجديد ثم ولي الإمامة والخطابة ثانياً بمسجد القرويين من فاس وصار شيخ الجماعة بها واستوطنها إلى أن مات رحمه الله.

وفي سنة خمس وتسعين وثمانمائة تحرك السلطان محمد الشيخ إلى دبدو ثم عاد إلى حضرته. وفيها أيضاً في يوم الخميس السابع من ذي القعدة توفي الوزير أبو عبد الله محمد الحلو الوطاسي ودفن بالقلعة خارج باب الحيسة.

وفي سنة سبع وتسعين وثمانمائة استولت الرينة إيسايلا صاحبة مادريد قاعدة بلاد قشتالة على حمراء غرناطة ومحت دولة بني الأحمر من جزيرة الأندلس ولم يبق للمسلمين بها سلطان، وتفرق أهلها في بلاد المغرب وغيرها أيادي سبا، وقد تقدم الخبر عن ذلك مستوفى.

بناء مدينة تطاوين

قال منويل: «لما استولى الإصبيول على غرناطة خرج جماعة كبيرة من أهلها إلى المغرب فزلوا في مرتيل قرب تطاوين ولما نزلوا به لم يقدموا شيئاً على الوفاة على سلطان فاس محمد الشيخ الوطاسي، فأجل مقدمهم ورحب بهم، فقالوا: إن ضيافتنا عندك أن تعين لنا موضعاً نبني فيه بلداً يكتنا ونحفظ فيه عيالنا من أهل الريف» فأجابهم إلى مرادهم وعين لهم مدينة تطاوين الخربة منذ تسعين سنة وولى عليهم كبيرهم أبا الحسن علياً المنظري، وكان رجلاً شجاعاً من كبار جند ابن الأحمر، وكان قد أبلى معه في حرب غرناطة البلاء الحسن ثم انتقل إلى المغرب كما قلنا، ولما عقد له الشيخ الوطاسي على أصحابه رجوع بهم إلى تطاوين وشرع في بناء أسوار البلد القديم، فجدهه وبني المسجد الجامع به واستوطنه هو وجماعته، ثم أخذ في جهاد البرتغال بسببة وبلاد الهبط إلى أن أسر منهم ثلاثة آلاف فاستخدمهم في إتمام ما بقي

عليه من بناء تطاوين، واتصلت الحرب بينهم وبين برتقال سبته كاتصالها بين أهل آزمور وبرتقال الجديدة» اهـ.

وقوله: إن بناء تطاوين كان عقب أخذ غرناطة مخالف لما يقول أهل تطاوين من أن تاريخ بنائها رمز: «تفاحة»، وأن ذلك كان بإعانة الشريف أبي الحسن علي بن راشد، فيظهر والله أعلم أن أبا الحسن المنظري كان قد قدم من الأندلس قبل أخذ غرناطة بسنين يسيرة موافق الرمز المذكور، والله أعلم.

قدوم أبي عبد الله بن الأحمر مخلوعاً على السلطان محمد الشيخ الوطاسي رحمهما الله

لما استولى طاغية الإصبيول على حضرة غرناطة وسائر الأندلس، انتقل سلطانها أبو عبد الله بن الأحمر إلى حضرة فاس فاستوطنها تحت كنف السلطان محمد الشيخ بعد أن خاطبه من إنشاء وزيره أبي عبد الله محمد العربي العقيلي بقصيدة بارعة يقول في صدرها:

مولى الملوك ملوك العرب والعجم	رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن	جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلباً	وأفزع الخطب ما يأتي على الرغم
حكم من الله حتم لا مرد له	وهل مردا لحكم منه منحتم

وهي طويلة. ثم وصلها برسالة يقول فيها بعد الحمد لله والصلاة على نبيه ما نصه.

أما بعد: فيامولانا، الذي أولانا من النعم ما أولانا، لا حط الله لكم من العزة أرواقاً، ولا أذوى لدوحة دولتكم أغصاناً ولا أوراقاً، ولا زالت مخضرة العود، مبتسمة عن زهرات البشائر متحفة بثمرات السعود، ممطورة بسحاب البركات المتداركات دون بروق ولا رعود، هذا مقام العائد بمقامكم، المتعلق بأسباب ذمامكم، المرتجي لعواطف قلوبكم، وعوارف أنعامكم،

المقبل الأرض تحت أقدامكم، المتلجلج اللسان عند محاولة مفاتحة كلامكم، وماذا الذي يقول من وجهه خجل وفؤاد وجل، وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل؟ بيد أنني أقول لكم ما أقول لربي، واجترائي عليه أكثر واحترامي إليه أكبر، «اللهم لا بريء فاعتذر، ولا قوي فأنتصر» لكني مستقبل مستعتب مستغفر، «وما أبرئ نفسي، إن النفس لأمارة بالسوء» هذا على طريق التنازل والاتصاف بما تقتضيه الحال ممن يتحيز إلى حيز الإنصاف. وأما على جهة التحقيق، فأقول ما قالته الأم ابنة الصديق: والله إنني لأعلم أنني إن أقررت بما يقوله الناس والله يعلم أنني منه بريئة لا قول ما لم يكن، ولئن أنكرت ما تقولون لا تصدقوني. فأقول ما قاله أبو يوسف: «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون» على أنني لا أنكر عيوبي فأنا معدن العيوب، ولا أجحد ذنوبي فأنا جبل الذنوب، إلى الله أشكو عجري وبجري، وسقطاتي وغلطاتي. نعم، كل شيء ولا ما يقوله المنقول المشنع المهور، الناطق بقم الشيطان المسول، ومن أمثالهم: «سبني وصدق، ولا تفتر ولا تخلق» أفمثلي كان يفعل أمثالها ويحتمل من الأوزار المضاعفة أحمالها، ويهلك نفسه ويحبط أعمالها؟ عياداً بالله من خسران الدين وإيثار الجاحدين والمعتدين، ﴿قَدْ ضَلَّكَ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَبِينَ﴾ [الأنعام: 56] وإيم الله لو علمت شعرة في فودي تميل إلى تلك الجهة لقطعتها، بل لقطفت ما تحت عمامتي من هامتي وقطفتها، غير أن الرعاع في كل أوان أعداء للملك وعليه أحزاب وأعوان، كان أحق أو أجهل من أبي ثروان، أو أعقل أو أعلم من أشج بني مروان «رب متهم بريء»، ومسربل بسربال وهو منه عري، وفي الأحاديث صحيح وسقيم، ومن التراكيب المنطقية منتج وعقيم، ولكن ثم ميزان عقل تعتبر به أوزان النقل، وعلى الراجح الاعتماد، ثم إساعة الأحقاد المتصل المتباد والمرجوح الإطراح، ثم التزام الصراح، بعد النفض من الراح، وأكثر ما تسمعه الكذب، وطبع جمهور الخلق إلا من عصمه الله تعالى إليه منجذب، ولقد قذفنا من الأباطيل بأحجار، ورمينا بما لا يرمى به الكفار، فضلاً عن الفجار، وجرى من الأمر المنقول على لسان زيد وعمرو ما

لديكم منه حفظ الجار، وإذا عظم الإلكاء، فعلى تكأة التجلد والالتكاء، أكثر المكثرون، وجهد في تعشيرنا المتعشرون، ورمونا عن قوس واحدة، ونظمونا في سلك الملاحدة أكفراً أيضاً كفرة؟، غفرأ اللهم غفرأ، أعد نظراً يا عبد قيس، فليس الأمر على ما خيل لك ليس، وهل زدنا على أن طلبنا حقنا ممن رام محقه ومحققنا فطاردنا في سبيله عداة كانوا لنا غائطين، فانفتق علينا فتق لم يمكننا له رتق، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْقَيْبِ حَافِظِينَ﴾ [يوسف: 81]، وبعد فاسأل أهل الحل والعقد والتميز والنقد، فعند جهينتهم تلقى الخبر يقيناً، وقد رضينا بحكمهم يوثمنا فيوبقنا، أو يبرثنا فيقينا. إيه يا من اشرب إلى ملامتنا، وقدح حتى في إسلامنا، رويداً رويداً، فقد وجدت قوة وأيداً، ويحك إنما طال لسانك علينا، وامتد بالسوء إلينا، لأن الزمان لنا مصغر ولك مكبر، والأمر عليك مقبل وعنا مدبر، كما قاله كاتب الحجاج المتبر. وعلى الجملة فهنا صرنا إلى تسليم مقالك جديلاً، وذهبتنا فأقررنا بالخطا في كل ورد وصدر فله در القائل:

«إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر» وكأننا بمعترف إذا وصل إلى هنا، وعدم إنصافاً يعلمه الهنا، قد أزور متجانفاً، ثم أفر متهانفاً وجعل يتمثل بقولهم: «إذا عبروا قالوا: مقادير قدرت» ويقولهم: «المرء يعجزه المحال، فيعارض الحق بالباطل، والحالي بالعاطل» وينزع بقول القائل «رب مسمع هائل وليس تحته طائل» وقد فرغنا أول أمس من جوابه، وتركنا الضغن يلصق حرارة الجوى به، وسنلم الآن بما يوسع تبيكناً، ويقطعه تسكيتاً، فنقول له: ناشدناك الله تعالى هل اتفق لك قط وعرض خروج أمر ما عن القصد منك فيه والغرض، مع اجتهادك أثناء في إصدارك، وإيرادك في وقوعه على وفق اقتراحك. ومرادك، أو جميع ما تراوله بإدارتك لا يقع إلا مطابقاً لإرادتك، أو كل ما تقصده وتنويه تحرزه كما تشاء وتحويه؟ فلا بد أن يقر اضطراراً بأن مطلوبه يشذ عنه مراراً، بل كثيراً ما يفلت صيده من أشراكه، ويطلبه فيعجز عن إدراكه، فنقول: ومسألتنا من هذا القبيل: أيها النبيه النبيل، ثم نسرد له من الأحاديث النبوية ما شئنا، مما يسايرنا في غرضنا منه ويماشينا، كقوله

ﷺ: «كل شيء بقضاء وقدر حتى المعجز والكيس» وقوله أيضاً: «لو اجتمع أهل السموات والأرض على أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه» أو كما قال ﷺ. فأخلق به أن يلوذ بأكتاف الأحجام، ويزم على نفث فيه كأنما الجم بلجام. حيثنذ نقول له، والحق قد أبان وجهه وجلاله وقهره بحجته وعلاه. «ليس لك من الأمر شيء» «قل إن الأمر كله لله»، وفي محاجة آدم وموسى ما يقطع لسان الخصم، ويرخص عن أثواب أعراضنا ما عسى أن يعلق بها من دون الوصم، وكيفما كانت الحال، وإن ساء الرأي والاتحال ووقعنا في أوجال وأوحال، فثل عرشنا، وطويت فرشنا، ونكس لوانا، ومللت مثنوا فنحن أمثل من سوانا، «وما في الشر خيار» ويد الألفاف تكسر من صولة الأغيار، فحتى الآن لم نفقد من اللطيف تعالى لطفاً، ولا عدمننا أدوات أدعية تعطف بلا مهلة على جملتنا المقطوعة جمل النعم الموصولة عطفاً، وإلا فتلك بغداد دار السلام، ومتبواً الإسلام، المحفوف بفرسان السيوف والأقلام مثابة الخلافة العباسية، ومقر العلماء والفضلاء أولي السير الأويسية، والعقول الأياسية، قد نوزلت بالجيوش ونزلت، وزوزلت بالزحوف وزلزلت، وتحيف جوانبها الحيف، ودخلها كفار التتار عنوة بالسيف، ولا تسل إذ ذاك عن كيف، أيام تجلت عروس المنية، كاشفة عن ساقها مبدية، وجرت الدماء في الشوارع والطرق كالأنهار والأودية، وقيد الأئمة والقضاة تحت ظلال السيوف المنتضاة بالعمائم في رقابهم والأردية، وللنجيع سيول تخوضها الخيول فتخضبها إلى أرساغها، وتهم ظماؤها بوردها فتتكلم عن تجرعها ومساغها، فطاح عاصمها ومستعصمها، وراح ولم يغد ظالمها ومتظلمها، وخربت مساجدها وديارها، واصطلم بالحسام أشرارها وخيارها، فلم يبق من جمهور أهلها عين تطرف، حسبما عرفت أو حسبما تعرف، فلاتك متشككاً متوقفاً، فحديث تلك الواقعة الشنعاء أشهر عند المؤرخين من قفا، فأين تلك الجحافل والآراء المدارة في المحافل؟ حين أراد الله تعالى بإدالة الكفر لم تجد ولا قلامة ظفر، إذن من سلمت له نفسه

التي هي رأس ماله، وعياله وأطفاله اللذان هما من أعظم آماله، وكل أو جل أو قل ريشه وأسباب معاشه الكفيلة بانتهاضه وانتعاشه ثم وجد مع ذلك سيلاً إلى الخلاص في حال مياسرة ومساهلة دون تعصب واعتياص، بعد ما ظن كل الظن أن لا محيد ولا مناص فما أحقه حينئذ وأولاه أن يحمد خالقه ورازقه ومولاه، على ما أسداه إليه من رفده وخيره، ومعافاته مما ابتلي به كثير من غيره، ويرضى بكل إيراد وإصدار، تتصرف فيهما الأحكام الإلهية والأقدار، فالدهر غدار، والدنيا دار مشحونة بالأكدار والقضاء لا يرد ولا يصد ولا يغالب ولا يطالب، والدوائر تدور، ولا بد من نقص وكمال للبدور، والعبد مطيع لا مطاع، وليس يطاع إلا المستطاع، وللخالق القدير جلت قدرته في خليقته علم غيب للأذهان عن مداه انقطاع، ومالي والتكلف لما لا أحتاج إليه من هذا القول، بين يدي ذي الجلالة والمجادة والفضل والطول، فله من العقل الأرجح ومن الخلق الأسجح ما لا تلتاظ معه تهمني بصفره، ولا تنفق عنده وشاية الواشي لا عد من نفره، ولا فاز قدحه بظفره، والمولى يعلم أن الدنيا تلعب باللاعب، وتجرب براحتها إلى المتاعب، وقديماً للأكياس من الناس خدعت، وانحرفت عن وصالهم أعقل ما كانوا وقطعت، وفعلت بهم ما فعلت بيسار الكواعب الذي جبت وجدعت، ولئن رهصت وهصرت فقد نهيت وبصرت، ولئن قرعت ومعضت ولقد أرشدت ووعظت، ويا ويلنا من تنكرها لنا بمرة، ورميها لنا في غمرة أي غمرة، أيام قلبت لنا ظهر المجن، وغيم أفقها المصمي وأدجن، فسرعان ما عاينا حبالها منبته، ورأينا منها ما لم نحتسب كما تقوم الساعة بغته، فمن استعاذ من شيء فليستعذ مما صرنا إليه من الحور بعد الكور، والانحطاط من النجد إلى الغور:

فبينما نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فيهم سوقة نتنصف
فتباً لدينا لا يدوم نعيمها تقلب تارات بنا وتصرف
وأبيها لقد أرهقتنا إرهاقاً، وجرعتنا من صاب الأوصاب كأساً دهاقاً، ولم نفرع إلى غير بابكم المنيع الجناب المنفتح حين سدت الأبواب، ولم نلبس

غير لباس نعمائكم وحين خلعنا ما ألبسنا الملك من الأثواب، وإلى أمه يلجأ الطفل لجأ اللّهفان، وعند الشدائد تمتاز السيوف من الأجفان، ووجه الله تعالى يبقى وكل من عليها فان، وإلى هنا ينتهي القائل ثم يقول: حسبي هذا وكفان. ولا ريب في اشتغال العلم الكريم على ما تعارفته الملوك بينها في الحديث والقديم من الأخذ باليد عند زلة القدم، وقرع الإنسان وعض البنان من الندم، ديناً تدينته مع اختلاف الأديان وعادة أطردت على تعاقب الأزمان والأحيان، ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها، وأعطى من أمانة المؤكد فيه خطه بأيمانه ما يقنع النفوس ويكفيها، فلم نر، ونحن من سلالة الأحمر، مجاورة الصفر، ولا سوغ لنا الإيمان الإقامة بين ظهرائي الكفر، ما وجدنا عن ذلك مندوحة ولو شاسعة، وأما المطالب المشاغب حمة شر لنا لا سعة، وادكرنا أي ادكار قول الله تعالى المنكر لذلك غاية الإنكار: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَمِعَةً﴾ [النساء: 97] وقول الرسول عليه الصلاة والسلام المبالغ في ذلك بأبلغ الكلام: «أنا بريء من مؤمن مع كافر تتراءى ناراهما» وقول الشاعر الحاث على حث المطية المتثاقلة عن السير في طريق منجاتها البطية:

وما أنا والتلذذ نحو نجد وقد غصت تهامة بالرجال
ووصلت أيضاً من الشرق إلينا كتب كريمة المقاصد لدينا، تستدعي الانحياز إلى تلك الجنبات، وتتضمن مالا مزيد عليه من الرغبات، فلم نختر إلا دارنا التي كانت دار آبائنا من قبلنا، ولم نرتض الانصواء إلا لمن بحبله وصل حبلنا، وبريش نبله ريش نبيلنا، إدلالاً على محل إخوان متوارث لا عن كلاله، وامثالاً لوصاة أجداد لا نظارهم وأقدارهم أصالة وجلالة، إذ قد روينا عن سلف من أسلافنا في الإيضاء لمن يخلف بعدهم من أخلاقنا: أن لا يبتغوا إذا دهمهم أمر بالحضرة المرينية بدلاً، ولا يجدوا عن طريقها في التوجه إلى فريقيها معدلاً، فاخترنا إلى الرياض الأريضة الفجاج، وركبنا إلى البحر الفرات ظهر البحر الأجاج، فلا غرو أن نرد منه على ما يقر العين ويشفي النفس الشاكية من ألم البين، ومن توصل هذا التوصل وتوصل بمثل

ذلك التوسل تطارحا على سدة أمير المؤمنين، المحارب للمحاربين،
والمؤمن للمستأمنين، فهو الخليق الحقيق بأن يسوغ أصفى مشاريه ويبلغ
أوفى مآربه على توالي الأيام والشهور والسنين، ويخلص من الثبور إلى
الحبور ويخرج من الظلمات إلى النور خروج الجنين ولعل شعاع سعاده
يفيض علينا، ونفحة قبول إقباله تسري إلينا فتخامرنا أريحية تحملنا على أن
نبادر لإنشاد قول الشريف الرضي في الخليفة القادر.

عطفاً أمير المؤمنين فإننا في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبداً كلانا في المعالي معرق
إلا الخلافة ميزتك فإنني أنا عاطل منها وأنت مطوق
لا بل الأحرى بنا والأحجى، والأنجح لسعينا والأرجى، أن نعدل عن
هذا المنهاج، ويقوم وافدنا بين يدي علاه مقام الخاضع المتواضع الضعيف
المحتاج ويشد ما قال في الشيرازي ابن حجاج:

الناس يقدونك اضطراراً منهم وأفديك باختياري
وبعضهم في جوار بعض وأنت حتى أموت جاري
فعش لخبيزي وعش لمائي وعش لداري وأهل داري
ونستوهب من الوهاب تعالى جلت أسماؤه، وتعاضمت نعمائه، رحمة
تجعل في يد الهداية أعتتنا وعصمة تكون في مواقف المخاوف جنتنا، وقبولاً
يعطف علينا نوافر القلوب، وصنعاً يسني لنا كل مرغوب ومطلوب، ونسأله،
وطالما بلغ السائل سؤالاً ومأمولاً، متاباً صادقاً على موضوع الندم محمولاً،
ثم عزاء حسناً وصبراً جميلاً، عن أرض أورثها من شاء من عباده معقياً لهم
ومديلاً، وسادلاً عليهم من ستور الإملاء الطويلة سدولاً، ﴿مُسْتَهَّ اللَّهُ الَّذِي قَدْ
خَلَقَ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: 23] فليطر طائر الوسواس
المرفرف. مطيراً ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: 58] لم نستطع عن
مورده صدوراً، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38]، إلا وإن الله سبحانه
في مقامكم العالي الذي أيده وأعانه سرّاً من النصر يترجم عنه لسان من
النصل، وترجع فروع البشائر الصادقة بالفتوحات المتلاحقة من قاعدته

المتأصلة إلى أصل، فبمثله يجب اللياد والعياذ ولشبهه يحق الالتجاء والارتجاء، ولأمر ما أثرناه واخترناه، بعد أن استرشدنا الله سبحانه واستخرناه، ومنه جل جلاله نرغب أن يخير لنا ولجميع المسلمين، ويأوب بنا من حمايته ووقايته إلى معقل منيع وجناب رفيع. آمين، آمين، آمين. ونرجو أن يكون ربنا الذي هو في جميع الأمور حسبنا قد خار لنا حيث أرشدنا وهدانا، وساقنا توفيقه وحدانا إلى الاستجارة بملك حفي، كريم وفي، أعز جاراً من أبي داود، وأحمى أنفاً من الحارث بن عباد، يشهد بذلك الداني والقاصي والحاضر والباد، إن أغاث ملهوفاً فما الأسود بن قنان يذكر، وإن أنعش حشاشة هالك فما كعب بن مامة على فعله وحده يشكر، جلسه كجلس القعقاع بن شور، ومذاكره كمذاكر سفيان المنتسب من الرباب إلى ثور، إلى التحلي بأمهات الفضائل التي أضدادها أمهات الرذائل وهي الثلاث: الحكمة والعدل والعفة التي تشملها الثلاثة: الأقوال، والأفعال، والشماثل، وينشأ عنها ما شئت من عزم وحزم وعلم وحلم، وتيقظ وتحفظ واتقاء وارتقاء، وصول وطول وسماح نائل، فبنور حلاه المشرق يفتخر المغرب على المشرق، وبمجده السامي خطره في الأخطار وبيته الذي ذكره في النباهة والنجابة قد طار، يباهي جميع ملوك الجهات والأقطار، وكيف لا، وهو الرفيع المنتمي والنجار، الراضع من الطهارة صفو البان الناشئ من السراوة وسط أحجار في ضئضئ المجد وبحبوح الكرم، وسرواة أسرة المملكة التي أكتافها حرم، وذؤابة الشرف التي مجادتها لم ترم، من معشر أي معشر بخلوا أن وهبوا ما دون أعمارهم، وجبنوا إن لم يحموا سوى دمارهم. بنو مرين، وما أدراك ما بنو مرين «سم العدة وآفة الجزر» «النازلون بكل معترك، والطيبون معاهد الأزر» لهم عن الهفوات انتفاء، وعندهم من السير النبوية اكتفاء انتسبوا إلى بر بن قيس، فخرجوا في البر عن القيس، ما لهم القديم المعروف قد نفذ في سبيل المعروف، وحديثهم الذي نقلته رجال الزخوف من طريق القنا والسيوف على الحسن من المقاصد موقوف، تحمد من صغيرهم وكبيرهم، ذابلهم ولدنهم فلله آباء أنجبوهم، وأمهات ولدنهم، «شم

الأنوف من الطراز الأول» إليهم في الشدائد الاستناد، وعليهم في الأزمات المعول، ولهم في الوفاء والصفاء والاحتفاء والعناية والحماية والرعاية الخطو الواسع والباع الأطول، كأنما عناهم بقوله جرول:

أولئك قوم إن بنو أحسنوا البنا وإن عاهدوا وفوا وإن عقدوا شدوا
وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا
وتعدلني أبناء سعد عليهم وما قلت إلا بالذي علمت سعد
ويقول الوثيق مبناه البليغ معناه:

قوم إذا عقدوا عقداً لجارهم شدوا العناج وشدوا فوقه الكربا
يزيحون عن النزيل كل نازح قاصم، وليس له منهم عائب ولا واصم،
فهو أحق بما قاله في منقر قيس بن عاصم:

لا يفطنون لعيب جارهم وهم لحفظ جوارهم فطن
حلاهم هذه الغريزة التي ليست باستكراه ولا جعل، وأمير المؤمنين دام
نصره قسيمهم فيها حذو النعل بالنعل، ثم هو عليهم وعلى من سواهم
بالأوصاف المملوكية مستعل، أرفض مزنيهم منه عن غيث ملث يمحو آثار
اللزبة، وانشق عيلهم منه عن ليث ضار منقبض على برائته للوثبة، فقل
لسكان الفلا: لا تغرنكم أعدادكم وأمدادكم فلا ييالي السرحان المواشي سواء
مشي إليها النقرا أو الجفلى بل يصدمهم صدمة تحطم منهم كل عرنين، ثم
يبتلع بعد أشلاءهم المعقرة ابتلاع التنين، فهو هو كما عرفوه وعهدوه وألفوه،
وأخو المنايا «وابن جلا وطلاع الثنايا»، مجتمع أشده، قد احتنكت سنه وبان
رشده، جاد مجد، محترم بحزام الحزم مشمر عن ساعد الجد.

لا يشرب الماء إلا من قليب دم ولا يبيت له جار على وجل
أسدى القلب آدمي الروا، لابس جلد النمر يزني العناد والنوى
وليس بشاري عليه دمامة إذا ما سعى يسعى بقوس وأسهم
ولكنه يسعى عليه مفاضة دلاص كأعيان الجراد المنظم
فالنجاء النجاء سامعين له طائعين، والوجل الوجل لاحقين به خاضعين

قبل أن تساقوا إليه مقرنين في الأصفاد، ويعيي الفداء بنفائس النفوس والأموال على الفاد، حينئذ يعرض ذو الجهل والفداه على يديه حسرة وندامة، إذا رأى أبطال الجنود تحت خوافق الرايات والبنود، قد لفحتهم نار ليست بذات خمود، وأخذتهم صاعقة مثل صاعقة الذين من قبلهم عاد وشمود، زعقات تؤز الكتائب أزاً وهمزاً، محققاً للخيل بعد المد المشبع للأعنة همزاً، وسلاً للهندية سلاً وهزاً للخطية هزاً، حتى يقول النسر للذئب: «هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً» ثن خليفة الله بذاك في كل من رام أذى رعيته أو أذاك، فتلك عادة الله سبحانه في ذوي الشقاق والنفاق، الذين يشقون عصا المسلمين ويقطعون طريق الرفاق، وينصبون حبال البغي والفساد في جميع النواحي والآفاق، فلن يجعلهم الله عز وجل من الأمنين، أنى وكيف وقد أفسدوا وخانوا وهو سبحانه ﴿لَا يَصْلِحُ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: 81] و﴿لَا يَهْدِي كَيْدَ الْمُفَايِنِ﴾ [يوسف: 52] وها نحن قد وجهنا إلى كعبة مجدكم وجوه صلوات التقديس والتعظيم، بعد ما زينا معاطفها باستعطافكم بدر ثناء أبهى من در العقد التنظيم منتظمين في سلك أوليائكم، متشرفين بخدمة عليائكم، ولا فقد عزة ولا عدمها من قصد مثابكم العزيزة وخدمها، وأن المترامي على سنائككم لجدير بحرمتكم واعتنائكم، وكل ملهوف تبوأ من كنفكم حصناً حصيناً عاش بقية عمره محروساً من الضيم مصوناً، وقد قيل في بعض الكلام: «من قعدت به نكاية الأيام أقامته إغاثة الكرام»، ومولانا أيده الله تعالى ولي ما يزفه إلينا من مكرمة بكر، ويصنعه لنا من صنيع حافل يخلد في صحائف حسن الذكر، ويروي معنن حديث حمده وشكره طرس عن قلم عن بنان عن لسان عن فكر، وغيره من ينم عن ذلك فيوقظ، ويسترسل مع الغفلة حتى يذكر ويوعظ، وما عهد منذ وجد إلا سريعاً إلى داعي الندى والتكرم بريئاً من الضجر بالمطالبة والتبرم، حافظاً للجار الذي أوصى النبي ﷺ بحفظه، مستفرغاً وسعه في رعيه المستمر ولحظه، آخذاً من حسن الثناء في جميع الأوقات والآناء بحظه.

فهو من دوحة السنا فرع عز ليس يحتاج مجتنيه لهز

كفه في الأمحال أغزر ويل وذراه في الجوف أمنع حرز
 حلمه يسفر اسمه لك عنه فتفهم يا مدعي الفهم لغزي
 لا تسله شيئاً ولا تستلنه نظرة منه فيك تغني وتجزّي
 فنده هو الفرات الذي قد عام فيه الأنعام عوم الأوز
 وحماء هو المنيع الذي تر جع عنه الخطوب مرجع عجز
 قدعوا ذهنه يزاول قولي فهو أدري بما تضمن رمزي
 دام يحيى بكل صنع ومن ويعاقى من كل بوس ورجز
 وكأننا به قد عمل على شاكلة جلاله من مد ظلاله وتمهيد خلاله، وتلقى
 ورودنا بتهلله واستهلاله، وتأنيسنا بجميل قبوله وإقباله، وإيرادنا على حوض
 كوثره المترع بزاله، والله سبحانه يسعد مقامه العلي ويسعدنا به في حله
 وارتحاله، ومآله وحاله، ويؤيد جنده المظفر ويؤيدنا بتأييده على نزال عدوه
 واستنزاله، وهز الذوابل لإطفاء ذباله، وهو سبحانه وتعالى المسؤول أن يريه
 قرة العين في نفسه وأهله، وخدامه وأمواله وأنظاره وأعماله، وكافة شؤونه
 وأحواله، وأحق ما نصل بالسلام وأولى، على المقام الجليل مقام الخليفة
 المولى، وأزكى الصلاة والسلام على خاتمة أنبيائه، وإرساله، سيدنا ومولانا
 محمد ﷺ وعلى جميع أصحابه وآله، صلاة وسلاماً دائمين أبداً موصولين
 بدوام الأبد واتصاله، ضامنين لمجددهما ومرددهما صلاح فساد أعماله،
 وبلوغ غاية آماله، وذلك بمشيئة الله تعالى وإذنه وفضله وأفضاله». انتهت
 الرسالة وما كادت.

ووصل السلطان ابن الأحمر المخلوع بعد نزوله بمليية إلى مدينة فاس
 بأهله وأولاده معتزراً عما أسلفه، متلهفاً على ما خلفه، وبنى بفاس بعض
 قصور على طريق بنيان الأندلس، وتوفي بها سنة أربعين وتسعمائة ودفن بإزاء
 المصلى خارج باب الشريعة وخلف ذرية من بعده. قال في «نشر المثنائي»:
 «انقرضوا ولم يبق منهم أحد». وزعم منوئل أنه هلك في وقعة أبي عقبة في
 حرب الوطاسيين مع السعديين، قال: «ولم يحسن هذا الرجل أن يدفع عن
 ملكه فلفح عن ملك غيره».

استيلاء البرتغال على ساحل البريجيه وبنائهم مدينة الجديدة صانها الله سبحانه وتعالى بمنه

قال مؤلفه عفا الله عنه: قد وقفت لبعض البرتغاليين واسمه لويز مارية على تأليف في أخبار الجديدة من لدن بنوها إلى أن انتزعها المسلمون منهم فاقتطعت منه ما أثبتته في هذه الترجمة. قال هذا المؤلف: لما كانت سنة ألف وخمسمائة واثنين مسيحية قلت: ويوافقها من تاريخ الهجرة سنة سبع وتسعمائة تقريباً بعث سلطان البرتغال، واسمه منويل، من دار ملكه أشبونة عمارة في البحر للاستيلاء على بعض ثغور المغرب فآلجأهم هيجان البحر وموجه إلى ساحل البريجية فيما بين آزموور وتيط، وكانت البريجية على ما يفهم من كلامه بناء متخذاً هنالك للحراسة ونحوها كان يسمى برج الشيخ ولا زال مسمى بهذا الاسم إلى الآن، فأرسل البرتغاليون على الساحل المذكور ونزلت طائفة منهم إلى البر فتطوفوا بالبريجية وما حولها وأعجبهم المكان فعزموا على المقام به، واتفق رأيهم أن يتركوا جماعة هنالك يحفظون المحل ويرجع باقيهم إلى ملكهم يستأذنوه فيما عزموا عليه، فتركوا اثني عشر رجلاً بالبريجية بعد أن حصنوها وشحنوها بما يحتاجون إليه من عدة وقوت ونحوهما، ورجع الباقون إلى الملك فأخبروه بشأنهم، فأذن لهم وبعث معهم جماعة من البنائين والعملة لينتوا لهم ما يتحصنون به، فقدموا على إخوانهم وشرعوا في إدارة السور على قطعة من الأرض، فنذر بهم أهل تلك البلاد من المسلمين وتسابقوا إليهم على الصعب والذلول ففر النصارى إلى البريجية وتحصنوا بها وأفسد المسلمون كل ما كانوا عملوه في تلك الأيام وأحجروهم بحصنهم، ووضعوا عليهم الرصد إلى أن فتر عزمهم وأيسوا من نجاح سعيهم، فعاد جلهم أو كلهم إلى أشبونة وأعادوا الكلام على ملكهم منويل في شأن البريجية ووصفوا له حسن البقعة وصحة هوائها ومنزلتها من البحر، ومن قبائل أهل المغرب من أهل تامسنا ودكالة وغيرهم، وأنها عسى أن تكون سلباً للاستيلاء

على غيرها من بلاد المغرب، لا سيما ودولة المسلمين به يومئذ قد تلاشت وملكهم قد ضعف، فوقر ذلك في نفس الملك واستأنف العزم، وبعث معهم حصّة من العسكر تحصل بها الكفاية وتتأتى بها المدافعة والممانعة مع جماعة وافرة من البنائين والمهندسين، وحملهم ما يحتاجون إليه من آلة وغيرها، فانتهوا إلى الموضع المذكور بعد سبع سنين من مقدمهم الأول، وتحينوا غفلة أهل البلاد وشرعوا في بناء حصن مربع على كل ربع منه برج وثيق، ودأبوا في العمل ليلاً ونهاراً فلم تمض مدة يسيرة حتى فرغوا منه وامتنعوا على المسلمين به. وكان إنشاؤهم لهذا الحصن على البريجة القديمة بأن جعلوها أحد أرباعه وأضافوا إليها ثلاثة أرباع آخر، وأداروا السور على الجميع، واتخذوا في داخل هذا الحصن ماجلاً عظيماً لخزن الماء، وهو النظفية في لسان الجيل، بنوه مربعاً بتربيع الحصن، مساحة كل ربع منه مائة وثلاثون شبراً وجوانبه وقبوه من حجر النصف العجيب النحت المحكم الوضع والالتئام، محمولاً ذلك القبو على ستة أقواس في كل ربع. قال هذا المؤلف: وامتلاء نحو بلكاظة من هذا الماجن يسع عشرين بوطه من الماء، ثم شيدوا على أحد أرباع هذا الحصن طرياً عظيماً مرتفعاً جداً، ليس صادق التربيع ولا الاستدارة غير مهندس الشكل، ثم بنوا في أعلاه على أحد جوانبه بناء آخر لطيفاً مستديراً صاعداً في الجويرقي إليه على مدارج لطيفة، وجعلوا في أعلاه صارياً خارجاً من جوفه، وناقوساً للحراسة يشرف الحارس منه على نحو خمسة وعشرين ميلاً من سائر جهاته. وجميع هذه البناءات التي ذكرها المؤلف من الحصن وما معه لا زالت قائمة العين والأثر إلى الآن إلا الطري فإنه قد اتخذ في هذه الأيام التي هي سنة سبع وتسعين ومائتين وألف مناراً للمسجد الجامع، وذلك أن عامل الجديدة في هذا العصر، وهو الرئيس الفاضل أبو عبد الله محمد بن إدريس الجرازي حفظه الله، استأذن الخليفة، وهو السلطان الأعظم المولى الشريف أبو علي الحسن بن محمد العلوي نصره

الله، في جعله مناراً لكون المنار القديم قصيراً لا يسمع الناس الأذان، فأذن أعزه الله في ذلك، وهذا العامل اليوم جاد في إصلاحه والزيادة فيه وقد أشرف على التمام، وكذلك استأذن هذا العامل حضرة السلطان المذكور في إدارة جدار من داخل سور المدينة يكون سترة على منازل أهلها ويوتهم، لأن السور المذكور كان مرتفعاً على البلد بحيث يكون الصاعد عليه متكشفاً على البيوت، واستأذنه في إصلاح القبة المشرفة على البحر المعروفة بقبة الخياطين، وكانت قد تلاشت، وياتخاذ سجن متسع محكم عن يمين الداخل من باب المدينة المذكورة لأنه لم يكن بها سجن معتبر، فأجابه الخليفة المذكور إلى ذلك كله أدام الله علاه. وقد تم جل ذلك وعادت القبة إلى أحسن حالاتها التي كانت عليها أيام البرتغال والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

ولنرجع إلى موضوعنا الذي كنا فيه فنقول: ثم شرع نصارى البرتغال بعد الفراغ من الحصن المذكور في إدارة سور المدينة على أوثق وجه وأحكمه وذلك أنهم عمدوا إلى بقعة مربعة من الأرض مساحة كل ريع منها ثلاثمائة وخمس وسبعون خطوة، وجعلوا مركزها الحصن المذكور ثم أداروا بها سورين عاديين ثخن الخارج منهما نحو خمسة عشر شبراً، والداخل على نحو الثلاثين منه، وبينهما فضاء مردوم بالتراب والحجارة الصغيرة، فصار السوران بذلك سوراً واحداً سعته خمسون شبراً، وهذا في غير الربع الموالي للبحر، أما هو فليس فيه ردم وإنما هو سور واحد مصمت أضيق مما عداه يسيراً وارتفاع هذه الأسوار من داخل البلد نحو ستين شبراً ومن خارجه نحو السبعين. ثم أداروا خارج السور خندقاً فسيحاً وجعلوا عمقه أربعة عشر شبراً بحيث بلغوا به الماء وإذا فاض البحر ملأ ما بين جوانبه. واتخذوا للمدينة ثلاثة أبواب أحدها للبحر وهو باب المرسى، وقد سد بالبناء في هذه السنين، واثنان للبر وجعلوا أمامهما قنطرتين بالعمل الهندسي بحيث ترفعان وتوضعان وقت الحاجة إلى ذلك، فصارت المدينة بهذا كله في غاية المناعة.

وكان بنو وطاس في هذه المدة أشغل من ذات النحيين مع برتغال سبتة وطنجة وسائر بلاد الهبط، فلذا تأتى لهؤلاء النصارى أن يفعلوا ما فعلوه في هذه المدة اليسيرة، وجعلوا داخل المدينة خمس حارات وسموا كل حارة باسم كبير من قدمائهم على عادتهم في ذلك، واتخذوا بها أربع كنائس، واتخذوا المخازن والأهراء للاختزان وسائر المرافق ومن جعلتها هرى كان يسع ستمائة فنيكة من الحب وأوطنوها بأهلهم وعيالهم، وكان فيها جماعة من أشrafهم وذوي بيوتاتهم من أهل أشبونة وغيرها، وكانوا يعدون فيها أربعة آلاف نفس ما بين المقاتلة والعيال والذرية، وكانوا يأملون الاستيلاء منها على مراكش فخبب الله رجاءهم، ثم ذكر هذا المؤلف ما كان يقع بين المسلمين ونصارى الجديدة من الحروب والغارات مما لعلنا نشير إلى بعضه في محله إن شاء الله.

استيلاء البرتغال على سواحل السوس وبنائهم حصن فونتي قرب أكادير وما قيل في ذلك

ذكر بعض المؤرخين من الفرنج أن استيلاء البرتغال على أكادير كان في مدة ملكهم منويل المذكور آنفاً وإن ذلك كان على حين غفلة من أهل تلك البلاد.

قال منويل: «لما علم طاغية البرتغال منويل أن مرسى أكادير جيدة لمناعتها وكثرة تجارتها بسبب مجاورتها لقبائل السوس أراد الاستيلاء عليها وكان يظن أن ذلك لا يتأتى له لحصانتها وكثرة القبائل المجاورين لها، ثم خاطر وبعث إليها جيشاً فاستولوا عليها على حين غفلة من أهلها وحصنوها وبنوا بها دوراً وبرجاً جيداً وأخذوا في التجارة بها مع أهل السوس، وكثرت أرباحهم. ثم لما ضعفت شوكتهم خرجوا عنها وعن آسفي وآزمور». قلت: مراده بأكادير حصن فونتي القريب منه، وإلا فأكادير إنما بني بعد هذا التاريخ

بكثير كما سيأتي. ثم مقتضى ما ذكره أن يكون زمان استيلائهم عليه موافقاً أو قريباً لزمان استيلائهم على البريجة، ومقتضى ما نقله في «النزهة» عن ابن القاضي أن يكون استيلائهم عليه في حدود سنة خمس وسبعين وثمانمائة فإنه لما وصف حال السلطان محمد الشيخ السعدي الآتي ذكره إن شاء الله قال: «وكان له بخت عظيم في الجهاد فتح حصن النصارى بسوس بعد أن أقاموا به اثنتين وسبعين سنة» اهـ. وكان فتحه إياه في حدود سبع وأربعين وتسعمائة، والظاهر أنهم استولوا على بعض حصون السوس في التاريخ الأول وعلى بعضها في الثاني، والله أعلم.

وفاة السلطان محمد الشيخ الوطاسي رحمه الله

ذكر ابن القاضي في «الجدوة»: «أن وفاة السلطان المذكور كانت سنة عشر وتسعمائة» قال: «ومن حملة وزرائه أخوه الناصر بن أبي زكرياء» والله أعلم. وولي الأمر من بعده ابنه محمد البرتغالي على ما نذكره.

الخبر عن دولة السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسي المعروف بالبرتغالي رحمه الله

لما توفي السلطان محمد الشيخ ببيع ابنه محمد البرتغالي في التاريخ المتقدم وكان نصارى سبتة وطنجة وأصيلا قد استحوذوا على بلاد الهبط وضايقوا المسلمين بها حتى ألجأوهم إلى قصر كتامة، فكان هو الثغر يومئذ بين بلاد المسلمين وبلاد النصارى كما مر، وكان السلطان محمد هذا قد غني بجهادهم وترديد الغزو إليهم والإجلاب عليهم حتى شغل بذلك عن البلاد المراكشية وسواحلها، فكان ذلك سبباً لظهور الدولة السعدية بها سنة خمس عشرة وتسعمائة على ما نذكره إن شاء الله.

استيلاء البرتغال على ثغر آسفي حرسه الله

قال منويل: «كان البرتغال قد تشوفوا للاستيلاء على آسفي، وكان أهلها فيهم شجاعة أكثر من غيرهم من أهل الثغور، فزحفوا إليها وجرى بينهم وبين أهلها قتال شديد هلك فيه عدد كبير من البرتغال، وعظم عليهم أن تمتنع منهم بلدة صغيرة ليس لها حامية سوى أهلها، ثم طاولوها بالحصار حتى قل القوت عند أهل آسفي وأشرفوا على الهلاك، فحينئذ شارطوا البرتغال وأسلموها إليهم على الأمان. فاستولوا عليها وحصنوها غاية لتوقعهم كرة المسلمين عليهم، فكان كذلك فإنهم زحفوا إليهم بعد ثلاث سنين من أخذها ووقع بينهم وبين البرتغال حرب شديدة، كانت صفوف المسلمين تترادف فيها كأمواج البحر، وقتل قواد عسكر البرتغال وكبارهم، ثم قدمت عليهم شكوادره من مادرة بالعسكر والزاد فقويت نفوس البرتغال وارتحل المسلمون عنها بعد أن أشرفوا على الفتح، وتبعهم البرتغال ليتنهزوا فيهم الفرصة فكر المسلمون عليهم واستلبوهم. وهذا أول حصار كان على آسفي.

ثم بعد سنين قلائل زحف المسلمون إليها أيضاً ومعهم عدد من المدافع، وقاتلوا قتالاً صعباً وزحفوا إلى السور فهدموا منه ثلثة كبير واشتد القتال عليها بما خرج عن العادة، ثم رحل المسلمون من غير فتح وأعرضوا عنها مدة لم يحدثوا أنفسهم بالقتال، وعمرت آسفي بالنصارى وانتقل إليها التجار وبنوا بها الدور، وكانوا يسقون منها الحب ويحملونه في السفن إلى بلادهم، ولعل ذلك لهدنة كانت لهم مع المسلمين.

ثم عادت للمسلمين بعد نحو ثلاث وعشرين سنة وقال الشيخ أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في «مرآة المحاسن» ما نصه: «قرأت بخط شيخنا أبي عبد الله القصار أن صاحب آسفي أخرج الشيخ أبا عبد الله محمد بن سليمان الجزولي منها فدعا عليهم، فسئل منه العفو، فقال: «أربعين سنة» فأخذها النصارى بعدها» اهـ. وهذا يقتضي أن استيلاءهم عليها كان في حدود

عشر وتسعمائة، لأن وفاة الشيخ الجزولي رحمه الله كانت في سنة سبعين وثمانمائة كما مر. وعند الفرنج ما يقتضي أن استيلاءهم عليها كان بعد ذلك بستين أو ثلاث. والله أعلم.

زحف السلطان أبي عبد الله البرتغالي إلى أصيلا

قال منويل: «لما أفضى الأمر إلى السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسي أراد أن يأخذ بثأره من البرتغال الذين أسروه لسبع سنين، فزحف إلى أصيلا في حدود أربع عشرة وتسعمائة وحاصرها وطال قتاله عليها ثم اقتحمها المسلمون عليهم اقتحاماً واقتتلوا في وسط الأزقة والأسواق يومين ثم جاء المدد إلى البرتغال من طنجة وجبل طارق فقويت نفوسهم وخرج المسلمون عنهم، لكن ما خرجوا حتى هدموها وأحرقوها ولم يتركوا لهم بها إلا الخربات، ثم جد البرتغال في إصلاحها وأقاموا بها برهة من الدهر إلى أن رجعت للمسلمين».

استيلاء البرتغال على ثغر آزمور حرسه الله

قال منويل: «بعث طاغية البرتغال أربع عشرة وتسعمائة إلى ثغر آزمور شكواه فيها ألفان من العسكر وأربعمائة خيالة، فدافعهم زيار الوطاسي ابن عم السلطان، ونشبت مراكب البرتغال في الساحل، وتكسر جلها وعاث فيها المسلمون، ورجع الباقي مفلولاً. ثم بعد أربع سنين بعث إليها الطاغية منويل شكواه فيها عشرون ألفاً من العسكر وألفان وسبعمائة خيالة فانتهوا إلى آزمور وحاصروها بحراً، وزحفوا إليها من الجديدة برّاً، ووقع حرب شديدة بينهم وبين أهل آزمور وأهل البادية. ثم انهزم المسلمون وخرجوا من باب تركه لهم البرتغال قصداً» قال: «لأنه يقال في المثل: الفار منك في الحرب

اجعل له قطرة من فضة يعبر عليها».

وقال في «النزهة»: «كان نزول النصارى بآزمور سنة أربع عشرة وتسعمائة» قال: «وفي هذه السنة بنى النصارى حجر باديس. وفي أواخر المحرم منها أخذ النصارى - يعني الإصبيول - مدينة وهران ونكبوا أهلها، فما منهم إلا أسير أو قتل إلى أن أعادها الله للإسلام على يد الأتراك في حدود العشرين ومائة وألف» اهـ.

قلت: أهل آزمور يزعمون أن استيلاء البرتغال على مدينتهم كان متكرراً وسيأتي ما يفهم منه ذلك والله أعلم.

ومن أخبار السلطان أبي عبد الله ما وقفت عليه في تاريخ البرتغاليين من أن السلطان المذكور كتب لطاغيته منويل يطلب منه أن يتقدم بالوصاية لأصحاب قراصينه البحرية أن لا يتعرضوا لمركبين له كان قد عزم على بعثهما إلى الجزائر ثم منها إلى تونس. وكان الطاغية لم يجبه أو أبطأ بالجواب، فكرر إليه الكتاب ثانياً في القضية المذكورة، وسرد هذا المؤرخ نص الكتابين معاً مترجمين بلغته، وذكر أن تاريخ الأول منهما الثالث والعشرون من جمادى سنة عشرين وتسعمائة، وتاريخ الثاني الثامن والعشرون من ذي القعدة من السنة. اهـ.

استيلاء البرتغال على ثغر المعمورة حرسه الله

قال في «نشر المثنائي»: «إن الذي اختط حصن المعمورة هو المهدي الشيعي على يد بعض عماله، وزعم بعض الفرنج أن المعمورة من بناء يعقوب المنصور الموحيدي» قال: «ولما كان زمن منويل البرتغالي بلغه أن مينا المعمورة جيدة، وبلادها نفاة، فبعث إليها طائفة من جنده، فوصلوا إلى ساحلها ونزلوا في البر المقابل لها وبنوا هنالك برجاً لحصارها، ثم أردفهم ملكهم المذكور بعمارة تشتمل على مائتي مركب مشحونة بثمانية آلاف

من المقاتلة» قال: «وكان خروج هذه العمارة من مدينة أشبونة في اليوم الثالث عشر من يونيه العجمي سنة ألف وخمسمائة وخمس عشرة مسيحية، قلت: يوافقها من تاريخ الهجرة تقريباً سنة إحدى وعشرين وتسعمائة، فوافقت مينا المعمورة في الثالث والعشرين من يونيه المذكور وحاصروها وألحوا عليها بالقتال أياماً وبلغ الخبر بذلك إلى السلطان أبي عبد الله البرتغالي فبعث أخاه الناصر صريحاً في جيش كثيف، فوصل سادس أغشت من السنة المذكورة، وقاتل البرتغال قتالاً شديداً وهزمهم هزيمة قبيحة، ثم كانت لهم الكرة على المسلمين فهزموهم واستولوا على المعمورة وثبت قدمهم بها وحصنوها بالسور الموجود بها الآن واستمروا بها نحو خمس سنين ثم استرجعها المسلمون منهم في دولة السلطان المذكور والله تعالى أعلم، وفي السنة التي استولوا على المعمورة رجعوا إلى موضع مدينة أنفي فشرعوا في بنائها، ومن يومئذ سميت الدار البيضاء، ويقوا بها مدة طويلة إلى زمن السلطان المولى عبد الله بن إسماعيل على ما زعم منويل».

أخبار السلطان أبي عبد الله البرتغالي مع الشيخ أبي محمد الغزواني رضي الله عنه

أصل الشيخ أبي محمد عبد الله الغزواني دفين حومة القصور من مراكش من غزوان، قبيلة من عرب تامسنا، وكان في ابتداء أمره يقرأ العلم بمدرسة الوادي من عدوة الأندلس بفاس، فحصلت له إرادة فسافر إلى مراكش ولازم الشيخ التابع وتخرج به. ثم انتقل إلى بلاد الهبط فنزل بها على قبيلة يقال لهم بنو فرنكار، واجتمع عليه الناس واشتهر أمره، وعظم صيته، فبلغ ذلك السلطان أبا عبد الله وكان يومئذ ببلاد الهبط قد خرج إليها بقصد الغارة على نصارى آصيلا، وكان معه في هذه الحركة الشيخ أبو عبد الله محمد بن غازي - الإمام المشهور -، فتوهم السلطان المذكور من أمر الشيخ الغزواني وخشي

على الدولة عاقبة أمره، وأغراه به مع ذلك الفقيه ابن عبد الكبير البادسي السفيناني الأصل. وكان هذا الفقيه يصحب الولاة والعمال ويخرج في بعوثهم قاضياً، فكثرت سعايته بالشيخ حتى وقر ذلك في نفس السلطان فبعث إليه فحضر وأمر بالقبض عليه بالموضع المعروف بتاجناوت، وجعله في سلسلة وبعث به إلى فاس، وتقدم في شأنه إلى ابن شقرون صاحب شرطته بقصبة فاس القديم، وكان الشيخ ابن غازي قد مرض في هذه الغزوة وأمر السلطان بحمله إلى منزله من فاس، فلما وصل إلى قرب عقبة المساجين اشتد به الحال وأمر أصحابه أن يريحوا به هنالك، فبينما هو كذلك إذ مر به الشيخ الغزواني في سلسلته فسأل الموكلين به أن يعوجوا به على الشيخ ابن غازي كي يعودوه ويؤدي حقه، فلما وقف عليه طلب ابن غازي منه الدعاء فدعا له بخير، وانصرف، فلما غاب عنه قال ابن غازي لأصحابه: «احفظوا وصيتي فإنني راحل عنكم إلى الله تعالى بلا شك» قالوا له يا سيدي: «ما عندك باس» فقال: «إن الله وعدني أن لا يقبض روحي حتى يريني ولياً من أوليائه، وقد أرانيه الساعة فدلني ذلك على انقضاء الأجل» فحملوه من حينه إلى منزله فكان آخر العهد به. هكذا ساق هذا الخبر صاحب «الدوحة» في ترجمتي الشيخين المذكورين.

وكانت وفاة ابن غازي أواخر جمادى الأولى سنة تسع عشرة وتسعمائة وقال صاحب «المرآة» عن بعض شيوخه بعد أن ذكر سعاية ابن عبد الكبير بالشيخ الغزواني ما نصه: «فتحرك الشيخ الغزواني لزيارة ضريح الشيخ أبي سلهام فعرض له العروسي قائد القصر الكبير وناولوه كتاب السلطان يأمره فيه بقدم الشيخ إلى فاس دار الملك إذ ذاك، فقال له الشيخ: «طاعة السلطان واجبة» وقال للزائرين معه: «بلغت النية» فتوجه الشيخ إلى فاس من ذلك المكان وكلما بات في منزل ذهبت جماعة من الذين معه فلم يصل معه إلا القليل. وكان الشيخ أبو البقاء عبد الوارث الياصوتي إذ ذاك ساكناً بفاس،

ولم يكن صحب الشيخ قبل ذلك، فلما دخل الشيخ حضرة فاس لقيه أبو البقاء المذكور فسلم عليه، فشد الشيخ يده على يده فلم يرسلها حتى عاهده على الرجوع، فلما انفصل عنه اشترى خبزاً وعنباً وحمل ذلك إلى الشيخ وأصحابه فوجدهم عند القاضي أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله اليفرني المكناسي، وهو مؤلف «المجالس المكناسية»، فوجدهم في المسجد القريب من دار القاضي المذكور بدرب السعود، فناولهم ما معه ووجد الشيخ موكلاً به وأصحابه يدخلون ويخرجون. ثم دخل القاضي على الشيخ بالمسجد فقال له: «ما هذا الذي يذكر عنك؟» قال أبو البقاء: «فتكلمت أنا وقلت: إن هذا الرجل قد نزل بلداً عظيمة المناكر وأخذت أعدد منكرها، وصار هذا السيد ينهاهم عن ذلك، فهدى الله على يده من هدى وشنئه من أبي» فقام القاضي وركب إلى دار السلطان، ثم رجع إلى منزله فبات ومن الغدر ركب إلى دار السلطان أيضاً ومعه الشيخ الغزواني، فلما اطمأن بهم مجلس السلطان وكان فيه صاحب تازا، وهو أبو العباس أحمد ابن الشيخ أخو السلطان المذكور، سكت الجميع وتكلم كاتب السلطان وإمام صلاته. قال صاحب «المرآة»: «ولم يسم لنا». فقال للشيخ: «ما هذا الذي يذكر عنك؟» فقال له الشيخ: أنت لا تتكلم حتى تغتسل من جنابتك فاستشاط إلكاتب غضباً، فقال له أخو السلطان: «هؤلاء القوم يعنون الجنابة غير ما تعنيه العامة» - يشير إلى ما في الحكم - فقال له السلطان: «من أين تعرف هذا؟» فقال له: «من سيدي محمد بن عبد الرحيم بن يجيش» ففرح السلطان بمعرفة أخيه ذلك وقال للشيخ: «نحن نريد قربك وأن تكون معنا في هذه المدينة» فقال له: «على بركة الله» فانتقل إلى فاس القديم وبنى خارج باب القليعة داخل باب الفتوح وأقام هنالك ما شاء الله، قيل سبع سنين إلى أن كانت سنة تعذر فيها المطر وأخذ الناس في استخراج السواقي للحرث فأخرج الشيخ من وادي اللين ساقية لم يكن

في سواقي السلطان وغيره مثلها، فبعث إليه أخوه السلطان، وهو الناصر، الملقب بالكديد بالكاف المعقودة والదال المشددة على لغة العامة، وقال له: «نحن أحق بتلك الساقية» فقال له الشيخ: «خذها» وأخذ في الرحيل إلى مراكش ولما توجه تلقاءها أخذ خنيفه في يده وجعل يشير به من جهة فاس إلى جهة مراكش ويقول: «أيا يا سلطنة إلى مراكش»، قال صاحب المرأة: «هذا حديث شيخنا أبي عبد الله النيجي» قال «وأخنيف معروف وهو نوع من البرانس السود ومعنى أيا بلغة عامة المغرب: سيرى معي»: وموضع بني فزنكار أظنه تاصروت فإن بها رسماً منسوباً إليه إلى الآن، وأنه منزله الذي كان يأوي إليه، وما زالت آثاره هنالك، والدار التي بنى بيباب القليعة هي المتصيرة إلى تلميذه الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي الهروي المعروف بالطالب، ولعل سنة إخراج السواقي هي سنة ست وعشرين وتسعمائة، فإنه قد تعذر فيها المطر وحدث الغلاء الكبير المؤرخ بسنة سبع وعشرين وتسعمائة، وكأنه أشار إلى انتقال السلطنة عن بني وطاس ملوك فاس إلى الشرفاء السعديين ملوك مراكش يومئذ والله أعلم.

نهوض السلطان أبي عبد الله البرتغالي إلى مراكش ومحاصرته أبا العباس الأعرج السعدي بها

قد تقدم لنا أن ظهور الدولة السعدية ببلاد السوس كان في سنة خمس عشرة وتسعمائة، وما زال أمرهم في الزيادة إلى أن كانت دولة أبي العباس الأعرج منهم، فاستفحل أمره وبعد صيته، وفتك بنصاري السوس فكاتبه أمراء هنتاة أصحاب مراكش ودخلوا في طاعته، فانتقل إليها وملكها في حدود الثلاثين وتسعمائة. ولما اتصل خبره بالسلطان أبي عبد الله وهو يومئذ بفاس قامت قيامته، وأقبل في جموع عديدة ومعه وزيره ابن عمه المسعود بن الناصر كذا في «الترجمة». والذي عند غيره: أن الوزير الذي جاء معه هو الناصر

أخو السلطان المذكور. ولما رأى أبو العباس السعدي ما لا قبل له به تحصن بمراكش وشحن أسوارها بالرماة، فتقدم السلطان أبو عبد الله ونصب الأنفاض على مراكش ودام الحصار عليها أياماً، فيحكى أنه قيل للشيخ أبي محمد الغزواني وكان قد استوطن مراكش يومئذ: أن أهل مراكش ستموا الحصار، فركب الشيخ في جماعة من أصحابه وخرج من باب فاس المعروف اليوم بباب الخميس، فوجد رماة السلطان أبي عبد الله يرمون من علا الأسوار من أهل البلد فوقف الشيخ ينظر فجاءت رصاصة ضربت صدره وخرقت الجبة التي عليه والتصقت بلحمه كأنها وقعت في صخرة صماء، فقبض عليها بيده وقال: «هذه خاتمة حربهم» ثم رجع إلى منزله فوردت الأنباء على السلطان أبي عبد الله في تلك الليلة بأن بني عمه قد قاموا عليه بفاس ونبذوا دعوته، فأصبح من الغد راحلاً إلى فاس، وظهر مصداق ما قال الشيخ الغزواني، ولم يعد لبني وطاس وصول بعدها إلى مراكش ولا إلى أعمالها، والله تعالى أعلم.

ذكر وزراء السلطان أبي عبد الله وما قيل فيهم

كان من جملة وزرائه: ابن عمه المسعود بن الناصر، وهو الذي زحف معه إلى مراكش على ما في «النزهة»، وكان من جملة وزرائه القائمين بأمره: أخوه الناصر بن محمد الشيخ، المعروف عند عامة فاس بأبي علاقة وبالكديد على ما مر. قال في «الجدوة»: «لقب بذلك لكثرة سفكه الدماء وإقدامه عليه، فكان يقتل الناس ويجزهم كثيراً، وكذا بمكناسة أيام وزارته بها، كذا حدث غير واحد ممن أدرکه ورآه وتوفي الوزير المذكور سنة ثلاثين وتسعمائة».

وفاة السلطان أبي عبد الله رحمه الله

كانت وفاة السلطان أبي عبد الله البرتغالي سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة على ما في «الجدوة». ويؤخذ من «النزهة» أنها كانت سنة اثنتين وثلاثين بعدها والله أعلم. وولي الأمر من بعده أخوه أبو حسون بولاية عهده إليه.

الخبر عن الدولة الأولى للسلطان أبي حسون بن محمد الشيخ الوطاسي

هو أبو الحسن علي بن محمد الشيخ ابن أبي زكرياء يحيى بن زيار الوطاسي، ويعرف بأبي حسون البادسي. قال في «التزهة»: «ببيع بفاس سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ثم قبض عليه ولد أخيه أبو العباس أحمد بن محمد البرتغالي وخلعه وأشهد عليه بالخلع آخر ذي الحجة من السنة المذكورة» انتهى.

الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد بن محمد الوطاسي رحمه الله تعالى

هو أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد البرتغالي ابن أبي عبد الله محمد الشيخ ابن أبي زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي، ببيع يوم خلع عمه أبي حسون آخر ذي الحجة من سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة، قال ابن القاضي: «وقد رأيت البيعة التي كتبت له بخط الإمام أبي محمد عبد الواحد ابن أحمد الوانشرسي من إنشائه وعليها خطوط جماعة من فقهاء فاس كأبي العباس الحباك، والفقهاء أبي العباس أحمد الماواسي وغيرهما» اهـ.

قال أبو عبد الله اليفرنى في «التزهة»: «وانظر ما وجه كتب البيعة لأحمد مع أن خلع أبي حسون لم يكن لموجب، والوانشرسي من أهل الورع وقال: ولعله لأمر لم يظهر لنا والله أعلم» اهـ. وقال ابن عسكر في «الدوحة»: «لما توفي السلطان أبو عبد الله البرتغالي ودالت الدولة لولده السلطان أبي العباس أحمد وغص بالشرفاء القائمين عليه ببلاد السوس وزوحم بهم، عقد الهدنة مع النصارى المجاورين له ببلاد الهبط، وصاحبهم سلطان البرتغال، فبلغ ذلك الشيخ أبا عبد الله محمد بن يحيى البهلولي، وكان له رغبة في الجهاد وممن له وصلة بالسلطان أبي عبد الله، فكان إذا جاءه زائراً حضه على الغزو

فيساعده على ما أراد من ذلك . فلما بلغ الشيخ المذكور ما عقده السلطان أبو العباس من الصلح آلى على نفسه أن لا يلقى السلطان المذكور، ولا يمشي إليه ولا يقبل منه ما كان عينه له والده من جزية أهل الذمة بفاس لقوته وقوت عياله، فمكث على ذلك إلى أن حضرته الوفاة، وكان في النزاع وأصحابه دائرون به فقال له بعضهم . «يا سيدي أخبرك أن السلطان أمر بالغزو وأمر بالنداء به، وحض الناس عليه، والمسلمون في شره لذلك وفرج» ففتح الشيخ عينيه وتهلل وجهه فرحاً وحمد الله وأثنى عليه، ففاضت نفسه وهو مسرور بذلك . اهـ.

وقعة أنماي بين الوطاسيين والسعديين

قد تقدم لنا في خبر السلطان أبي عبد الله أنه لما حاصر مراكش وأصابته الرصاصة الشيخ الغزواني قال: «هذه خاتمة حربهم» ولم يعد لبني وطاس وصول إلى مراكش ولا إلى أحوازها. قال في «النزهة»: فكان أبو العباس الأعرج يتلاقى مع أبي العباس الوطاسي بتادلا وأحوازها» قال: «وكانت بينهما معركة بموضع يقال له أنماي وذلك في ذي القعدة سنة خمس وثلاثين وتسعمائة فافترقا على اصطلاح» اهـ. وأنماي موضع قرب مراكش به زاوية الشيخ أبي العزم رحال الكوش.

عقد الصلح بين السلطانين أبي العباس الوطاسي وأبي العباس السعدي رحمهما الله تعالى

لما رأى أهل المغرب ما وقع بين السلطان أبي العباس أحمد الوطاسي صاحب فاس، وأبي العباس أحمد السعدي المعروف بالأعرج صاحب مراكش من التقاتل على الملك والتهالك عليه، وفناء الخلق بينهم، دخلوا في الصلح بينهم والتراضي على قسمة البلاد، وحضر لذلك جماعة من العلماء والصلحاء منهم أبو حفص عمر الخطاب دفين جبل زرهون، وأبو الرواين المحجوب دفين مكناسة الزيتون، وكان صاحب حال وجذب، فجعل الناس يوصونه بالسكوت مخافة أن يفسد عليهم أمرهم، فلما دخلوا على أبي العباس الأعرج وأخيه وزيره محمد الشيخ وتكلموا فيه جاءوا لأجله، وجدوا فيهما شدة وغلظة وامتناعاً من مساعدتهم على ما أرادوا، فحلف أبو حفص الخطاب لا دخلوها - يعني فاساً - ما دمت على وجه الأرض. فما دخلوها حتى مات بعد مدة. فكان بعضهم يقول لو كان بنو وطاس يعرفون شيئاً ما دفنوا أبا حفص الخطاب - يعني لتركوه في تابوت على وجه الأرض - لأنه حلف لا دخلوها ما دام على وجه الأرض، حكاه صاحب «ممتع الأسماع». وذكر في شرح «زهرة الشماريخ»: أن الصلح انبرم بين الطائفتين، على أن للأشراف من تادلا إلى السوس، ولبنى وطاس من تادلا إلى المغرب الأوسط، وإن ممن حضر الصلح المذكور قاضي الجماعة بفاس أبا الحسن علي بن هارون المطغرى - بالطاء المهملة - مطغرة تلمسان، والإمام الشهير أبا مالك عبد الواحد بن أحمد الوانشرسي وغيرهما من مشايخ فاس. ويذكر أنه لما تواطأت كلمة الحاضرين على الصلح وعقدوا شروطه، وهذأت الأصوات، وسكن اللجاج، أتى بدواة وقرطاس ليكتب الصلح، فما وضعت الدواة بين يدي أحد الفقهاء الحاضرين إلا وجم وانقبض ودفعها عن نفسه، استحياء في ذلك المحفل أن يكتب ما لا يناسب الجهتين، فقام قاضي الجماعة المذكور وأخذ الدواة وأساورها ووضعها بين يدي أبي مالك

المذكور، فأنشأ أبو مالك في الحين خطبة بليغة ونسج الصلح على منوال عجيب، واخترع أسلوباً غريباً تحير فيه الحاضرون وعجبوا من ثبات جأشه، وجموم قريحته في مثل ذلك المشهد العظيم الذي تخرس فيه ألسن الفصحاء هيبة وإكباراً، فقام قاضي الجماعة وقبله بين عينيه وقال: «جزاك الله عن المسلمين خيراً»، «وما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر» وكان ذلك كله في حدود أربعين وتسعمائة» اهـ.

غزوة الحمر قرب أصيلا حرسها الله

ذكر صاحب «الدوحة» في ترجمة الشيخ أبي الحسن علي بن عثمان الشاوي رحمه الله، أنه استشهد في وقعة الحمر التي كانت في حدود أربعين وتسعمائة بين النصارى والقائد عبد الواحد بن طلحة العروسي على مقربة من أصيلا. قال: «حدثني غير واحد ممن يوثق به ممن حضر الوقعة وبعضهم يصدق بعضاً قالوا: لما انهزم الناس استقبل الشيخ أبو الحسن النصارى وسيفه في يده وهو يتلو بردة البوصيري، فكان ذلك آخر العهد به، ولما رجع الناس من الغد ليحملوا قتلاهم لم يوقف له على عين ولا أثر، وإنما وجد غناز من لباسه عند النصارى وفيه أثر طعنة في صدره» اهـ. كلام الدوحة.

وفي «المرآة»: «أن الشيخ المذكور مات في حياة شيخه الغزواني شهيداً في الجهاد سنة خمس وعشرين وتسعمائة» اهـ. ولعله الصواب.

والعروسي المذكور هو من أمراء بني عبد الحميد العروسيين أصحاب قصر كتامة، وكانت لهم رئاسة وسياسة وجهاد في العدو إلى أن انقرض أمرهم أعوام الخمسين وتسعمائة.

قال في «الدوحة»: «أخبر غير واحد من فقهاء قصر كتامة أن الشيخ أبا الرواين جاء إلى القصر، وصاحبه يومئذ القائد عبد الواحد العروسي، في عصابة من أقاربه أولاد عبد الحميد، فصعد أبو الرواين صومعة المسجد ثم نادى بأعلى صوته. «يا بني عبد الحميد اشتروا مني القصر وإلا خرجتم منه

في هذه السنة»، فسمع القائد عبد الواحد ذلك فقال: «إن كان القصر له أو بيده فلينزعه منا، ما بقي لنا إلا كلام الحمقى نلتفت إليه» ومن الغد، خرج الشيخ أبو الرواين من البلد وهو يقول: «القائد عبد الواحد وأهله يخرجون من القصر ولا يعودون إليه أبداً». فكان كذلك بقدره الله تعالى.

وقعة أبي عقبة بوادي العبيد وما كان فيها بين الوطاسيين والسعديين من القتال الشديد

هذه الوقعة من أعظم الوقعات التي كانت تكون بين الوطاسيين والسعديين وما زالت العامة تتحدث بها في أنديتها إلى الآن، وبيالغون في وصفها والأخبار عنها، وقد ذكرها شعراؤهم في أزجالهم الملحونة، وهي محفوظة فيما بينهم، وذلك أنه لما طمى عباب السعديين على بلاد الحوز وكادوا يلجون على الوطاسيين دار ملكهم من فاس، نهض إليهم السلطان أبو العباس الوطاسي أواخر سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة يجر الشوك والمدر في جمع كثيف من الجند وقبائل العرب في حللها وظعنها، وجاء أبو العباس السعدي في قبائل الحوز بحللها وظعنها كذلك فكان اللقاء بمشروع أبي عقبة، أحد مشارع وادي العبيد من تادلا فتشبت الحرب، وتقاتل الناس، وبرز أهل الحفائظ منهم والترات، وقاتل الناس على حرمهم وأحسابهم وعزهم، فأفنى بعضهم بعضاً إلا قليلاً، ودامت الحرب أياماً على ما قيل إلى أن كانت الهزيمة على الوطاسيين عشية يوم الجمعة ثامن صفر سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة. قال في «الجدوة»: «فرجع السلطان أبو العباس الوطاسي إلى فاس وبقيت محلته وقصبة تادلا بين الشريف السعيد» قال: «وتسمى هذه السنة سنة أبي عقبة».

وقال في «المرآة»: «ومما اشتهر من كرامات الشيخ أبي طلحة محمد المصباحي الشاوي الزناتي أنه لما التقى مقاتلة فاس وسلطانهم أبو العباس أحمد الوطاسي ومقاتلة مراکش وسلطانهم أبو العباس أحمد الأعرج ومعه

أخوه المتولي بعده أبو عبد الله محمد الشيخ سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة على مشرع أبي عقبة من وادي العبيد انهزم السلطان أبو العباس الوطاسي وتفرقت جموعه وتبعته الخيل فكادوا يقبضون عليه، فحضر هنالك رجل على فرس أنثى فجعل يحول بينه وبينهم ويقول له: «سرياً أحمد ولا تخف» ولم يزل معه إلى أن رجعوا عنه وأمن الطلب، وقد عرف السلطان صفته وتحققها ولم يزل يسأل عن صاحب تلك الصفة حتى قيل له: هذه صفة أبي طلحة المصباحي، وتحقق ذلك، ولما كان خروج السلطان المذكور الذي وصل فيه تطاوين وتزوج بها الحرة بنت الأمير السيد أبي الحسن علي بن موسى ابن راشد الشريف، وذلك في ربيع الأول سنة ثمان وأربعين وتسعمائة. ويتطاوين بنى بها وقصد أبا طلحة المذكور ونزل عليه، فلما رآه عرفه وأيقن أنه الرجل الذي أغاثه فأكب عليه السلطان وذكر ما وقع له معه فقال الشيخ: «يا رب كيف العيش مع هذه الشهرة فاقبضني إليك» فمات عقب ذلك من سته قال في «المرأة»: «سمعت هذه الحكاية من غير واحد وسألت شيخنا أبا القاسم بن أبي طلحة المذكور فقال لي: «أعقل مجيء السلطان وأنا صغير جداً أقعد في حجر أبي وعند ركبته» اه. قلت والأمير أبو الحسن بن راشد المذكور هو الذي اختط مدينة شفشاون كما مر. وذكر في «المرأة»: أن وفاته كانت سنة سبع عشرة وتسعمائة، فيكون السلطان المذكور إنما تزوج ابنته بعد وفاته ولعله خطبها من أخيها الأمير أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن والله أعلم.

واعلم أن ما سلكناه هنا من تقديم قضية الصلح على وقعة أبي عقبة هو ما يقتضيه التاريخ الذي صرحوا به، وسيأتي بعد هذا ما ربما يفهم منه أن الأمر بالعكس. والجواب أن قضية الصلح تكررت حسبما يؤخذ مما مر والله أعلم. وفي هذه السنة أيضاً عقد السلطان أبو العباس الوطاسي مع برتقال آسفي صلحاً على ثلاث سنين، ودخل في هذا العقد آسفي والجديدة وآزمور وكب البرتقال بذلك إلى ملكهم ووقعت المحادة في البلاد، وتفرغ الوطاسي لقتال السعديين.

بناء السلطان أبي العباس الوطاسي

قنطرة الرصيف بفاس حرسها الله

كان السلطان أبو العباس أحمد الوطاسي قد جدد بناء قنطرة الرصيف بحضرة فاس، وذلك منتصف سنة إحدى وخمسين وتسعمائة، وفي ذلك يقول الفقيه أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الوانثريسي مشيراً إلى التاريخ المذكور:

جسر الرصيف أبو العباس جده
فجاء في غاية الإتقان مرتفعاً
لمن يمر به من عدوتي فاس
وكان تجديده في نصف عام غنا
وقال الفقيه أبو مالك أيضاً:

أيا أهل فاس سدد الله سدكم
وأحیی به أشجاركم وثماركم
برأي أبي العباس حامي حمى فاس
فدام ودام السعد يخدم مجده
على رغم قوم منكرين من الناس
وفاز من الشكر الجميل بأجناس
وقال الشيخ أبو زكرياء يحيى السراج:

ألا سدد الله رأي الذي
وخلد في عزه ملكه
بتسديده سديداً حصينا
إمام الهدى أحمد المرتضى
وأولاه فتحاً ونصراً مبينا
مبيد العدا عدة المسلمين

وقال الإمام أبو الحسن علي بن هارون:

لقد سدد الله رأي العماد
وقرب ما رامه من بعاد
وأبطل في السد رأي الجهنول
فطرداً وعكساً لساني يناد
بمولاي أحمد مدحي يطول
«عقول الملوك ملوك العقول»

وقعة وادي درنة بتادلا وأسر الأمير أبي زكرياء الوطاسي ومهلكه رحمه الله

ذكر في «المرآة» عند الكلام على أبي عبد الله محمد بن يوسف الفاسي . وهو والد الشيخ أبي المحاسن رضي الله عنه ، أن أبا عبد الله المذكور كانت له وجهة كبيرة عند أمير القصر أبي زكرياء يحيى بن أبي عبد الله البرتغالي ، وهو يومئذ أخو السلطان أبي العباس الوطاسي ، قال : فانتفع بوجهة أبي عبد الله الفاسي خلق كثير ، ولم يسامح هو نفسه في نيل شيء من الدنيا بسبب ذلك الجاه إلى أن أسر الأمير أبو زكرياء المذكور في وقعة وادي درنة من تادلا للشرفاء على بني وطاس في رجب سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة ، ومات في تلك الليالي القريبة غمًا وأسفًا رحمه الله ، قلت : وكان سلطان السعديين يومئذ محمد الشيخ الملقب بالمهدي ، فإنه تغلب على أخيه الأعرج وانتزع منه الملك وسجنه كما يأتي إن شاء الله تعالى .

استيلاء السلطان محمد الشيخ السعدي على فاس وقبضه على بني وطاس ومهلك سلطانهم أبي العباس رحمه الله تعالى بفضلته

لما غلب السلطان محمد الشيخ السعدي على أخيه أبي العباس الأعرج واستولى على مراكش ، طمحت نفسه للتوغل في بلاد الغرب وقراه ، فتفرغ لحرب بني وطاس ونكث ما كان بينه وبينهم من الصلح ، ورموا منه بحجر الأرض ، وردد إليهم البعوث والسرايا وأكثر فيهم من شن الغارات ، وصار يستلبهم البلاد شيئاً فشيئاً إلى أن استولى عليها ، وكان أول ما ملك من أمصار الغرب مكناسة الزيتون ، افتتحها عقب سنة خمس وخمسين وتسعمائة بعد حصار ومقاتلة ، ثم تقدم إلى فاس فألح عليها بالقتال وضايقها بالحصار مدة قريبة من السنة ، ثم استولى عليها بعد أن أسر سلطانها أبا العباس الوطاسي وصار في قبضته . وكان دخوله إياها أوائل سنة ست وخمسين وتسعمائة ولما

دخلها تقبض على الوطاسيين أجمع وبعث بهم مصفدين إلى مراكش، عدا أبا حسون المخلوع فإنه فر إلى الجزائر إلى أن كان من أمره ما نذكره. ثم إن الشيخ السعدي غدر ببني وطاس فيما قيل بعد أن أظهر العفو عنهم وسرح سلطانهم أبا العباس من ثقافة والله أعلم. وفي «الجدوة»: «كانت وفاة السلطان أبي العباس الوطاسي بمراكش قرب سنة الستين وتسعمائة» اهـ.

وزعم منويل أنه قتل مذبحاً بدرعة. قال: «زحف أبو عبد الله محمد الشيخ السعدي إلى فاس فبرز إليه أبو حسون الوطاسي، وكان قائد جيش ابن أخيه، ووقع بينهما قتال عظيم انهزم فيه أبو حسون إلى فاس. وحاصره السعدي بها سنتين، ولما قلت الأقوات وعجز الوطاسيون عن الدفاع نزلوا على حكم السعدي فقبض على أبي العباس الوطاسي، وفر أبو حسون إلى الجزائر واستقل محمد الشيخ السعدي بأمر المغرب وغرب الوطاسيين إلى درعة، فقتل أبا العباس الوطاسي الذي كان تلميذاً له ذبحاً» اهـ كلامه.

بقية أخبار السلطان أبي العباس الوطاسي وسيرته

كان من جملة وزراء السلطان أبي العباس المذكور ابنه محمد، ومن أخباره: ما ذكره في «الدوحة» في ترجمة الشيخ أبي عثمان سعيد بن أبي بكر المشترائي دفين مكناسة الزيتون، قال: «من كراماته الشائعة ما اتفق له مع الوزير أبي عبد الله محمد بن السلطان أبي العباس أحمد الوطاسي، لما استوزره أبوه وولاه على مكناسة فكان بها فغضب ذات يوم على أحد المشاورية فهرب المشاوري إلى زاوية الشيخ أبي عثمان فبعث الوزير إلى الشيخ بأن عليه الأمان وبيعه إليه فقال له الشيخ: «إن شئت أن تذهب إلى سيدك فافعل» فقال المشاوري: «يا سيدي أخاف أن يقتلني» فقال الشيخ: «إن قتلك فالله يقتله» فذهب المشاوري إلى الوزير وبقي عنده ليلتين وفي الثالثة قتله، ولم يظهر له فجاءت أمه إلى الشيخ وقالت يا سيدي: «إن ولدي قد

قتله الوزير» فقال لها: «سبق ذلك في علم الله وإن الآخر سيلحقه الآن» - يعني الوزير - فوعك الوزير تلك الليلة وسلط عليه آكال في جسمه فتمزق لحمه وتقطع شيئاً فشيئاً إلى أن هلك لليال قلائل من مرضه، فاعتبر الناس والسلطان بذلك، ومن ذلك الوقت زاد الأمراء وغيرهم في احترام حرم زاوية الشيخ المذكور» اهـ.

وكان للسلطان أبي العباس اعتقاد في المتصلحين وأرباب الأحوال، فمن فوقهم من أهل العلم والدين، من ذلك ما حكاه في «الدوحة» أيضاً في ترجمة أبي الحسن علي الصنهاجي، المعروف بالدوار، قال: «كان أبو الحسن المذكور من الملامتية، وكان يدخل دور الملوك من بني وطاس فيتلقيه النساء والصبيان يقبلون يديه وقدميه فلا يلتفت إلى أحد، ويعطونه الثياب الرفيعة والذخائر النفيسة، ويلبسه السلطان - يعني أبا العباس - من أشرف لباسه، فإذا خرج تصدق بجميع ذلك، ويمر على حوانيت الزياتين فيغمس أكماس الحلة التي تكون عليه ويرقعها بالزيت أو بالسمن، ولا يزال يدور في الأماكن ويصرخ باسم الجلالة» اهـ. قالوا: وكان السلطان أبو العباس المذكور واقفاً عند إشارة الفقيه أبي مالك عبد الواحد بن أحمد الوائشريسي، وهو ابن صاحب «المعيار»، لا يتعدى أمره، ولا يخالف رأيه، كما وقع له في مسألة رجل إسلامي يعرف بعبد الرحمن المنجور، وكان تاجراً جامعاً للمال، فشهد عليه في حكاية طويلة أربعون رجلاً من العدول باستغراق ذمته، فأخذ السلطان أبو العباس الوطاسي وقتله، وصير أملاكه لبيت مال المسلمين، فرغب أولاد المنجور من السلطان أن يؤدوا له عشرين ألف دينار ويرد إليهم أملاكهم ويسقط عنهم بينة الاستغراق، فقال السلطان لحاجبه: «أذهب إلى الشيخ عبد الواحد الوائشريسي وشاوره في ذلك وعرفه بأنني في الحاجة إلى هذا المال لأجل هذه الحركة التي عرضت لي» فذهب الحاجب إليه وأخبره بمقالة السلطان ورغبته في قبول ذلك. فقال الشيخ:

«والله لا ألقى الله بشهادة أربعين رجلاً من عدول المسلمين لأجل سلطانك، اذهب وقل له: «إني لا أوافق على ذلك ولا أرضاه» فرجع الحاجب إلى السلطان وأخبره بما قال الشيخ فرجع السلطان عما عزم إليه».

ونظير هذا ما اتفق له معه أيضاً، وهو أن الناس خرجوا يوم العيد للصلاة فانتظروا السلطان فأبطأ عليهم ولم يأت إلى خروج وقت الصلاة، وحينئذ أقبل السلطان أبو العباس في أبهته، فلما انتهى إلى المصلى نظر الشيخ أبو مالك فرأى أن الوقت قد فات فرقي المنبر وقال: «معشر المسلمين أعظم الله أجركم في صلاة العيد، فقد عادت ظهراً» ثم أمر المؤذن فأذن وأقام الصلاة فتقدم الشيخ أبو مالك وصلى الناس الظهر، فخجل السلطان أبو العباس واعترف بخطيئته رحم الله الجميع.

الخبر عن الدولة الثانية للسلطان

أبي حنون الوطاسي رحمه الله

لما دخل السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ السعدي إلى فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة، وقبض على بني وطاس بها حسبما تقدم، فرأى أبو حنون هذا إلى ثغر الجزائر⁽¹⁾ حقناً لدمه ومستجيشاً لتركها على السعدي. وكان الترك قد استولوا على المغرب الأوسط وانتزعوه من يد بني زيان كما سيأتي،

(1) ذكر المؤرخ أوغيست كور الفرنسي في كتابه «Établissement des Dynasties des Chérifs au Maroc» قيام الدولتين الشريفيتين بالمغرب. إن أبا حنون فرّ أولاً إلى أصبانيا مستعداً للإمبراطور شارنكان على عدوه السعدي فوجده بألمانيا فالتحق به وحضر معه في حروبه ولما طال انتظاره لنجدته ولم يفعل رجع أدراجه إلى أصبانيا ومنها دخل للبرتغال فأعطاه ملكها ست قطع من الأسطول لتعينه بشواطئ الريف فلم يتمكن من النزول لبلاد الريف فتوجه حيثئذ بحرراً للجزائر وقيل أسره الأسطول الجزائري وهناك اتفق مع باشاها صالح رئيس على توجيه الجيش معه للمغرب كما هو معلوم. راجع الكتاب المذكور صفحة 105 وما بعدها فقد بسط القول في الموضوع.

فلم يزل أبو حسون عندهم يقتل لهم في الغارات والسنام ويحسن لهم بلاد المغرب الأقصى ويعظمها في أعينهم، ويقول: إن المتغلب عليها قد سلّني ملكي وملك آبائي وغلبني على تراث أجدادي فلو ذهبت معي لقتاله لكنا نرجو الله تعالى أن يتيح لنا النصر عليه ويرزقنا الظفر به، ولا تعدمون أنتم مع ذلك منفعة من ملء أيديكم غنائم وذخائر، ووعدهم بمال جزيل فأجابوه إلى ما طلب وأقبلوا معه في جيش كثيف تحت راية باشاهم صالح التركماني المعروف بصالح رئيس، إلى أن اقتحموا حضرة فاس بعد حروب عظيمة ومعارك شديدة وفر عنها محمد الشيخ السعدي إلى منجاته.

وكان دخول السلطان أبي حسون إلى فاس ثالث صفر سنة إحدى وستين وتسعمائة^(١). ولما دخلها فرح به أهلها فرحاً شديداً، وترجل هو عن فرسه وصار يعانق الناس كبيراً وصغيراً، شريفاً ووضيعاً، ويبكي على ما دهمه وأهل بيته من أمر السعديين واستبشر الناس بمقدمه وتيمنوا بطلعته. وقبض على كبير فاس يومئذ القائد أبي عبد الله محمد بن راشد الشريف الإدريسي، واطمأنت به الدار ثم لم يلبث السلطان أبو حسون إلا يسيراً حتى كثرت شكاية الناس إليه بالترك، وأنهم مدوا أيديهم إلى الحریم وعاثوا في البلاد. فبادر بدفع ما اتفق معهم عليه من المال وأخرجهم عن فاس وتخلف بها منهم نفر يسير.

(١) ذكر صاحب «الدوحة» في ترجمة سيدي عبد الله الكوش أن أبا عبد الله الشيخ خرج

من فاس مزعجاً في شهر محرم سنة ستين هـ.

مجيء السلطان محمد الشيخ السعدي إلى فاس واستيلاؤه عليها ومقتل السلطان أبي حسون رحمه الله

لما فر السلطان محمد الشيخ السعدي من وقعة الأتراك بفاس وصل إلى مراكش فاستقر بها وصرف عزمه لقتال أبي حسون، فأخذ في استنفار القبائل وانتخاب الأبطال وتعبية العساكر والأجناد فاجتمع له من ذلك ما اشد به أزره وقوي به عضده، ثم نهض بهم إلى فاس فخرج إليه السلطان أبو حسون في رماة فاس وما انضاف إليهم من جيش العرب فكانت الهزيمة على أبي حسون فرجع إلى فاس وتحصن بها، فتقدم الشيخ السعدي وحاصره إلى أن ظفر به في وقعة كانت بينهما بالموضع المعروف بمسلمة، فقتله واستولى على حضرة فاس وصفا له أمرها. وكان استيلاؤه عليها يوم السبت الرابع والعشرين من شوال سنة إحدى وستين وتسعمائة على الصواب خلاف ما وقع في «الدوحة» والله أعلم. ويمقتل السلطان أبي حسون رحمه الله انقرضت الدولة المرينية بالمغرب والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وبقي علينا الإلماع بأواخر دولة بني زيان ملوك تلمسان وكيف كان انقراض أمرهم، فلنشر إلى ذلك فنقول: كانت دولة بني زيان على ما علمت من الاضطراب سائر أيام بني مرين، وكان منهم في صدر المائة التاسعة السلطان الواصل بالله من أمثل ملوكهم؛ وغلبهم على تلمسان في تلك المدة السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أحمد الحفصي فأخذوا بطاعته. ثم بعد موته سنة سبع وثلاثين وثمانمائة اعتزوا بعض الشيء إلى أن كانت دولة السلطان أبي عمرو عثمان بن محمد الحفصي، فغزا تلمسان أعوام السبعين وثمانمائة مرتين وفي الثانية هدم أسوارها وعزم على استئصال أهلها، إلى أن تشفع إليه علماؤها وصلحاؤها فعفا عنهم، وكان الباعث له على غزوها أولاً ما بلغه من أن الأمير محمد بن محمد بن أبي ثابت استولى عليها، ففعل ما فعل وصاهرهم ببعض حفدته.

وقال صاحب «بدائع السلك»: شاهدت بتلمسان وبعض أعمالها تصريح

الخطيب باسم السلطان أبي عمرو عثمان صاحب تونس مقدماً في الذكر على اسم صاحب تلمسان أبي عبد الله من أعقاب بني زيان لما بينهما من الشرط في ذلك. وبقيت حال بني زيان متماسكة إلى أن ظهر جنس الإصبيول في صدر المائة العاشرة بعد ما تم له ملك الأندلس وعظمت شوكته، فطمح للتغلب على ثغور المغربين الأدنى والأوسط، فاستولى على بجاية سنة عشر وتسعمائة، ثم على وهران سنة أربع عشرة وتسعمائة وفعل بأهلها الأفاعيل ثم سما لتملك الجزائر وشره لالتهامها، وضايق المسلمين في ثغورهم وضعف بنو زيان عن مقاومته. وكان الشيخ الفقيه الصالح أبو العباس أحمد ابن القاضي الزواوي ممن له الشهرة والوجاهة الكبيرة في بسائط المغرب الأوسط وجباله، وكانت دولة العثماني من الترك في هذه المدة قد زخر عبا بهم وملكت أكثر المسكونة، وظهر من قواد عساكرهم البحرية قائدان عظيمان وهما خير الدين باشا وأخوه عروج باشا، وكانا قد تابعا الغزو على بلاد الكفر برأ وبحراً، وأوقعا بأهل دول الأوروبا وقائع شهيرة، وصار لهم ذكر في أقطار البلاد، وتمكن ناموسهم من قلوب العباد، فكاتبهم الفقيه أبو العباس المذكور وعرفهم بما المسلمون فيه من مضايقة العدو الكافر. وقال: إن بلادنا بقيت لك أو لأخيك أو للذئب، فأقبل الترك نحوه مسرعين واستولى عروج على ثغر الجزائر بعد ما كاد العدو يملكه فتخلصه منه، ثم استولى على تلمسان وغلب بني زيان على أمرهم، وذلك سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة على ما في «الترجمة». ثم إن أهل تلمسان أنكروا سيرة الترك وشموا ملكتهم، ويقال: إن الترك عسفوهم وصادروهم على أموالهم، وكان عروج قد أغرى بالفقيه أبي العباس المستدعي له فقتل شهيداً بعد الثلاثين وتسعمائة، ورأى عروج أن أمر المغرب الأوسط لا يصفو له مع وجود الفقيه المذكور فدس عليه من قتله، ثم نهض عروج إلى بني يزناسن فكان الكرة عليه وقتل هنالك مع جماعة من وجوه عسكره وتفرقت جموعه.

وعادت تلمسان إلى بني زيان فجددوا بها رياستهم وأحيوا رمق دولتهم إلى أن عاود الترك غزوها بعد حين وانتزعوها من يد صاحبها أبي العباس

أحمد بن عبد الله من أعقاب يغمراسن بن زيان.

قال في «المرآة» ما نصه: «قال الشيخ الإمام قاضي الجماعة أبو محمد عبد الواحد بن أحمد الوانشرسي رحمه الله ومن خطه نقلت: قدم حسن ابن خير الدين التركي فاستولى على تلمسان في أواسط شعبان سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة وأخرج منها الأمير أحمد ابن الأمير عبد الله ووزيره منصور بن أبي غانم ولحقا بدبدو مع من انضاف إليهما من أمراء تلمسان وكبرائها، فغدر بهم عمر بن يحيى الوطاسي صاحب دبدو وأخذ أموالهم واعتقلهم، وسرح منصوراً في محرم من سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة» اهـ، واستمرت تلمسان في يد الترك إلى أواسط صدر المائة الثالثة عشرة فاستولى عليها الفرنسيين على ما نذكره إن شاء الله.

واعلم أنه كان في صدر هذه المائة العاشرة أمور عظام.

منها ظهور الفرنج بالديار المغربية واستيلاؤهم على ثغورها بما لم يعهد مثله قبل ذلك، لا سيما البرتغال والإصبيول حسبما تقدمت الإشارة إليه. ومنها ظهور دولة آل عثمان ملوك التركمان بالديار المشرقية وما أضيف لها الظهور الذي لا كفاء له وابتداء هذه الدولة وإن كان قبل هذا التاريخ بنحو مائتي سنة لكن إنما كان عتفوان شبابها وفيضان عابها في هذه المدة لاسيما في دولة سلطانهم الأعظم، وخاقانهم الأفخم سليمان بن سليمان خان، فإنه ملك أكثر المعمور، وقام بدعوته من الأمم الجمهور، وهجمت عساكره على ديار الأرنا فقاتلوهم في أعز بلادهم، واستلبوهم من طارفهم وتلادهم، وخضعت ملوكهم لعزته، واستكانوا لصولته، وأعطوه يد المقادة وآتوه من الطاعة والخضوع ما خالف العادة. ثم أوطأ عساكره المغريين الأدنى والأوسط فاستولى عليهما، وكاد يتناول الأقصى ويضيفه إليهما على ما تقف عليه في أخبار السعديين إن شاء الله.

ومنها ظهور الأولياء وأهل الصلاح من الملامتية، وأرباب الأحوال والجذب، في بلاد الشرق والغرب، لكنه انفتح به للمستورين على النسبة

وأهل الدعوى باب متسع الخرق، متعسر الرتق، فاختلط المرعى بالهبل،
 وادعى الخصوصية من لا ناقة له فيها ولا جمل، وصعب على جل الناس
 التمييز، حتى بين البهرج والإبريز، لا سيما العامي الغمر، الذي لا يفرق بين
 الحصباء والدرا ويرحم الله الشيخ اليوسي إذ قال في محاضراته ما نصه: «وقد
 طرق أسمع القوم من قبل اليوم كلام أهل الصولة كفحول القادرية والشاذلية
 رضي الله عنهم، وكلام أرباب الأحوال في كل زمان، فتعشقت النفوس
 ذلك، وأذعن له الجمهور وخاضوا في التشبيه بهم، فما شئت أن تلقى جاهلاً
 مسرفاً على نفسه لم يعرف بعد ظاهر الشريعة، فضلاً عن أن يعمل، فضلاً
 عن أن يخلص إلى الباطن، فضلاً عن أن يكون صاحب مقام إلا وجدته
 يصول ويقول، وينابذ المنقول والمعقول، وأكثر ذلك في أبناء الفقراء، يريد
 الواحد منهم أن يتحلى بحلية أبيه، ويستتبع أتباعه بغير حق ولا حقيقة بل
 لمجرد حطام الدنيا، فيقول خدام أبي، وزريبة أبي، ويضرب عليهم المغرم
 كمغرم السلطان، ولا يقبل أن يحبوا أحداً في الله أو يعرفوه أو يقتدوا به
 غيره، وإذا رأى من خرج يطلب دينه أو من يدلّه على الله تعالى يغضب عليه
 ويتوعده بالهلاك في نفسه وماله، وقد يقع شيء من المصائب بحكم القضاء
 والابتلاء فيضيفه إلى نفسه فيزداد بذلك هو وأتباعه ضلالاً، ثم يخترق لهم
 من الخرافات والأمور المعتادة ما يدعيه سيرة وديناً يستهويهم به، ثم يضمن
 لهم الجنة على مساوئ أعمالهم والشفاعة يوم المحشر، ويقبض على لحمه
 من ذراعه فيقول للجاهل مثله: «أنت من هذه اللحم» فيكتفي جهال العوام
 بذلك ويبقون في خدمته ولداً عن والد، قائلين نحن خدام الدار الفلانية وفي
 زريبة فلان، فلا نخرج عنها وكذا وجدنا آباءنا وهذا هو الضلال المبين.
 وهؤلاء قطاع العباد عن الله» إلى آخر كلامه فقف عليه في الفصل الخامس
 والعشرين منها فإنه نفيس وبالله تعالى التوفيق.

وفي سنة إحدى عشرة وتسعمائة توفي الفقيه أبو العباس أحمد بن عيسى
 الماواسي البطوي الموقت المشهور.

وفي سنة اثنتي عشرة بعدها توفي الشيخ الفقيه أبو الحسن علي بن قاسم

التجيبى المعروف بالزقاق فقيه فاس، وهو صاحب المنظومة اللامية في علم القضاء وغيرها. وفي سنة أربع وتسعمائة، في يوم الثلاثاء العشرين من صفر منها توفي الشيخ الإمام أبو العباس أحمد بن يحيى الوانشرى مؤلف «المعيار» وغيره من التأليف الحسان، أصله من تلمسان واستوطن مدينة فاس إلى أن توفي بها في التاريخ المذكور. وفيها أيضاً توفي الشيخ الكبير أبو فارس عبد العزيز بن عبد الحق الحرار المعروف بالتباع دفين حومة الفحول من مراكش من أصحاب الشيخ الجزولي رضي الله عنهما، وصفه شيخه المذكور بالكيمياء، وكان يقال: النظرة فيه تغني، أفاض الله علينا من مدده.

وفي سنة تسع عشرة وتسعمائة توفي الشيخ الإمام العلامة النظار أبو عبد الله محمد بن أحمد بن غازي العثماني المكناسي ثم الفاسي، وقد تقدم خبره مع الشيخ أبي محمد الغزواني رحمهما الله.

وفي سنة ست وعشرين وتسعمائة انحس المطر بفاس والمغرب واضطر الناس إلى استخراج السواقي من الأودية والأنهار لسقي زرعهم وثمارهم.

وفي سنة سبع وعشرين بعدها كان الغلاء والجوع الكبير الذي صار تاريخاً في الناس مدة.

وفي سنة ثمان وعشرين بعدها كان الوباء بالمغرب، سنة الله في خلقه، وفي هذه المدة، أعني أعوام الثلاثين وتسعمائة على ما في الدوحة، توفي الشيخ أبو عبد الله محمد بن منصور السفيناني دفين جزيرة البسايس من بلاد أولاد جلون على مسيرة نصف يوم من مصب نهر سبو في البحر من جهة المشرق، وكان من أصحاب الشيخ التباع، والروضة التي عليها بناها الشيخ أبو زيد عبد الرحمن المجذوب، يقال: إنه لما أكملها رآه في المنام وألبسه حلة خضراء.

وفي سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة في ثاني يوم من ربيع الأول منها توفي الشيخ أبو محمد عبد الكريم بن عمر الحاجي المعروف بالفلاح ضجيع القاضي عياض في روضته بحومة باب إيلان من مراكش، وهو من أصحاب

الشيخ التباع أيضاً، وفي هذه المدة على ما في «الدوحة» توفي الشيخ أبو يشو مالك بن خدة الصبيحي من عرب صبيح، كان من أهل العلم والفضل والدين، ودفن على ضفة نهر سبو على نحو مرحلة من فاس، وقبره مزاراة إلى الآن.

وفي سنة خمس وثلاثين وتسعمائة توفي الشيخ أبو محمد الغزواني رضي الله عنه دفين حومة القصور من مراكش، وقد تقدم شيء من خبره.

وفي أعوام أربعين وتسعمائة توفي الشيخ الكامل أبو عبد الله محمد بن عيسى السفيناني المختار. ثم الفهدي دفين مكناسة الزيتون، وهو شيخ جليل القدر شهير الذكر رضي الله عنه ونفعنا به آمين.

تم الجزء الرابع ويليهِ الجزء الخامس
أوله:

الخبر عن دولة الأشراف السعديين من آل زيلان

فهرس الموضوعات

- الدولة المرينية 3
- القسم الثاني 3
- الخبر عن دولة السلطان السعيد بالله أبي بكر بن أبي عنان بن أبي الحسن
المريني 3
- ظهور أبي حمو موسى بن يوسف الزياني واستيلاؤه على تلمسان ونهوض
مسعود بن عبد الرحمن إليه وطرده عنها 4
- ظهور منصور بن سليمان وبيعة مسعود بن عبد الرحمن له وما نشأ عن ذلك ... 5
- الخبر عن دولة السلطان المستعين بالله أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن
المريني 7
- قدوم الغني بالله ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب مخلوعين على السلطان أبي
سالم والسبب في ذلك 8
- سفر ابن الخطيب إلى مراكش وأعمالها وزيارته لأوليائها ورجالها
والسبب في ذلك 13
- بقية أخبار ابن الخطيب بسلا حرسها الله 20
- انتفاض الحسن بن عمر الفودودي وخروجه بتادلا ثم مقتله عقب ذلك 32
- نهوض السلطان أبي سالم إلى تلمسان واستيلاؤه عليها 33
- وفادة السودان من أهل مالي على السلطان أبي سالم وإغرابهم في هديتهم
بالزرافة الحيوان المعروف 34
- مقتل السلطان أبي سالم رحمه الله والسبب في ذلك 37

- الخبر عن دولة السلطان أبي عمر تاشفين الموسوس ابن أبي الحسن المريني 41.
- الفتك بغرسية بن أنطول قائد النصارى ومقتل جنده معه والسبب في ذلك ... 41
- ظهور عبد الحليم بن أبي علي بن أبي سعيد ومحاصرته لفاس الجديد ثم
فرااره عنها 43
- الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله أبي زيان محمد بن أبي عبد الرحمن
يعقوب بن أبي الحسن المريني 44
- وفادة ابن الخطيب من سلا على السلطان أبي زيان بن أبي عبد الرحمن
رحمهما الله 46
- وفادة عامر بن محمد الهنتاتي على السلطان أبي زيان بن أبي عبد الرحمن
رحمهما الله 50
- مقتل السلطان أبي زيان بن أبي عبد الرحمن رحمه الله 51
- الخبر عن دولة السلطان أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن رحمه الله 52
- انتقاض أبي الفضل بن أبي سالم ثم مقتله بعد ذلك 53
- انتقاض عامر بن محمد الهنتاتي وحصار السلطان عبد العزيز إياه وظفره به ... 54
- ارتجاع الجزيرة الخضراء من يد الإسبانيول 56
- نهوض السلطان عبد العزيز إلى تلمسان واستيلاؤه عليها وفراار سلطانها أبي
حمو بن يوسف عنها 57
- نزوع الوزير ابن الخطيب عن سلطانه الغني بالله إلى السلطان عبد العزيز
بتلمسان 58
- وفاة السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن رحمه الله 59
- الخبر عن دولة السلطان السعيد بالله أبي زيان محمد بن عبد العزيز بن أبي
الحسن 60
- الخبر عن الدولة الأولى للسلطان المستنصر بالله أبي العباس أحمد بن أبي
سالم بن أبي الحسن 61

- 62..... محنة الوزير ابن الخطيب ومقتله رحمه الله
- 65..... بقية أخبار أمير مراكش عبد الرحمن بن أبي يفلوسن رحمه الله
- 66..... ذكر الشاوية وبيان نسبهم وأوليتهم وشرح لقبهم وتسميتهم
- 67..... نهوض السلطان أبي العباس إلى تلمسان وفتحها وتخريبها
- 68..... خلع السلطان أبي العباس بن أبي سالم وتغريبه إلى الأندلس والسبب في ذلك
الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله أبي فارس موسى ابن أبي عنان بن
69..... أبي الحسن
- 70..... خروج الحسن بن الناصر بغمارة ونهوض الوزير ابن ماساي إليه
- 71..... وفاة السلطان موسى بن أبي عنان رحمه الله
- 71..... الخبر عن دولة المنتصر بالله السلطان أبي زيان محمد بن أبي العباس ابن
أبي سالم بن أبي الحسن
- 71..... الخبر عن دولة السلطان الواثق بالله أبي زيان محمد بن أبي الفضل بن أبي
72..... الحسن
- 73..... الخبر عن الدولة الثانية للسلطان أبي العباس بن أبي سالم بن أبي الحسن
- 74..... ظهور محمد بن عبد الحليم بن أبي علي بسجلماسة ثم اضمحلال أمره بعد
ذلك
- 75..... نكبة الكاتب ابن عمرو وحركات بن حسون ومقتلهما
- 76..... أخبار تلمسان واستيلاء السلطان أبي العباس عليها
- 77..... وصول هدية صاحب مصر السلطان الظاهر برقوق إلى السلطان أبي العباس
بتازا والسبب في ذلك
- 78..... وفاة السلطان أبي العباس بن أبي سالم رحمه الله
- 79..... الخبر عن دولة السلطان المستنصر بالله أبي فارس عبد العزيز ابن أبي العباس
ابن أبي سالم رحمه الله
- 80..... بقية أخبار السلطان عبد العزيز ووفاته

- الخبر عن دولة السلطان المستنصر بالله أبي عامر عبد الله ابن أبي العباس بن
 81 أبي سالم رحمه الله تعالى
- 82 وفاة الشيخ ابن عاشر
- 83 وفاة الشيخ أبي عبد الله الفنزاري السلاوي المعروف بابن المجراد
- 84 وفاة الشيخ ابن عباد
- 84 تبدل الأحوال بالمغرب والمشرق
- 86 الخبر عن دولة السلطان أبي سعيد عثمان بن أبي العباس ابن أبي سالم
- 86 حجابة أبي العباس القبائلي ونكبته ومقتله والسبب في ذلك
- 89 حجابة فارح بن مهدي وأوليته وسيرته
- 90 حجابة أبي محمد الطريفي وسيرته
- حدوث الفتنة بين السلطان أبي سعيد والسلطان أبي فارس الحفصي والسبب
 في ذلك
- 92 استيلاء البرتغال على مدينة سبتة أعادها الله
- الخبر عن دولة السلطان عبد الحق بن أبي سعيد ابن أبي العباس ابن أبي
 95 سالم المريني رحمه الله
- 95 زحف البرتغال إلى طنجة ورجوعهم عنها بالخفية
- 96 أخبار الوزراء والحجاب وتصرفاتهم
- وزارة يحيى بن يحيى الوطاسي ومقتله ومقتل الوطاسيين معه والسبب في
 ذلك
- 97 رياسة اليهوديين هارون وشاويل وما نشأ عن استبدادهما من المحنة والفتنة ..
- 98 انتزاع الإصبيول جبل طارق من يد ابن الأحمر
- 98 استيلاء البرتغال على طنجة
- 99 مقتل السلطان عبد الحق بن أبي سعيد والسبب في ذلك
- 100 وفاة الشيخ أبي زيد عبد الرحمن المكودي

- 100 وفاة الشيخ أبي عبد الله بن الفتوح
- 101 وفاة الإمام العبدوسي
- 101 وفاة الشيخ أبي عبد الله القوري
- 101 وفاة الشيخ زروق
- 101 وفاة الشيخ أبي العباس أحمد البرنسي
- بقية أخبار بني الأحمر واستيلاء العدو على غرناطة وسائر الأندلس منها
- 102 وانقراض كلمة الإسلام منها
- 104 سقوط غرناطة في يد الأصبان
- 107 اكتشاف أرض أميركا
- 109 أخبار البرتغال بالمغرب الأقصى على الجملة
- 114 الخبر عن دولة الشريف أبي عبد الله الحفيد وأوليته
- 115 بيعة السلطان أبي عبد الله الحفيد والسبب فيها
- 116 فتنة الشاوية ووصولهم إلى بلاد الغرب
- 116 استيلاء البرتغال على مدينة آفني وأصيلا
- 117 خلع السلطان أبي عبد الله الحفيد وانقراض أمره
- 118 الخبر عن دولة بني وطاس وذكر نسبهم وأوليتهم
- الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ بن أبي زكرياء
- 119 الوطاسي رحمه الله
- رياسة بني راشد من شرفاء العالم بغمارة وبنائهم مدينة شفشاون وما يتبع
- 121 ذلك
- 122 ثورة عمرو بن سليمان السيف ببلاد السوس وشيء من أخباره
- 122 وفاة الشيخ الجزولي رحمه الله
- 124 بناء مدينة تطاوين
- قدوم أبي عبد الله بن الأحمر مخلوعاً على السلطان محمد الشيخ

- 125 الوطاسي رحمهما الله
استيلاء البرتغال على ساحل البريجيه ويناؤهم مدينة الجديدة صانها الله
- 136 سبحانه وتعالى بمئه
استيلاء البرتغال على سواحل السوس ويناؤهم حصن فونتي قرب أكادير وما
- 139 قيل في ذلك
وفاة السلطان محمد الشيخ الوطاسي رحمه الله
- 140 الخبر عن دولة السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسي المعروف بالبرتغالي
رحمه الله
- 141 استيلاء البرتغال على ثغر آسفي حرسه الله
زحف السلطان أبي عبد الله البرتغالي إلى آصيلا
- 142 استيلاء البرتغال على ثغر آزمو حرسه الله
استيلاء البرتغال على ثغر المعمورة حرسه الله
- 143 أخبار السلطان أبي عبد الله البرتغالي مع الشيخ أبي محمد الغزواني
رضي الله عنه
- 144 نهوض السلطان أبي عبد الله البرتغالي إلى مراكش ومحاصرته أبا العباس
الأعرج السعدي بها
- 147 ذكر وزراء السلطان أبي عبد الله وما قيل فيهم
وفاة السلطان أبي عبد الله رحمه الله
- 148 الخبر عن الدولة الأولى للسلطان أبي حسون بن محمد الشيخ الوطاسي ...
الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد بن محمد الوطاسي رحمه الله
- 149 تعالى
وقعة أنماي بين الوطاسيين والسعديين
- 150 عقد الصلح بين السلطانين أبي العباس الوطاسي وأبي العباس السعدي
رحمهما الله تعالى
- 151

- 152 غزوة الحمر قرب آصيلا حرسها الله
 وقعة أبي عقبة بوادي العبيد وما كان فيها بين الوطاسيين والسعديين من القتال
- 153 الشديد
- 155 بناء السلطان أبي العباس الوطاسي قنطرة الرصيف بفاس حرسها الله
- 156 وقعة وادي درنة بتادلا وأسر الأمير أبي زكرياء الوطاسي ومهلكه رحمه الله
- استيلاء السلطان محمد الشيخ السعدي على فاس وقبضه على بني
- 156 وطاس ومهلك سلطانهم أبي العباس رحمه الله تعالى بفضله
- 157 بقية أخبار السلطان أبي العباس الوطاسي وسيرته
- 159 الخبر عن الدولة الثانية للسلطان أبي حسون الوطاسي رحمه الله
- مجيء السلطان محمد الشيخ السعدي إلى فاس واستيلاؤه عليها ومقتل
- 161 السلطان أبي حسون رحمه الله
- 164 وفاة الشيخ أبي العباس الماواسي
- 164 وفاة الشيخ أبي العباس التجيبي
- 165 وفاة الشيخ أبي العباس الوانشريسي
- 165 وفاة الشيخ التباع
- 165 وفاة الإمام ابن غازي
- 165 وفاة الشيخ أبي عبد الله بن منصور
- 165 وفاة الشيخ الفلاح
- 165 وفاة الشيخ مالك بن خدة
- 166 وفاة الشيخ أبي محمد الغزواني
- 169 وفاة الشيخ أبي عبد الله محمد بن عيسى

فهرس الأعلام والقبائل

- آل أبي بكر 152.
 آل عثمان التركماني 163.
 آل مرين 31.
 آل يعقوب 31.
 إبراهيم البطروجي 42.
 الأبكم ابن الأحمر 6.
 ابن الأحمر 43 - 56 - 57 - 59 - 62 - 63 - 68 - 69 - 72 - 73 - 93 - 94 - 98 - 120 - 124 - 135.
 ابن أنطول 42.
 ابن بطان الصنهاجي 15.
 ابن حجاج 131.
 ابن الخطيب 9 - 12 - 13 - 19 - 20 - 21 - 24 - 25 - 26 - 29 - 30 - 31 - 32 - 34 - 39 - 44 - 45 - 48 - 58 - 60 - 62 - 63 - 64 - 83.
 ابن خلدون 5 - 7 - 8 - 33 - 35 - 39 - 51 - 52 - 65 - 66 - 71 - 77 - 80 - 82 - 84 - 89 - 114 - 118 - 119.
 ابن شقرون 145.
 أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد التاورتي 93 - 94.
 أبو إسحاق إبراهيم بن محمد اليزناسني 75 - 78.
 أبو البقاء بن تاشكورت 30.
 أبو البقاء عبد الوارث الياصلوتي 145 - 146.
 أبو بكر بن عامر 55.
 أبو بكر بن غازي 54 - 57 - 60 - 61 - 63 - 81.
 أبو بكر بن يحيى الوطاسي 97.
 أبو بكر الحفصي 50.
 أبو بكر السعيد بن أبي عنان المريني 3 - 7.
 أبو بكر بن أبي العباس المريني 90.
 أبو تاشفين بن أبي حمو بن يوسف الزياني 76.
 أبو ثابت عامر بن محمد الهنتاتي 50.
 أبو الحجاج يوسف ابن الأحمر 8 - 27 - 81 - 82.

- أبو الحجاج يوسف بن منصور الوطاسي 117 - 120.
- أبو حدو 16.
- أبو حفص عمر الخطاب 151.
- أبو الحسن بن أبي محمد العلمي - أبو جمعة 121.
- أبو الحسن علي بن راشد 125 - 154.
- أبو الحسن علي بن سعد 102.
- أبو الحسن علي بن عبد الرحمن القبائلي 86 - 88.
- أبو الحسن علي بن غسان الشاوي 111 - 152.
- أبو الحسن علي بن قاسم التجيبي - الزقاق 164.
- أبو الحسن علي بن محمد الشيخ الوطاسي - أبو حنون 148 - 149 - 157 - 160.
- أبو الحسن بن علي بن مصباح الحسني - ابن عسكر 111 - 149.
- أبو الحسن علي بن موسى العلمي 121.
- أبو الحسن علي بن هارون المطغري 151.
- أبو الحسن علي بن الوزير لسان الدين ابن الخطيب 78 - 79.
- أبو الحسن علي الصنهاجي الدوار 158.
- أبو الحسن علي المنظري الغرناطي 90 - 124 - 125.
- أبو الحسن علي اليوسي 164.
- أبو الحسن المريني 7 - 18 - 25 - 29 - 34 - 41 - 43 - 44 - 54 - 59.
- أبو الحسن النباهي 62.
- أبو حمو موسى بن يوسف الزياني 4 - 5 - 33 - 34 - 43 - 55 - 57 - 60 - 67 - 68 - 74 - 76.
- أبو دواد 132.
- أبو الرواين المحجوب 151 - 153.
- أبو زكرياء بن فرقاچه 30.
- أبو زكرياء يحيى بن أبي دلامة 94.
- أبو زكرياء يحيى بن أبي عبد الله البرتغالي 156.
- أبو زكرياء يحيى بن أحمد بن عبد المنان 79.
- أبو زكرياء يحيى بن بكار 113.
- أبو زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي 96 - 97 - 119.
- أبو زكرياء يحيى السراج 84 - 154.
- أبو زيان بن أبي حمو الزياني 79 - 80.
- أبو زيان بن عبد الرحمن يعقوب بن أبي الحسن المريني 44 - 45 - 46 - 50 - 51 - 52.
- أبو زيان محمد بن أبي الفضل بي أبي الحسن المريني - الواثق بالله 72 - 73.
- أبو زيان محمد بن عبد العزيز بن أبي الحسن - السعيد بالله 60 - 61 - 63.
- أبو زيان محمد بن عثمان بن أبي

أبو العباس أحمد بن محمد البرتغالي
149 - 150 - 158 - 159.

أبو العباس أحمد بن محمد الشيخ
الوطاسي 146 - 151 - 153 - 154 -
155 - 156.

أبو العباس أحمد الوانشرسي 165.

أبو العباس أحمد بن يوسف 15.

أبو العباس أحمد الدغموري القصري
113.

أبو العباس أحمد زروق 100.

أبو العباس أحمد الماوسي 149 - 164.

أبو العباس أحمد الناصري 22.

أبو العباس الأعرج السعدي 147 - 150 -
151 - 153 - 154 - 156.

أبو العباس بن أبي سالم المريني 61 -

62 - 63 - 65 - 67 - 68 - 69 - 72 -

73 - 74 - 75 - 76 - 77 - 78 - 79 -

82 - 84 - 89 - 118 - 119.

أبو العباس بن الخطيب القسطيني - ابن
قنفذ 83.

أبو العباس السبتي 17.

أبو العباس الصومعي 21 - 123.

أبو العباس المقرئ 106.

أبو عبد الله الباجي 91.

أبو عبد الله بن الأحمر 125.

أبو عبد الله بن الأزرق 115.

أبو عبد الله بن زمرك الأندلسي 36 - 63 -
69.

تاشفين 34.

أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح
المكودي 100.

أبو زيد عبد الرحمن المجذوب 165.

أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن المريني
- المستعين بالله 7 - 8 - 9 - 12 - 13 -

19 - 25 - 26 - 29 - 32 - 33 - 34 -

35 - 37 - 38 - 39 - 41 - 59.

أبو سعيد عثمان بن أبي العباس المريني

29 - 86 - 87 - 88 - 89 - 90 - 91 -

92 - 93 - 94.

أبو سعيد القبائلي 87.

أبو سعيد المريني 88.

أبو سلهم 145.

أبو شامة بن يحيى الوطاسي 97.

أبو طلحة الزبير بن محمد المصباحي
الشاوي 153 - 154.

أبو عامر بن عبد الرحمن بن أبي
يفلوسن 65.

أبو العباس أحمد البرنسي - زروق -
101.

أبو العباس أحمد بن عاشر الحافي 83.

أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد ابن
عاشر الأندلسي 21 - 24 - 82 - 83.

أبو العباس أحمد بن علي القبائلي 78 -
81 - 86 - 87 - 89.

أبو العباس أحمد بن القاضي المكناسي
71 - 111 - 140 - 149 - 162.

- أبو عبد الله بن سعد التلمساني 82.
- أبو عبد الله الحفيد - محمد بن علي الإدريسي العمراني 99 - 114 - 115 - 116 - 117 - 119 - 120.
- أبو عبد الله الزباني 162.
- أبو عبد الله الصغير السهلي 116.
- أبو عبد الله القصار 141.
- أبو عبد الله العقيلي 125.
- أبو عبد الله القوري 122.
- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النفزي - ابن عباد - 84.
- أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن 102 - 103 - 104 - 105.
- أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء الحفصي 90 - 91.
- أبو عبد الله محمد بن أبي العباس الوطاسي 157.
- أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل التونسي - خروف 112.
- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله اليفرنى 146.
- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق 25 - 26 - 37 - 38 - 39 - 113.
- أبو عبد الله محمد بن إدريس الجراري 137.
- أبو عبد الله محمد بن راشد الإدريسي 160.
- أبو عبد الله محمد بن سعد - الزغل - 156.
- 102 - 103.
- أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزولي 122 - 123 - 132 - 141 - 142 - 165.
- أبو عبد الله محمد بن يجيش التازي 112 - 146.
- أبو عبد الله محمد بن عزوز الرباطي 21.
- أبو عبد الله محمد بن علي الهروي - الطالب 147.
- أبو عبد الله محمد بن عمر بن الفتوح التلمساني 100 - 101.
- أبو عبد الله محمد بن عيسى السفيني 166.
- أبو عبد الله محمد بن غازي 124 - 144 - 145 - 165.
- أبو عبد الله محمد بن محمد بن عيسى المصمودي 97.
- أبو عبد الله محمد بن محمد الشيخ الوطاسي - البرتغالي 112 - 116 - 140 - 142 - 143 - 144 - 147 - 148.
- أبو عبد الله محمد بن محمد المغيلي 71.
- أبو عبد الله محمد بن منصور السفيني 165.
- أبو عبد الله محمد بن يحيى البهلولي 112 - 113 - 149.
- أبو عبد الله محمد بن يوسف الفاسي 156.

أبو علي الحسن بن محمد العلوي 137.
أبو عمر تاشفين بن أبي الحسن المريني
- الموسوس - 38 - 43 - 44 - 55 - 56.

أبو عنان بن أبي الحسن المريني 3 - 4 - 5
- 7 - 50 - 54 - 75 - 82 - 115 - 118.

أبو فارس الحفصي 90 - 91 - 161.

أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن
المريني 52 - 53 - 54 - 55 - 56 - 57
- 58 - 59 - 60 - 62 - 63 - 82.

أبو فارس عبد العزيز بن أحمد الملياني
94.

أبو فارس عبد العزيز بن عبد الحق
الحرار - التباع - 123 - 144 - 165.

أبو فارس عبد العزيز بن أبي العباس
المريني 76 - 77 - 78 - 79 - 80 - 81 - 90.

أبو فارس موسى بن أبي عنان المريني
68 - 69 - 71 - 72 - 75.

أبو فارس الوريكلي 99 - 115.

أبو الفضل بن أبي سالم المريني 43 -
50 - 53 - 54.

أبو الفضل فرج الأندلس 111.

أبو الفضل محمد بن محمد بن أبي
عمرو التميمي 71.

أبو القاسم بن أبي طلحة 154.

أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن
رضوان 39.

أبو عبد الله محمد الشيخ السعدي 139
- 157 - 159 - 160 - 161.

أبو عبد الله محمد الشيخ بن أبي
زكرياء الوطاسي 97 - 98 - 111 - 117
- 119 - 120 - 124 - 144 - 148 - 151
- 154 - 156.

أبو عبد الله محمد الحلو 97 - 119 -
124.

أبو عبد الله محمد الخصاصي 82.

أبو عبد الله محمد العربي الفاسي 89 -
116 - 141.

أبو عبد الله محمد الغزواني 144 - 145
- 146 - 152.

أبو عبد الله محمد الفنزاري - ابن
المجراد - 83.

أبو عبد الله محمد القصري - سقين -
111.

أبو عبد الله المقري 115.

أبو عبد الله المواق 103.

أبو عبد الله النيجي 147.

أبو عبد الله اليفرني 149.

أبو عثمان سعيد بن أبي بكر المشتراي
157 - 158.

أبو العزم رحال الكوش 150 - 158.

أبو عمرو عثمان بن محمد الحفصي
161 - 162.

أبو علي بن أبي سعيد المريني 43.

أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي 22.

- أبو القاسم القبائلي 87.
 أبو القاسم محمد بن سودة المرى 71.
 أبو القاسم محمد بن عبد الله الحسنى 78.
 أبو القاسم محمد بن يحيى الأندلسي 39.
 أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الوانشرسي 151 - 152 - 155 - 158 - 159.
 أبو المحاسن القاسي 156.
 أبو محمد بن الخطيب 29 - 48.
 أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد الوانشرسي 149.
 أبو محمد عبد الحق 110.
 أبو محمد عبد الحق بن أبي سعيد المريني 95 - 96 - 97 - 98 - 99 - 114 - 115 - 116 - 117 - 119.
 أبو محمد عبد الرحيم بن إبراهيم اليزناسني 95 - 96.
 أبو محمد عبد الله بن ياسين 111.
 أبو محمد عبد الله الطريفي 87 - 90.
 أبو محمد عبد الله العبدوسي - القوري 101.
 أبو محمد عبد الله الكوش 111.
 أبو محمد عبد الله الوريكلي 113.
 أبو محمد عبد الواحد بن أحمد الوانشرسي 163.
 أبو محمد الغزواني 116 - 147 - 148 - 150 - 165 - 166.
 أبو مدين 83.
 أبو النجاء سالم الروداني 116.
 أبو يشو مالك بن خدة الصييح 165.
 أبو يعزى 21 - 123.
 أبو يحيى محمد بن محمد السكاك 73.
 أبو يحيى محمد بن محمد بن أبي القاسم بن أبي مدين 59 - 73.
 الأثرانك 143 - 161 - 162.
 أحمد بن أبي عبد الله محمد الوطاسي 112.
 أحمد الحفصي 91.
 أدارسة فاس 114.
 إدريس بن إدريس 114.
 إسماعيل ابن الأحمر 8 - 9.
 الأشراف الأدارسة 115.
 أصبانيا 89.
 الأصبنيول 90 - 93 - 98 - 107 - 109 - 124 - 125 - 143 - 162 - 163.
 اعتماد 20.
 أعراب أفريقة 91.
 الإفرنج 110.
 أهل آزمو 125 - 142 - 143.
 أهل آسفي 141.
 أهل أشبونة 139.
 أهل الأندلس 25 - 32 - 64.
 أهل البشرات 105.
 أهل البيازين 106.

حرف (ب)

- أهل تامسنا 136.
- أهل تطاوين 89 - 125.
- أهل تلمسان 162.
- أهل جبل طارق 93.
- أهل جنوة 107 - 109.
- أهل حومة القلقين 99.
- أهل الخروب 121.
- أهل الذمة 112.
- أهل الريف 124.
- أهل سلا 83.
- أهل السوس 139.
- أهل الصفيحة 70.
- أهل غرناطة 104.
- أهل فاس 91 - 98 - 99 - 100 - 101 - 114 - 120.
- أهل مالي 34 - 35.
- أهل مراکش 147.
- أهل المغرب 7 - 27 - 93 - 100 - 114 - 136 - 151.
- أهل المغرب الأقصى 111.
- أهل المشرق 27.
- أولاد جرار 77.
- أولاد حسين 67 - 77.
- أولاد عبد الحميد 152.
- أولاد المنحور 158.
- الآيالة المرينية 72.
- إيسايلا 107 - 124.
- برابرة صناكة 32.
- البربر 55 - 67 - 85.
- بر بن قيس 132.
- البرتغال 92 - 93 - 95 - 98 - 107 - 109 - 110 - 116 - 119 - 120 - 124 - 125 - 136 - 138 - 139 - 141 - 142 - 143 - 144 - 144 - 154 - 163.
- بنو الأحمر 62 - 73 - 102 - 109.
- بنو أبي الحسن 7.
- بنو أبي حفص 109.
- بنو أبي العباس 86.
- بنو إسرائيل 122.
- بنو توجين 34.
- بنو جابر 32.
- بنو راشد 121.
- بنو زغبة 5.
- بنو زيان 33 - 109 - 159 - 162.
- بنو سعيد 68.
- بنو عامر بن زغبة 4 - 33 - 57 - 80.
- بنو عبد الحق 95 - 118.
- بنو عبد الحميد العروسيون 152 - 153.
- بنو عبد الواد 60.
- بنو فزنكار 144 - 147.
- بنو القبائلي 86.
- بنو مرين 4 - 5 - 6 - 25 - 31 - 42 - 43 - 50 - 52 - 60 - 62 - 63 - 74 - 81 - 89 - 91 - 95 - 100 - 109 - 115.

الحسن بن علي الورديني 32.

الحسن بن عمر الفودودي 3 - 4 - 5 - 7
- 8 - 32 - 33.

الحسن بن محمد بن أحمد بن مرزوق 8.

الحسن بن الناصر 70 - 71.

الحسن بن يوسف الورتاجيني 32.

الحسين الشرطي 98.

حمو الزباني 81.

حرف (خ)

خالد 81.

الخضر 122.

خليل - الشيخ 101.

خوان الأول 92 - 94.

خير الدين باشا 162.

حرف (د)

دكالة 136.

دول الأوربا 162.

دولة ابن الأحمر 7.

الدولة الأندلسية 17.

دول بني الأحمر 124.

دولة بني زيان 161.

دولة بني وطاس 114 - 121.

الدولة السعدية 147.

دولة الشرفاء الأدارسة 110.

دولة الشريف العمراني 114.

الدولة المرينية 62 - 80 - 86 - 115 -

161.

118 - 120 - 132 - 161.

بنو معقل 5 - 33 - 35 - 57.

بنو الوزير 118.

بنو وطاس 98 - 109 - 110 - 118 - 119

- 138 - 147 - 148 - 150 - 151 - 156

- 157 - 158 - 159.

بنو يزناسن 162.

البيت الإدريسي 114.

حرف (ت)

تاشفين المريني 55.

تاملاط - أم موسى بن أبي عنان 69.

تبان المريني 100.

الترك 77 - 159 - 160 - 162 - 163.

حرف (ج)

جوهري - أم السلطان المستنصر بالله

عبد العزيز بن أبي العباس 79 - 81 -

86.

الجراكسة 77.

الجلالفة 109.

حرف (ح)

الحارث بن عباد 132.

الحبشة 26.

الحرّة ابنة أبي محمد السبائي 61.

الحرّة ابنة الأمير أبي الحسن علي 154.

حركات بن حسون 75.

حسان بن أبي سعيد الصيحي 66.

حسن بن خير الدين باشا 163.

الدولة الموحدية 86.

الديار المشرقية 163.

حرف (ذ)

ذوي حسان 35.

حرف (ر)

رضوان الحاجب 7 - 9.

الرضي - الشريف 131.

رقية ابنة أبي عنان 71.

الروم 26.

الريكي الثالث 89.

حرف (ز)

الزباء 92.

زنانة 67.

زروق 122.

زهور الوطاسية 117 - 120.

زيان بن عمر بن علي الوطاسي 65 -

118 - 119 - 142.

حرف (س)

السجيري 117 - 120.

سعد بن محمد الغني بالله بن الأحمر

81.

السعديون 135 - 147 - 153 - 154 - 156

- 160 - 163.

السعيد بن أبي عامر المريني 87.

السعيد بن عثمان 44.

سفيان الثوري 132.

سليمان بن داود 3 - 4 - 6 - 38 - 41 -

42 - 62 - 63 - 64.

سليمان بن سليمان خان 163.

سليمان بن ونصار 38 - 41 - 42.

سليم بن عبد الرحمن 65.

سويد 4 - 66.

سيويه 100.

حرف (ش)

الشاذلية 164.

الشاوية 96 - 116.

شاويل اليهودي 98.

الشرفاء السعديون 121.

شعيب بن ميمون بن داود 38.

الشيرازي 131.

حرف (ص)

صالح التركماني - صالح رئيس 160 -

صالح بن حمو الياباني 81 - 94.

صغير بن عامر بن إبراهيم 4.

صالح بن صالح بن حمو الياباني 96.

صبيح 66.

صنهاجة 15.

حرف (ط)

طلحة بن حسان 66.

حرف (ظ)

الظاهرة برقوق - الملك الظاهر 77.

حرف (ع)

عائشة ابنة القائد فارح العلي 60.

- عامر بن عبد الله بن ماساي 5.
عامر بن محمد الهنتاتي 3 - 4 - 6 - 17 -
18 - 42 - 53 - 54 - 55 - 56.
العباس بن عمر بن عثمان الوستافي 73.
العباس بن المقداد 70.
عبد الحق بن أبي سعيد بن أبي العباس
93 - 94.
عبد الحليم بن إسحاق اليزناسني 80.
عبد الحليم بن أبي علي بن أبي سعيد
43 - 44 - 51 - 74.
عبد الرحمن بن العباس القبائلي 86 -
87 - 88.
عبد الرحمن بن أبي عنان 3.
عبد الرحمن بن أبي يفلوسن 51 - 60 -
61 - 62 - 63 - 65 - 67 - 69 - 81 -
118 - 119.
عبد الرحمن المنجور 158.
عبد الرحيم بن إسحاق اليزناسني 81.
عبد العزيز بن أبي العباس أحمد
الحفصي 79.
عبد الله بن أحمد الميرني - عبو - 92 -
93 - 94.
عبد الله بن إسماعيل 144.
عبد الله بن كندوز العبد الوادي 66.
عبد المهيم بن أبي سعيد الحضرمي
69.
عبد المؤمن بن أبي سعيد 74.
عبد المؤمن بن أبي علي 51 - 53 -
عبد الواحد بن طلحة العروسي 152 -
153.
عبد الوارث الياصلوتي 116.
عثمان بن وزنمار 4.
العثمانيون 162.
عسيلة - أم السلطان الواثق بالله بن أبي
زيان 72.
العرب 5 - 6 - 31 - 33 - 34 - 57 - 67 -
74 - 85 - 91 - 161.
عرب أنكاد 96.
عرب تامسنا 31 - 144.
عرب بني معقل 67.
عرب جشم 32.
عرب السوس الأقصى 35.
عرب سويد 57.
عرب صبيح 165.
عروج باشا 162.
عرب المغرب الأقصى 67.
عسيلة أم السلطان الواثق بالله الميرني
72.
عرب هلال 4.
علي بن إدريس 65.
علي بن حسان 66.
علي بن هرون 155.
علي بن يوسف الوطاسي 96 - 97.
عمرو بن سليمان الشيطمي المغيطسي
- السيف - 122 - 123.
عمر بن عبد الله الفودودي 37 - 38 -

قبائل الحوز 153.

قبائل العرب 153.

قبائل السوس 139.

قبائل صناكة 54.

القبائل الهبطية 99 - 114.

القصبة بشفشاون 121.

القعقاع بن شور 132.

قمر - أم السلطان أبي سالم 7.

القهرودور 6.

قيس بن عاصم 133.

قيصر 92.

حرف (ك)

كعب بن مامة 132.

كلنب 107 - 108.

حرف (ل)

لوز ماريا 136.

حرف (م)

مبارك بن إبراهيم بن عطية 13 - 44 - 53.

54 - 56.

محمد بن أبي زكريا يحيى بن أبي

الحسن بن أبي دلامة 95.

محمد بن أبي ثابت 161.

محمد بن الأحمر - الغني بالله 8 - 12.

17 - 32 - 58 - 61 - 88.

محمد بن أحمد الأبهكم 73.

محمد بن أحمد بن أبي سالم 71.

محمد بن الزرقاء 32.

41 - 42 - 43 - 44 - 45 - 58.

عمر بن عبد الله الياباني 45 - 50 - 52.

53.

عمر بن علي الوطاسي 118.

عمر بن يحيى الوطاسي 163.

عياض القاضي 165.

عيسى بن الحسن المصباحي 111.

حرف (غ)

غازي بن أبي عبد الله محمد بن غازي

113.

غرسية بن أنطول 38 - 42.

غزوان 144.

غمارة 71.

حرف (ف)

فارح بن مهدي العليج 81 - 87 - 89.

90.

فارس بن عبد العزيز بن محمد 55.

فتح الله السدراتي 38.

فرناندو 95.

الفرننج 108 - 109 - 120 - 139 - 142.

163.

فرقاجة 30.

فضة - أم السلطان أبي زيان المريني 44.

حرف (ق)

القاسم بن أبي مدين 59 - 73.

القادر العباسي 131.

القادرية 164.

محمد بن عبد الحلیم بن أبي علي بن
أبي سعيد 74.

محمد بن عثمان بن أبي تاشفين 33.

محمد بن عثمان بن الكاس المجدولي
62 - 63 - 69 - 70.

محمد بن عريف 57.

محمد بن علي بن يوسف الوطاسي 97.

محمد بن الغني بالله ابن الأحمر 81.

محمد بن محمد بن أبي عمرو التميمي
75.

محمد بن موسى بن محمود الكردي
78.

محمد بن يوسف ابن الأحمر 82.

محمد بن يوسف بن علال الصنهاجي
76 - 78.

المرباط 91.

مريم 52.

مكسعود بن عبد الرحمن بن ماساي 3 -
5 - 8 - 38 - 41 - 50 - 51 - 61 - 62 -

68 - 69 - 70 - 71 - 72 - 73 - 74.

مسعود بن الناصر 147 - 148.

المعتصم بن أبي عنان المريني 3.

المعتمد بن عباد 3 - 19.

مغراوة 34.

منسا زاطة 35.

منسا سليمان 34 - 35.

منسا موسى 34.

المنصور 20.

المنصور بن أبي عبد الله 91.

المنصور بن أبي غانم 163.

منصور بن أحمد بن محمد التميمي 73.

منصور بن زيان الوطاسي 117.

منصور بن سليمان 4 - 5 - 6 - 7 - 8.

منقر 133.

منويل 136 - 139 - 143 - 139 - 143.

منويل بن باولو القشتيلي 81 - 89 - 92 -

93 - 94 - 95 - 120 - 135 - 139 -

141 - 142 - 144 - 157.

المهدي بن عبد الرحمن بن ماساي 70.

المهدي الشيعي 143.

الموحدون 16.

موسى 122.

موسى بن أبي سعيد 66.

موسى بن أبي عنان 68 - 69 - 71 - 72 -

75.

ميمونة - أم السلطان أبي عمر تاشفين

الموسوس 41.

حرف (ن)

الناصر بن أبي زكرياء 140 - 144.

الناصر بن محمد الشيخ - الكديد 146 -

147 - 148.

النجليز 98.

نصر بن الغني بالله ابن الأحمر 81.

حرف (هـ)

هارون اليهودي 98 - 99.

هتاتة 3 - 18 - 55.

حرف (و)

الوطاسيون 97 - 98 - 135 - 153 - 157

ونزمار بن عريف السويدي 68.

حرف (ي)الياسمين - أم السلطان أبي بكر بن أبي
عنان المريني 3.

يحيى بن أبي دلالة 80

يحيى بن أبي زكرياء 119.

يحيى بن الحسن بن أبي دلالة التسولي
78 - 80.

يحيى بن الصائغ اليهودي 81.

يحيى بن عبد الرحمن 42 - 43.

يحيى بن علال بن أمصمود الهسكوري
73 - 80 - 81 - 94.

يحيى بن موسى 72.

يحيى بن ميمون 54.

يحيى الجوطي 114.

يعقوب بن أبي حدو 16.

يعقوب بن حسان 66.

يعقوب بن عبد الحق 66.

يعقوب بن المنصور الموحيدي 143.

يعقوب التسولي 97.

يعيش بن عبد الرحمن بن ماساي 71.

يعيش بن علي بن أبي زيان 6.

يعيش بن علي بن فارس الياباني 73.

يغمراسن بن زيان 66 - 163.

يوحنا الثاني 107.

يوسف بن أبي حمو 76 - 77 - 80.

يوسف بن تاشفين 118.

يوسف بن علي بن غانم 77.

يوسف بن يعقوب بن عبد الحق 29.

اليونان 107.

فهرس الأماكن

حرف (ا)

- آزمور 65 - 110 - 135 - 139 - 142 - 143.
 آسفي 16 - 139 - 141 - 143 - 154.
 أصيلا 98 - 110 - 111 - 113 - 116 - 119 - 120 - 140 - 142 - 144 - 152.
 أكادير 110 - 139.
 آكرسيف 33.
 أنفا - الدار البيضاء 13 - 110 - 116 - 144.
 آنكاد 5.
 أنماي 150.
 أبو عقبة بوادي العيد 154.
 أرض الأندلس 58 - 62 - 102 - 120.
 أرض البروزي 111.
 أرض الجديدة 110.
 أرض السودان 110.
 أرض السوس 66.
 أرض ماركان 107 - 108.
 أشبونة 93 - 135 - 144.

إشيلية 44.

- أغمات 19 - 20.
 إفريقية 4 - 109.
 أندرش 105 - 106.
 الأندلس 6 - 7 - 9 - 12 - 14 - 20 - 21 - 27 - 28 - 42 - 43 - 44 - 51 - 56 - 58 - 59 - 61 - 62 - 63 - 68 - 69 - 70 - 72 - 73 - 75 - 81 - 91 - 102 - 103 - 107 - 109 - 125 - 135 - 162.

حرف (ب)

- باب الجيسة بفاس 39 - 96 - 124.
 باب الحمراء بفاس 101.
 باب الخميس بمراكش 148.
 باب الشريعة 135.
 باب فاس بمراكش 148.
 باب الفتوح 42 - 146.
 باب القليعة 146 - 147.
 باب المحروق 33 - 64 - 91.
 باب المعلقة 83.
 بادس 7.

- بجاية 91 - 118 - 162.
 برج الذهب 32 - 35.
 برج الشيخ 136.
 بر العدو 105.
 البريجة 110 - 136 - 139.
 برشلونة 4.
 البحر المحيط 107 - 108 - 110.
 بسيط أزغار 116.
 البشرات 103 - 105.
 البطحاء 68.
 بطوية 61 - 63 - 67.
 بلاد الأندلس 109.
 بلاد أولاد جلون 165.
 بلاد الحوز 153.
 بلاد الريف 63 - 118.
 بلاد زناتة 57.
 بلاد السوس 112 - 147 - 149.
 البلاد الشرقية 78 - 163.
 بلاد طليق 111.
 بلاد الغرب 57 - 116 - 156 - 163.
 بلاد غمارة 8.
 بلاد قشتالة 124.
 البلاد المراكشية 17 - 50.
 بلاد المشرق 113 - 163.
 بلاد مغراوة 68.
 بلاد المغرب 21 - 121 - 124.
 بلاد المغرب الأقصى 160.
 بلاد ملوية 33.
 بلاد الهبط 110 - 111 - 112 - 119 - 124.
 - 138 - 140 - 144 - 149.
 بليفيق 106.
 البلد الجديد 5.
 بونة 90.
 بيعة الجزائر 106.
حرف (ت)
 تاجحمومت 3.
 تاحنات 145.
 تادلا 32 - 54 - 76 - 151 - 153.
 تازا 44 - 57 - 67 - 69 - 76 - 77 - 78 - 79 - 146.
 تاصرورت 123 - 147.
 تالماغت 49.
 تامسنا 15 - 67 - 96.
 تانسيفت 111.
 تاويرت 67.
 تطاوين 89 - 90 - 106 - 124 - 125 - 154.
 تلمسان 4 - 5 - 6 - 33 - 34 - 56 - 57 - 58 - 59 - 60 - 67 - 68 - 69 - 74 - 76 - 101 - 106 - 151 - 161 - 162 - 163.
 تونس 70 - 74 - 90 - 91 - 106 - 117 - 120 - 143 - 162.
 تيجاس 89.
 تيط 110 - 136.

حرف (ث)

الثغور الهبطية 113.

حرف (ج)

جبال غمارة 7 - 70.

جبال المصامدة 50.

جبال الكاي 3.

جبل بللنقة 106.

جبل بني جابر 54.

جبل درن 50 - 54.

جبل الزعفران 39.

جبل زرهون 151.

جبل شلير 103.

جبل الصفيحة 70.

جبل طارق 58 - 63 - 93 - 98 - 142.

جبل العلم 21.

جبل العرض بفاس 111.

جبل غمارة 70.

جبل الفتح 72.

جبل مغيلة 72.

جبل هتاتة 3 - 18.

الجزائر 143 - 157 - 159 - 162.

الجزائر الخالدات 108.

جزيرة الأندلس 106 - 108 - 110 - 124.

جزيرة البسابس 165.

الجزيرة الخضراء 56.

الجديدة 125 - 136 - 139.

جنوة 107.

جوطة 114.

حرف (ح)

حجر باديس 143.

حصن تاجحمومت 68.

حصن تازروت 68.

حصن عامر 6.

حصن فونتي 139.

حصن مرادة 68.

الحمراء - حمراء غرناطة - 8 - 72 - 104

- 105 - 124.

حومة إيلان بمراكش 165.

حومة البليدة بفاس 99.

حومة القصور بمراكش 144 - 166.

حومة القلقلين بفاس 99.

حرف (خ)

خندق القصب 39.

حرف (د)

الدار البيضاء 144.

دار الكومي 99.

دبدو 124 - 163.

درب جنيرة 99.

درب السعود 146.

درعة 157.

الدعداعة 111.

الدنيا الجديدة 108.

ديار الأوربا 163.

ديار الأندلس 17.

حرف (ش)

شالة 21 - 25 - 30،

الشاوية 66 - 67.

الشام 107.

شفشاون 121.

شلف 68.

حرف (ص)

الصحراء 5 - 26 - 33 - 35 - 119.

صحراء السوس 55.

الصين 92.

حرف (ط)

الطالعة 87.

طرابلس 101.

طريف 41.

طنجة 45 - 61 - 63 - 73 - 95 - 96 - 98

- 110 - 111 - 113 - 138 - 140 -

142.

حرف (ع)

العرائش 110.

العدوة 13 - 72 - 104.

عدوة الأندلس 144.

عدوة القرويين 87.

عدوة وادي شفشاون 121.

عقبة المساجين 145.

عين القوادس بفاس 100.

حرف (غ)

غرناطة 58 - 63 - 82 - 93 - 102 - 103 -

الديار المغربية 163.

حرف (ر)

الرباط - رباط الفتاح - 20 - 106 - 110.

رباط آسفي 110.

رباط شالة 25.

رندة 84.

رومة 104 - 105.

الركن 69.

رياض الغزلان 39 - 51.

حرف (ز)

زرهون 94.

زنقة الجيلة 87.

حرف (س)

سبتة 44 - 56 - 58 - 63 - 69 - 72 - 73 -

- 75 - 83 - 92 - 94 - 95 - 96 - 98 -

- 109 - 110 - 111 - 124 - 125 - 138 -

140.

سيو 43.

سجلماسة 3 - 43 - 51 - 53 - 61 - 62 -

65 - 74.

سلا 13 - 20 - 21 - 22 - 24 - 32 - 45 -

- 46 - 49 - 58 - 82 - 83 - 84 - 106 -

109 - 110 - 111.

السودان 92.

السوس 55 - 140 - 147.

السوس الأقصى 110.

سيوس 90 - 91.

104 - 107 - 124 - 125.

حرف (ف)

فاس 3 - 4 - 8 - 21 - 32 - 34 - 35 - 43

- 51 - 53 - 54 - 55 - 58 - 59 - 60

61 - 62 - 67 - 68 - 69 - 72 - 73

78 - 79 - 84 - 87 - 90 - 91 - 94

95 - 96 - 97 - 99 - 100 - 105 - 106

111 - 112 - 115 - 116 - 119 - 120

124 - 125 - 135 - 144 - 145 - 146

147 - 148 - 149 - 150 - 151 - 153

154 - 156 - 159 - 161 - 164

165.

فاس الجديد 5 - 6 - 37 - 38 - 42 - 43

73 - 74 - 76 - 87 - 99 - 117 - 120

124.

فضالة 116.

حرف (ق)

قبة الخياطن 138.

قرطبة 106.

القرويين 99 - 113.

قسطنطينية 83.

القسطنطينية 107.

قشالة 8 - 104 - 116.

القصبة بغرناطة 9.

القصبة بفاس 37 - 38 - 52 - 145.

قصبة مراكش 53 - 65 - 119.

قصر تازروت 67 - 68.

القصر 152 - 153 - 156.

القصر الكبير 19.

قصر كتامة 71 - 110 - 140.

قصر المجاز 96 - 110 - 111.

قصر ونزمار 67.

القلعة بفاس 96 - 100 - 124.

قنطرة الرصيف 155.

حرف (ك)

كدية العرائس 6 - 8 - 38 - 39 - 43 - 45.

حرف (م)

مادرة 141.

مالقة 102.

مخروط جوطة 114.

المدرسة العنانية 116.

مدرسة الوادي بفاس 144.

مندريد 116 - 124.

المدينة البيضاء - فاس الجديد 8 - 61.

مرادة 67.

مراكش 3 - 4 - 8 - 13 - 16 - 21 - 25

32 - 35 - 43 - 50 - 53 - 54 - 62

65 - 66 - 67 - 73 - 86 - 95 - 105

111 - 118 - 123 - 139 - 144 - 146

147 - 148 - 150 - 151 - 156 - 157

161 - 165 - 166.

مرتيل 124.

مرج غرناطة 103.

مرس أكادير 139.

مرسي الجزيرة الخضراء 56.

مصر 77 - 107.	مرسي عساسة 51.
مكناسة الزيتون 21 - 67 - 99 - 101 -	مرسي سبة 92.
116 - 120 - 124 - 148 - 151 - 156 -	المرية 105.
157 - 166.	المعمورة 143.
الملاح 42.	المغرب 5 - 6 - 8 - 14 - 20 - 21 - 31 -
مليلة 105 - 135.	32 - 33 - 34 - 35 - 42 - 49 - 50 -
مملكة المغرب 129.	51 - 58 - 59 - 60 - 61 - 62 - 63 -
المهدية 110.	65 - 66 - 67 - 68 - 70 - 72 - 74 -
ميناء المعمورة 143 - 144.	77 - 79 - 80 - 83 - 84 - 85 - 91 -
حرف (ن)	92 - 94 - 95 - 100 - 101 - 108 -
نهر سبو 114 - 165.	109 - 111 - 114 - 115 - 118 - 119 -
حرف (و)	120 - 124 - 136 - 146 - 147 - 156 -
وادي آس 9 - 102 - 103 - 104.	161 - 165.
وادي درنة 156.	المغرب الأدنى 162 - 163.
وادي سبو 6.	المغرب الأقصى 65 - 66 - 81 - 83 - 92 -
وادي العبيد 153 - 154.	106 - 108 - 109 - 110 - 163.
وادي مرتيل 79.	المغرب الأوسط 109 - 151 - 159 - 162 -
وادي مليوية 29.	163 -
وادي ورغة 39.	مسجد السوق الكبير بفاس الجديد 90.
وادي اللين 146.	مسجد القرويين 124.
وجدة 6.	مسرانة 101.
وطاط 33.	مسلمة 161.
وهران 106 - 143 - 162.	مشرع أبي عقبة 153.
	المشرق 7 - 31 - 51 - 74 - 84 - 85 -
	165.